

الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي
جامعة الحاج لخضر
-باتنة-

قسم اللغة العربية وآدابها

كلية الآداب والعلوم الإنسانية

الأشكال النثرية في الأدب المغربي القديم "العهد الموحد نموذجا"

مذكرة مقدمة لنيل درجة الماجستير في الأدب المغربي القديم

إشراف الدكتور:
علي عالية

إعداد الطالبة:
حكيمه إملولي

السنة الجامعية :

1429 - 1430 هـ

2008 - 2009 م

شكر و عرفان

أتوجه بالشكر الكبير إلى كل من قدم لي يد العون لإنجاز هذا العمل منهم
الأستاذ د/ محمد زرمان، والدكتور عبد الرزاق بن سبع وكل أساتذتي الأجلاء،
وكل من له فضل ويد في إخراج هذا البحث إلى النور، وإلى عائلتي خاصة أمي
الحبيبة التي بذلت معي جهدا كبيرا، وإلى جميع الأصدقاء الذين لم يبخلوا عليا
ولو بكلمة طيبة وإلى كل من شجعني وحفزني وأخيرا إلى السادة أعضاء لجنة
المناقشة على ما بذلوه من الجهد في قراءة البحث وتصويبه بنطائهم

واقترحاتهم

فلهم جميعا كل الشكر والعرفان.

شهدت البلاد المغربية بمطلع القرن الخامس الهجري ظهور دولة بسطت جناحيها على بلاد المغرب والأندلس، وتربعت على عرش العلم والأدب، ونتيجة انبعاث الحركة الأدبية في بلاد المغرب نتج عنه موروث أدبي وثقافي غزير غطاه غبار النسيان، احتاج لمن ينفض عنه هذا الغبار ويزيل عنه ستار الغموض الذي يتلبس قضاياه، وبعض جوانبه الخفية فهو أقدر على شرح الحقائق وهو الطريق الميسر إلى الإقناع بالحجج العقلية والبراهين المنطقية والمؤثرات الوجدانية وهو الأقدر على تحفيز النفوس ورفع الهمم ومخاطبة العامة والخاصة والنثر متحرر من قيود الوزن والقافية وهو بطبيعة أسلوبه أسهل وأسلس، واعتماده في بعض الشعائر الدينية كوسيلة تبليغ واتصال واقناع (كخطبتي الجمعة والعيدين والزواج) واستماده من خطب الأحزاب السياسية وكخطب الدعوة والوعظ والارشاد واعتماده في المراسلات وكتابة العهود والعقود وكل ما يتعلق بشؤون البلاد والعباد والدين ولعل النثر أسبق من الشعر في توصيل هذه الرسالة، لأن لغته دقيقة موضوعية تفصل القضايا وتتنظر إليها بعين العقل وهو الأقدر على تحفيز النفوس ورفع الهمم، وهذا ما جعلني أخوض غمار البحث في هذا الموضوع لأن النثر لم يلق اهتماماً كافياً من الدارسين والباحثين إذا ما قيس بالشعر في حد علمي، وبتتبعي للحركة الأدبية في بلاد المغرب أعجبت بحضارته وبذلك الازدهار العلمي والثقافي الذي وصلت إليه خاصة في عهد الموحدين، ولكي أشبع فضولي اخترت الخوض في غمار هذه التجربة العلمية بالبحث في تاريخ هذه الدولة الأدبية والثقافية لإمطة اللثام عن هذا الموروث الأدبي الكبير، الذي يعتبر واحداً من تراث المغرب العربي، وحسب اطلاعي وبحثي فإنني لم أجد دراسة وافية وشاملة لهذه الأشكال مجتمعة مع وجود دراسات حول شكل منها حيث اتفق موضوعي مع أطروحة الطاهر محمد توات (أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن) وأطروحة يوسف عروج (الكتابة الفنية في المغرب خلال القرنين السادس والسابع الهجريين) محمود محمد خياري (أدب الرسائل الديوانية في المغرب والأندلس في عهد الموحدين) في الحيز المكاني والحيز الزماني مع اختلاف في الموضوع فقد تناولوا الكتابة الفنية في الرسائل المغربية ولكن جاء موضوعي شاملاً للأشكال النثرية في هذا العصر التي وقعت عليها في هذا العصر مع تعدد الأشكال النثرية الأخرى

كالقصة والوصية والأمثال والحكم وأدب النجوى... الخ، وبما أنني لم أعتز على دراسة وافية وفنية، ومتخصصة في هذا الموضوع إضافة إلى أن الأدب المغربي القديم لا يزال بكرًا فقد حاولت البحث فيه لأن الأشكال النثرية في الدولة الموحدية موضوع جدير بالبحث والدراسة، إذ لم يوفيه الباحثون حقه من الدراسة والبحث، وإن وجد فيعد قطرة من بحر، بالمقارنة مع شقيقه الثاني الشعر الذي غزى الساحة الأدبية، وبسط نفوذه وتربع على عرش الأدب المغربي فهذه الأسباب كلها كانت مشجعة لي على بداية رحلة البحث.

ولعل أبرز إشكالية مطروحة تتمثل أساسًا في مدى تمكن هذه الأشكال النثرية المتنوعة من نقل وتصوير للواقع الحضاري بكل تدخلاته السياسية خلال الفترة الموحدية، هل هذا التنوع في الأشكال النثرية والذي زخرت به الساحة الأدبية هو ذاتي مصدره النص أم هو حالة فرضها الواقع الخارجي والظروف السياسية والفكرية في ذلك؟ هل ارتقت هذه الأشكال النثرية إلى الدرجة الفنية أم هي تقليد لمن سبقهم ومحاكاة لهم وهل أفقدتها الصراعات السياسية فنياتها؟ هل كان للظروف السياسية أثرها على هذه الأشكال وكيف امتدت هذه الأشكال إلى الأندلس؟ هل كان لها طابعها الخاص وهل أثرت الثقافة الأندلسية في هذه الأشكال؟ وهل كانت هذه الأشكال مجددة في فنونها أم إنها مقلدة؟

وهذه الإشكاليات تتبلور في هذا العنوان (الأشكال النثرية في الأدب المغربي في العهد الموحد) وبعد استقراره في ذهني بدأت البحث عن المصادر والمراجع التي تخدم بحثي فأخذت أتجول في المكتبات الجامعية والعامية علني أجد ما يكون منطلق رحلتي العلمية، وبعد جهد كبير تمكنت من الوصول إلى أهمها ولو بنسبة قليلة وتتوعدت من تاريخية وأدبية.

أما التاريخية فمنها مثلًا (البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس) لابن عذارى المراكشي، (الكامل في التاريخ)، لابن الأثير، (الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس) لابن أبي زرع، (نظم الجمان في أخبار الزمان) لابن القطان الفاسي. أما الأدبية فمنها: (صبح الأعشى في صناعة الإنشا) للقلقشندي و(النبوغ المغربي في الأدب العربي) لعبد الله كنون، و(نفع الطيب) من غصن الأندلس الرطيب للمقري

وعموما فقد اقتضى هذا مني أن أضع هذه الأشكال النظرية في إطارها العام الذي يشمل الوضع السياسي السائد في بلاد المغرب في هذه الفترة والمضمون الثقافي، مع مراعاتي لعدم الخروج عن هذا، ودراسة لبعض جوانبه الفنية في تطوره وواقعه مما يخدم الغرض الذي جاء من أجله هذا البحث، ف جاء تقسيم البحث وفق ذلك إلى: مقدمة وتمهيد ، وأربعة فصول، وخاتمة.

خصت التمهيد للحديث عن الحياة السياسية والثقافية، حيث تناولت الظروف السياسية السائدة في بلاد المغرب، وذلك الصراع القائم بين دولة الموحدين والدولة المرابطية وكيف قضت عليها، وتربعت على عرش المغرب ، وأشرت إلى أهم أمرائهم الذين يعتبرون الكيان السياسي الذي قامت عليه هذه الدولة ، وإلقيت الضوء على الحياة الثقافية في المغرب خلال هذه الفترة التي نشطت بمفعول الواقع السياسي الذي أثر على الحركة الأدبية فيها، ثم ختمت هذا الفصل بتعريف للنثر الأدبي وكيف اهتمت به هذه الدولة.

خصت الفصل الأول للخطابة بأنوعها فعرفتها وتعرضت إلى تطورها عبر العصور وتناولت أهم الخطب الموحدية مشيرة إلى أهم الخطباء وأشهرهم، وبهذا ألقيت نظرة على واقعها ودورها الكبير الذي لعبته رغم قلة النصوص التي اعتمدها. وتناولت في الفصل الثاني أدب الرسائل وهي التي عبرت فيها عن الاهتمامات الكبرى التي أولاهها الموحدون اهتماما كبيرا بحسب ما جاء فيها من مراعاة لتطور مجريات الأحداث السياسية، ومقتضيات الأحوال، فعرفتها وتناولت تطورها، وبنيتها، وأنواعها، وتطرقت إلى نماذج منها في دراسة تحليلية لنوعها الديوانية والأدبية.

درست في الفصل الثالث أدب المناظرات، عالجتها من خلال تعريفها لغة واصطلاحا وعلاقتها بالجدل ، وتعرضت إلى تطورها عبر العصور وصولا إلى العصر الموحي وأخلاقياتها، وذكرت نماذج منها.

أما الفصل الرابع فجعلته للدراسة الفنية تعرضت فيه للخصائص والسمات الفنية للأشكال النظرية المدروسة تناولت فيه الجانب اللغوي في بعض الظواهر وعلاقتها بالوضع السائد، إلى جانب بعض القضايا الفنية كالمعجم اللغوي، والتراكيب ، وتناولت بعدها الجانب البلاغي مركزة على أبعاد الصورة ووظائفها الفكرية والجمالية فيه والتي

وجدتها في نصوصه، وختمته بدراسة للتشكيل الموسيقي متطرفة إلى السجع والطباق والجناس وأثرها في إيقاع النص وذلك بالوقوف عند كل شكل نثري حسب أهميته الفنية لأصل إلى النتائج التي أستخلصتها من كل ظاهرة فنية.

وختمت البحث بما توصلت إليه من نتائج هذه الأشكال، واتبعت في بحثي هذا المنهج التاريخي القائم على تتبع أهم الأشكال النثرية والعمل على تصنيفها و إبرازها موضحة جذورها الأولى، وعلاقتها بالمكان والزمان اللذين نشأت فيهما وتأثرها بهما وأثرها فيهما وكذا علاقتها بالمبدع والمتلقي والمجتمع، واعتمدت كذلك المنهج على الأسلوب في تحليل النصوص، والوصول إلى أهم الظواهر الأسلوبية التي تميزها والغاية من هذين المنهجين هو تشكيل هذه الأشكال في قالب فني موضوعي.

وبعد هذا الجهد المتواضع وتلك الصعوبات التي واجهتها في قلة المصادر وندرته، وطول البحث وكثرة عناصره ظل يلزمني إحساس بالتقصير تجاه تراثنا المغربي وحسبي أنني أخلصت النية وبذلت الجهد والله الموفق وأتمنى أن يرى هذا البحث النور ليستفيد منه كل دارس للأدب المغربي والحمد لله الذي تواضع لعظمته كل شيء.

وفي الأخير أتوجه بالشكر الجزيل لأستاذي الفاضل الدكتور "علي عالية" لرعايته لهذا البحث، وإشرافه عليه وتوجيهي بخبرته العلمية ، وصبره علي وتحمله لي، فقد عمل كل ما بوسعه لإرشادي إلى طريق العلم والمعرفة وتحفيزي بنصائحه الثمينة فكان نعم الأب لي ونعم الراعي لهذا البحث.

نسأل الله أن يجعل هذا العمل نافعا، وأن يوفقنا إلى مزيد من العمل الصالح.

الحياة السياسية والثقافية في دولة الموحيدين

1- الحياة السياسية

إن الدارس لتاريخ قيام الدولة الموحدية يلاحظ تشابها واضحا في الظروف والمراحل التي رافقت نشوء كل من دولة المرابطين، ودولة الموحيدين، فقد تأسست الأخيرة في جبال درن الوعرة المنعزلة في إقليم السوس، على يد الفقيه رجل السياسة والعلم "محمد بن تومرت"⁽¹⁾ واعتمدت في قيامها على دعوة دينية، وعلى عصبية قبلية متمثلة في قبيلة "مصمودة الكبيرة"⁽²⁾. وبعد أن تشبع ابن تومرت من علوم المشاركة، وآدابهم رجع إلى المغرب أمرا بالمعروف، وناهيا عن المنكر، داعيا إلى تخليص العقيدة من شوائب الشرك، متهما خصومه بالجمود الديني والتجسيم، وقد تنبه المرابطون لهذه التهم الموجهة إليهم، فتصدوا لها بتكذيب مزاعم "ابن تومرت"، وبأنها مخالفة للحقيقة لكن هذا لم يثن زعيم الموحيدين على مواصلة جهاده فشن هجوما على حكام المرابطين، محاولا فسخ ولاء القبائل لهم، وترسيخ ولائهم له، وطبيعي أن تكون مهمته صعبة جدا لأنه استهدف دولة عرفت بجهادها في الصحراء الكبرى، وفي الأندلس، فأشهر عليهم سيفه، وقلبه، ولسانه فقاومهم في جميع الميادين حتى غلبهم، وقهرهم، فبايعته الأمة المغربية بالامارة سنة (524هـ)⁽³⁾، ولقب نفسه "بالمهدي" ادعاء منه أنه المهدي المنتظر الذي وعد الرسول صلى الله عليه وسلم بخروجه آخر الزمان، وسار المهدي من نصر إلى نصر إلى أن توفي سنة (524هـ) بعد أن أسس قواعد ودعائم الدولة الموحدية، وبوفاته اتفق شيوخ الموحيدين على مبايعة عبد المؤمن بن علي⁽⁴⁾ لأنه الأقدر على حمل أعباء هذه الدولة الفتية، وإلى أنه أقرب الناس إلى زعيمهم، فبويع بإمرة المسلمين، ولكنه وجد الطريق شائكا أمامه كيف لا، وهو بصدد هدم أركان دولة المرابطين التي قامت على تعاليم

(1) هو المهدي بن عبد الله محمد بن تومرت العلوي، الحسيني، من هرغة من قبائل المصامدة في جبل السوس ولد سنة 473هـ وتوفي سنة 524، كان فقيها فاضلا، عالما بالشريعة، حافظا للحديث، عارفا بأصول الدين والفقه، كان يلقب بـأسافوا، ومعناه الضياء لكثرة ما كان يسرح من القناديل بالمساجد لملازمتها، رحل إلى المشرق لطلب العلم وعاد بحرا متفجرا من العلوم... أنظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1982، ج10، ص569. ابن خلكان: وفيات الأعيان في أثناء، أبناء الزمان، تح احسان عباس، دار صادر بيروت، لبنان، ج5، ص138-139، علي بن عبد الله بن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة الرباط، المغرب، 1972، ص172-173.

(2) المصامدة نسبة إلى ولد مصمود بن يونس بن بربر، وهم أكثر قبائل البربر وأوفرهم من بطونهم برغواطة، وغمارة وأهل جبل درن في المغرب الأقصى، عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان، م6، ص245.

(3) عبد الرحمن بن محمد الجليلي: تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1980، ج2، ص4.

(4) أبو محمد عبد المؤمن بن يعلا بن مروان بن نصر بن عامر بن الأمير بن موسى بن مادغيسين بن بر بن قيس بن عيلان بن عدنان ولد سنة 487هـ في أسرة فقيرة، في قرية تاجرا نواحي ندرومة، طلب العلم في بلدته ثم رحل إلى ملالة أين التقى "يابن تومرت"، كان عالما حازما، مصلي، توفي سنة 558هـ، وهو المؤسس الحقيقي لدولة الموحيدين، انظر: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص184، 183.

الإسلام النقية. واتخذت من جهاد النصارى في الأندلس سوى الغيرة على الإسلام عندما أخذت معاقل المسلمين تتهاوى تحت مطارق ألفونسو⁽¹⁾، وبذلك أخرجوا سقوط الأندلس بيد النصارى عدة قرون ولم يكتف عبد المؤمن بما وصل إليه أستاذه، بل كان طموحه أكبر منه، فأخذ يجهز الجيوش لغزو المغرب الأوسط والأدنى، ولم يتوقف عن زحفه حتى انصاعت له القبائل بالولاء والطاعة وبهذا وحد المغرب تحت راية الموحدين، وفي هذه الفترة الزمنية كانت أحوال الأندلس مظطربة نتيجة تخاذل حكام المرابطين وتواكلهم فوجد الفرصة لضم عدوة الأندلس إلى حكمه فشد الرحال، وعقد العزم، فعبر البحر، واستقبله أهل سبتة بالترحيب وبايعوه، وبهذا أخذت مدن الأندلس الواحدة تلو الأخرى تتصاع للموحدين حتى تم فتح الأندلس سنة (556هـ).⁽²⁾

وبهذا يعتبر أول من وحد المغرب العربي تحت حكم أبنائه، وضم إليه الصحراء إلى شمال الأندلس⁽³⁾، وبعد وفاة عبد المؤمن خلفه ولده أبو يعقوب يوسف،⁽⁴⁾ ولم يقل أهمية عن والده خاصة بعد أن دعم أركان دولة الموحدين فأخذ على العمل على إزدهار المغرب. والأندلس في جميع الميادين، وإخماد نار الفتن في الأندلس وتوالى حكام الموحدين الواحد تلو الآخر حتى سقطت على يد المرينيين في وقعة العقاب،⁽⁵⁾ مقبرة الحكم الموحد، بسبب ثورة بني غانية⁽⁶⁾ إضافة إلى ثورات الأعراب المتتالية كقبائل (بني سليم وبني هلال)⁽⁷⁾ التي سكنت إفريقيا وبعد ذلك استقرت في المغرب الأقصى، إضافة إلى النزاع القائم بين أمراء الموحدين على الحكم وضعف حكاهم المتأخرين، وإهمالهم لمصالح رعاياهم، فسقطت الدولة الموحدية سنة (668هـ/1269م)⁽⁸⁾ بعد

(1) هو أدفونش بن فرلند بن غرسية بن شامجه بركة، ملك قشتالة كان طاغية الروم الأعظم حكم نيفا على 50 سنة بأشهر توفي بطليطلة سنة (502م) انظر: ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس، تح ومراجعة إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت لبنان، ط3، 1980، ج4، ص130.

(2) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب الكبير "العصر الإسلامي"، دار النهضة العربية للطباعة والنشر، بيروت، لبنان 1981، ج2، ص792.

(3) عبد الواحد بن علي المراكشي، المعجب في تلخيص أخبار المغرب، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998، ص162.

(4) أبو يعقوب يوسف ابن أبي محمد عبد المؤمن بن علي القيسي الكومي صاحب المغرب، كان فقيها حافظا لأن أباه هذبه، كان ميالا للفلسفة والحكمة أكثر من ميله إلى الأدب وبقية العلوم، كان جماعا مناعا، ضابطا لأخراج مملكته تنسب إليه الدنانير اليوسفية، كان أبيض تعلوه حمرة، شديد الشعر، حلو الألفاظ، حسن الحديث طيب المجالس، توفي سنة 580هـ، انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان في أبناء الزمان، ج7، ص130-131.

(5) هي معركة قامت بين ملوك الأسيان النصارى انتقاما لهزيمتهم في معركة الأرك وبين جيوش الموحدين انتهت بهزيمة هذه الأخيرة سنة 609هـ، وبهذا سقطت الأندلس من حكم الموحدين، وتنتج عنها خسائر بشرية ومادية كبيرة.

(6) هم قبائل من بقايا المرابطين تحالفوا مع قبائل بني سليم وبني هلال، قتمردوا على الموحدين وطالبوا بحكم أجدادهم المرابطين عبد الرحمن ابن خلدون، تاريخ ابن خلدون ج6، ص228-229.

(7) من بطون قفر الحجاز بنجد، فبنو سليم مما يلي المدينة، وبنو هلال في جبل غزوان عند الطائف نزلوا المغرب عن طريق المستنصر بالله ملك صنهاجة حين استقدمهم من صعيد مصر واستوطنوا مدن المغرب، المرجع نفسه: ج6، ص15-16.

(8) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك وتاريخ مدينة فاس، ص307.

صراع طويل، وبعد أن عمرت قرابة قرن ونصف قرن فكانت أعظم حضارة في بلاد المغرب.

1/1 أصل تسميتهم بالموحدين: تبنى ابن تومرت في دعوته مذهب المعتزلة⁽¹⁾ في الأسماء والصفات حيث نفى ما عساه أن يوهم بالشبه والتمثل لله سبحانه وتعالى، وكل ما من شأنه أن يشبه بأفعاله وأقواله حتى ولو كان ذلك في صفاته الموجودة في الكتاب والسنة، ولهذا أطلق على أصحابه اسم الموحدين لأنهم في رأيه هم الذين يوحدون الله سبحانه وتعالى وتمييزا عن أعدائه المجسمين (المرابطين) إضافة إلى أن هناك من يرجع تسمية الموحدين إلى أن قوام دعوة الموحدين هو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والقول بالتوحيد على طريقة الشيعة⁽²⁾ من تأويل المتشابه من آيات القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، ومن أجل ذلك سمي أتباعه بالموحدين.⁽³⁾

غير أن ابن القطان يرى أن أصل الموحدين عند ابن تومرت هو تلك القبائل التي ناصرته أثناء دعوته، وهي من مصمودة وهي كالتالي "هرغة، تينمل، جدميوة جنفسية، هنتانة، وأهل هذه القبائل"⁽⁴⁾، ويضيف المراكشي إلى القائمة السابقة "قبيلة كومية، هسكورة، صنهاجة، دكالة، جاحة، رجاجة، جزولة، لمطة"⁽⁵⁾، ولكن المراكشي لا ينص إن كانت هذه القبائل الموحدية في عهد ابن تومرت، أم في عهد خلفائه، كقبيلة "كومية" التي التحقت بقبائل الموحدين وهي قبيلة عبد المؤمن بن علي.

(1) سمو أنفسهم بهذا الاسم لاعتزالهم قول الأمة، يعنون بذلك أنهم اشتقوا لأنفسهم طريقا جديدا ساروا فيه وخالفوا غيرهم، وليس تحولهم من سارية جديدة إلا رمزا لتخليصهم عن هذه الفرق وإنشائهم فرقة جديدة، كما سمو أنفسهم أهل العدل والتوحيد؛ أما التوحيد فلأنهم نفوا صفات الله وعدوا القول بها تعديدا لله، وأما العدل فلأنهم نزهوا الله عما يقول خصومهم من أنه قدر على الناس المعاصي ثم عذبهم عليها، وقالوا: إن الإنسان حر فيما يفعل، ومن أجل هذا عذب على ما يفعل، وهذا عدل واشتهر من أوائل الداعين إلى الاعتزال وأصل بن عطاء وعمر بن عبيد، أنظر أحمد أمين: فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 11، 1979، ص 295-296.

(2) الشيعة لغة هي الصحب والأنبياء، ويطلق في عرف الفقهاء والمتكلمين (هم علماء التوحيد المسمى بعلم الكلام) من الخلف والسلف على أتباع علي وبنه رضي الله عنهم ومذهبهم جميعا متفقين عليه أن الإمامة ليست من المصالح العامة التي تفوض إلى نظر الأمة ويتعين القائم بها بتعيينهم، بل هي ركن الدين وقاعدة الإسلام، ولا يجوز لنبي إغفاله ولا تفويضه إلى الأمة بل يجب عليه تعيين الإمام لهم، ويكون معصوما من الكبائر والصغائر وأن علي رضي الله عنه هو الذي عينه صلوات الله وسلامه عليه، ومنهم طوائف يسمون الغلاة يتجاوزون حد العقل والإيمان في القول بألوهية هؤلاء الأئمة، إنما على أنهم بشر اتصفوا بصفات الألوهية؛ أو أن الإله حل في ذاتهم البشرية. انظر: عبد الرحمان ابن خلدون: المقدمة المسماة ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2004، ص 194-195.

(3) أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة الإسكندرية، القاهرة، 2003، ص 111.

(4) علي بن محمد الفاسي ابن القطان: نظم الجمان في أخبار الزمان، تج: محمد علي مكي، طباعة جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب، (د ت)

ص، 28.

(5) عبد الواحد بن علي المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 137.

1/3 خلفاء الموحدين

| مدة الخلافة | أهم أعمالهم | خلفاء الموحدين |
|------------------------------|--|---|
| 515هـ-524هـ (1129م-1163م) | مؤسس الدولة الموحدية على طريقة شيخ القبيلة المتزعم لأنه هو الأول والوحيد الذي خطط لقيام دولة الموحدين، ومهد لها سبيل القيام ووضع لها الأسس التي قامت عليها، وحارب المرابطين حتى مات. | محمد المهدي بن عبد الله بن تومرت (473-524هـ) |
| 524هـ-558هـ (1129م-1163م) | هو الأب الروحي لدولة الموحدين، كما يعتبر المؤسس الحقيقي لها، أول من تلقب بأمير المؤمنين من خلفائها، خليفة المهدي، وتلميذه، وعاهل إفريقيا، ضم المغرب الأقصى، والأوسط، والأندلس تحت حكمه، قضى على المرابطين عمل على إصلاح ما خربته الحرب من دمار أثناء الفتوحات التي قام بها، عمل على ازدهار الدولة بتنظيم شؤونها، ببناء المساجد والمدارس وتشجيع الحركة العلمية والأدبية فيها. | عبد المؤمن بن علي (487-558هـ) |
| 558هـ-580هـ (1163م-1184م) | هو ثاني الخلفاء وابن عبد المؤمن، كان محبا للعلوم وخاصة الفلسفة، كان فقيها عالما بمسائل النحو واللغة، ازدهرت العلوم في عهده، جمع الأموال الكثيرة وهو أول ملك من ملوك الموحدين جاز الجهاد فغزا بنفسه، فتمهدت البلاد في أيامه وتأمنت الطرقات، وضبطت الثغور، وصلح أمر الناس في البادية والحاضرة وذلك لحسن سيرته ⁽¹⁾ جمع مكتبة كان ما فيها من الكتب قريبا مما جمعه "الحكم المستنصر بالله الأموي" ⁽²⁾ ، عمل على الحد من أطماع ملوك وأمراء إسبانيا. | أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن (533-580هـ) |
| 580هـ-595هـ (1184م-1199م) | ثالث الخلفاء الموحدين يسمى عصره بالعصر الذهبي حيث لم تبلغ الدولة ما بلغت في عهده من الذروة التي وصل إليها التطور السياسي إلا في عهد جده عبد المؤمن لقب "بالمنصور" كان عالما بالحديث والفقه واللغة، محبا للعلماء، معظما لهم، محبا للجهاد مواضبا عليه، يشهد جناز الفقهاء والصلحاء ويزورهم ويتبرك بهم ⁽³⁾ رفع راية الجهاد، ونصب ميزان العدل ورتب قواعد بلاد الأندلس بعد أن أصلح حالها، أول من كتب العلامة بيده (الحمد لله وحده)، بنا المساجد والمدارس في بلاد إفريقيا والمغرب والأندلس، وبنى المارستان للمرضى والمجانين وبنى الصوامع والقناطير والجباب للماء. ⁽⁴⁾ انتصر على نصارى إسبانيا في معركة الأرك. | يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن (555-595هـ) |

(1) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص 206.

(2) هو ثالث الخلفاء الأمويين بالأندلس حكم بين (350هـ-366هـ) كان محبا للعلم جماعا للكتب بما لم يجمعه أحد من الملوك قبله بلغ عددها أربعا وأربعين ألف كتاب، عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، (د ت)، ص 83.

(3) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص 216.

(4) المرجع نفسه: ص 217-218.

| | | |
|--|--|---|
| <p>595هـ— 610هـ) (1199م-1213م)</p> | <p>كان شابا طموحا معتزًا بنفسه وبرأيه، تولى عرش الموحدين هو ابن ثمانية عشر عاما، كان فارسا شجاعا، أمر ببناء مدينة وجدة المغربية⁽¹⁾ أصلحت على يده كثير من جزر الأندلس، استولى على جزر البليار قاعدة بني غانية، احتل تونس خاض معركة العقاب⁽²⁾ وانهزم فيها وبهذا انهيار حكم الموحدين بالأندلس.</p> | <p>محمد الناصر ابن يعقوب المنصور ابن يوسف بن عبد المؤمن (576هـ-610هـ)</p> |
| <p>610هـ-620هـ) (1213م-1224م)</p> | <p>بويغ بالخلافة وهو ابن ست عشرة سنة، لا حكمة له ولا تجربة له لم يغز في أيامه، كانت أوامره لا تنفذ، ضعفت الدولة في أيامه واعتراها النقص، أيامه كانت هدنة ودعة وعافية⁽³⁾. استولى ألفونسو على معاقل المسلمين بالأندلس، كثرت شكايات أهل المغرب له من ظهور بني مرين، لكنه ظل ساكنا، كان شغوفًا بالراحة، مدمنا على الخلاعة وركونه إلى اللذات وتقويضه أمر مملكته وأمهات أموره إلى السفلة⁽⁴⁾.</p> | <p>يوسف المنتصر بالله ابن محمد الناصر ابن يعقوب المنصور، ابن يوسف بن عبد المؤمن (594هـ-620هـ)</p> |
| <p>620هـ— 621هـ) (1224م-1225م)</p> | <p>تلقي الخلافة على كرهه كان هرما عجوزا، عالما فاضلا، ورعا استقام له الأمر نحو شهرين⁽⁵⁾. ثارت عليه شيوخ الموحدين بزعامة ابن أخيه العادل فخلعوه من الحكم، ونهبوا قصره، واستولوا على أمواله وحريمه، وخنقوه، فكان أول من خلع، وقتل من من بني عبد المؤمن، فكان فعلهم ذاك سببا في خراب ملكهم.</p> | <p>أبو محمد عبد الواحد ابن يوسف ابن عبد المؤمن (ت 621هـ)</p> |
| <p>624هـ-627هـ) (1227م-1230م)</p> | <p>بويغ بالخلافة في مرسية بالأندلس البيعة الأولى، وبعد مقتل المخلوع خلص له الأمر وبابيعته كافة الموحدين، اختلفت أحوال الأندلس في عهده، كما كثرت إغارات النصارى في عهده على إشبيلية ومرسية، كان أول من سن إعطاء البلاد والحصون للروم ثارت عليه قبائل هسكورة والخلط فعاثوا في مراكش خرابا ودمارا ثار عليه أمراء الأندلس وقتل مخنوقا⁽⁶⁾.</p> | <p>عبد الله بن يعقوب المنصور ابن يوسف بن عبد علي (ت 624هـ)</p> |
| <p>624هـ-627هـ) (1227م-1230م)</p> | <p>بويغ وهو ابن ست عشرة سنة بجامع المنصور، اضطربت الأحوال في عهده وغلت الأسعار، وعم الخراب والفساد بلاد المغرب، استولى بنو مرين على أنحاء المغرب، انصرف أهل المغرب عنه إلى عمه المأمون قتل أثناء معركة مع المأمون، وقتل عدد كبير من أنصاره.</p> | <p>يحيى بن محمد الناصر ابن يعقوب المنصور ابن يوسف بن عبد المؤمن بن علي (608هـ-627هـ)</p> |

(1) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص 233.

(2) عبد الرحمن بن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج 6، ص 295.

(3) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص 242.

(4) المرجع نفسه: ص 243.

(5) المرجع نفسه: ص 244.

(6) المرجع نفسه: ص 247.

| | | |
|---|---|---|
| <p>627هـ— 629هـ) (1230م-1232م)</p> | <p>كان فقيها حافظا لحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، إماما في اللغة العربية كاتباً بليغاً، له توقيعات عجيبة، كان سفاكا للدماء لا يتوقف فيها طرفة عين⁽¹⁾، أصدر كتابه بمحو اسم المهدي من السكة والخطبة، والنعي عليه في بناء الكنيسة في مراكش⁽²⁾، أول من استخدم عسكر النصارى بعد أن أدخلهم إلى أرض المغرب، أمر بتدوير الدراهم التي ضربها المهدي مربعة.</p> | <p>إدريس المأمون بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي (581هـ-629)</p> |
| <p>630هـ-640هـ (— 1232م- 1242م)</p> | <p>ببيع الخلافة وهو ابن أربع عشرة سنة، ببيع طوعا وكرها بفضل دهاء أمه التي كانت فرنجية، سقطت مراكش في عهده على يد (الخط، هسكورة)⁽³⁾ سنة 632هـ ضعفت البلاد في عهده، مات غريفا في صهريج القصر، يقال أنه أخرج من الماء، وحم لوقتته وكان فيها مقتله⁽⁴⁾.</p> | <p>عبد الواحد الرشيد بن إدريس المأمون بن يعقوب المنصور بن يوسف الشهيد بن عبد المؤمن (216هـ-640هـ)</p> |
| <p>640هـ-646هـ (1242م-1248م)</p> | <p>بطل شجاع مهاب له إقدام في الحروب ونجدة فاق بها من تقدمه من آبائه⁽⁵⁾ أبعد الموحدين وقرب إليه العرب من جشم، تفاقم خطر بني مرين في عهده فخرج لقتالهم، كان حازما يقضا بعيد الهمة، حرك همم الموحدين وحشد الجنود، قتل أثناء معركة نشبت بينه وبين يحيى بن زيان أمير تلمسان وتمكن بنو مرين من استخلاص عرش مراكش.</p> | <p>علي السعيد بن إدريس بن يعقوب المنصور بن يوسف بن عبد المؤمن (ت 646هـ)</p> |
| <p>646هـ— 665هـ) (1248م-1266م)</p> | <p>لقب بالمرتضى. أحد أحفاد أبي يعقوب يوسف، سقطت مدن الرباط، مكناس فاس، في عهده في يد المرينيين، قضى فترة حكمه في كروفر، ادعى الزهد والورع وتسمى بثالث العمرين⁽⁶⁾ كان مولعا بالغناء، كانت أيامه أيام أمن ودعة ورخاء مفرط لم ير أهل مراكش مثله.</p> | <p>أبو حفص عمر بن السيد اسحاق بن يوسف ابن عبد المؤمن (ت 665هـ)</p> |
| <p>665هـ— 668هـ) (1266م-1269م)</p> | <p>آخر خلفاء الموحدين وخاتمة ملكهم، تحالف مع بني مرين ليعينوه على استخلاص الحكم من المرتضى، مقابل تسليمهم مراكش، كان بطلا مجربا للحروب، ببيع في "أزمور" من طرف شيوخ الموحدين والمصامدة، في شؤون الرعية ورفع الظلم عن أهلها، قتل في حربه مع بني مرين وبهذا انقضت دولة عبد المؤمن بسبب استهتار خلفائها وضعفهم سنة 668هـ⁽⁷⁾.</p> | <p>أبو العلاء إدريس ابن محمد بن عمر بن عبد المؤمن الواثق بالله (668هـ)</p> |

(1) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص 249.

(2) عبد الرحمان بن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج6، ص300.

(3) هما قبيلتان من قبائل المصامدة في إقليم السوس بالمغرب الأقصى.

(4) عبد الرحمان بن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج6، ص304.

(5) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص256.

(6) المرجع نفسه: ص259.

(7) عبد الرحمان بن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج6، ص316.

?

PDF created with pdfFactory Pro trial version www.pdffactory.com

2- الحياة الثقافية:

بعد أن اشدت ساعد الدولة الموحدية بامتلاكها زمام الأمور، كان لابد لها أن تهتم بالحركة العلمية والأدبية، فعرفت اهتماما واسعا بالعلوم والآداب، وتطورا في الحياة اليومية، كما غلبت عليها الصبغة الدينية. لأن مؤسسها فقيه ورجل دين قضى خمسة عشرة عاما في التزود بمعارف المشاركة فعاد بحرا متفجرا من العلم، وشهابا واريبا من الدين،⁽¹⁾ وأول خلفائها عالم متمكن واسع الأفق، كما اهتم أبناؤه من بعده بالعلوم والفنون فانطلقت في عهدهم حرية التفكير والبحث، فغلبت الفلسفة على ثقافتهم الأندلسية، وممن برز في مجال الدراسات الفلسفية لهذا العصر (ابن رشد،⁽²⁾ ابن زهر⁽³⁾ ابن طفيل،⁽⁴⁾ الذين بلغت شهرتهم فيما بعد الآفاق الأوربية،⁽⁵⁾ وكانوا يعيشون في عز وإكرام، ولقوا اهتماما كبيرا من أمراء الموحدين حتى وصلت الحركة الفكرية الأندلسية إلى ذروة قوتها وازدهارها.⁽⁶⁾ غير أن المنصور بن عبد المؤمن انقلب على ابن رشد، ولعنه، وأمر بإحراق كتب الفلسفة كلها.⁽⁷⁾

وقد استغرب الأستاذ غارسية غومس (Garcier Gomes) من "أن الفيلسوف الموحد العظيم ابن رشد لم يترك بين العرب تلامذة له، ولا منفذين لفلسفته، وأن كثيرا من مؤلفاته قد فقدت في لغته العربية التي كتب بها"⁽⁸⁾، كما شجعوا الثقافة والأدب فكان بلاطهم لا يخل من الشعراء والأدباء، فهذا عبد المؤمن يجلس إلى الشعراء، وما أكثرهم في دولته، فمن أندلسيين إلى مغاربة إلى أفارقة، ومنهم إلى مصري وشامي وعراقي، وغيرهم يحاورهم ويساجلهم فينثرون عليه من عقود مدائحهم كل نفيس

(1) عبد الرحمان بن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج6، ص267.

(2) أبو الوليد محمد بن أحمد بن محمد ابن رشد ولد بقرطبة سنة 250هـ، ودرس فيها، برع في الحكمة والطب، غادر قرطبة إلى اشبيلية وهو ابن ثلاثين عاما، اتصل بالسيد أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وحظي برعايته، ثم عينه أبو يعقوب يوسف طبيبا له، أهم مؤلفاته شروح فلسفة أرسطو وهي جوامع كتب أرسطو طاليس في الطبيعيات والإلهيات وغيرها. ونفي مع عدد من زملائه نتيجة وشاية الفقهاء والطلبة الموحدين، توفي سنة 595هـ وهو في الخامسة والسبعين من عمره. محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القسم الثاني، القاهرة، مصر ص 721-722.

(3) عبد الملك بن زهر بن عبد الملك بن محمد بن مروان بن زهر الأيادي الإشبيلي، روى الحديث عن أبي محمد بن عتاب أخذ علم الطب على يد أبو محمد القاسم بن علي الحريري، كان جليل القدر في أهله حظيا عند الملوك والأمراء متحققا بصناعة الطب متقما فيها، صنف للأمير أبي اسحاق بن أمير المسلمين أبي يعقوب يوسف بن تاشفين كتاب (الاقتصاد في صلاح الأجساد) سنة 515هـ، سجنه أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين في مراكش ثم أطلق سراحه وعاد إلى بلده توفي سنة 557هـ، أبي عبد الله محمد بن محمد بن عبد الملك الأنصاري الأوسي المراكشي: الذيل والتكملة تح إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، (د ت) السفر الخامس، القسم الثاني، ص 18-19.

(4) أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن طفيل القيسي من وادي آش، ولد في بداية ق 6هـ، درس الحديث والفقه، برع في الفلسفة والطب كان طبيبا ماهرا في أصول العلاج، خدم في بلاط الموحدين، قربه الأمير أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن إلى مجلسه، وكان طبيبه الخاص، أشهر مؤلفاته حي بن يقضان، أسرار الحكمة المشرقية وغيرها. محمد بن عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين في الأندلس ص 719-720.

(5) حكمة علي الأوسي: الأدب الأندلسي في عصر الموحدين، مكتبة الخانجي بالقاهرة، مصر، 1976، ص34.

(6) محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين في الأندلس، ص 711.

(7) حكمة علي الأوسي: الأدب الأندلسي في عصر الموحدين، ص 37.

(8) المرجع نفسه: ص37.

غال⁽¹⁾، وبهذا نشطت الحركة العلمية فأخصبت الأفكار وتفتحت العقول، وقد شجع عبد المؤمن الرحلات العلمية التي قام بها الطلبة، وبهذا تفتحت الأفكار وتطورت العقول، وبلغ الشعب المغربي درجة عالية من الثقافة العلمية، وقد أكدت هذه الرحلات ظاهرة الانصهار الفكري بين العطاءات المتواجدة في الأقطار الإسلامية، وفتحت أمام المهاجرين دروبا من المعرفة المتنوعة، فدقت مناهجهم، وسمت معارفهم.

1- المراكز الثقافية:

1-1- مراكز الثقافة بالمغرب الأقصى: سأقتصر على أهمها وأشهرها منوهة بالدور الكبير الذي لعبته هذه المراكز في نشر الثقافة العربية.

1-1-1- فاس: أنشأها الأدارسة سنة (192هـ)، واتخذوها عاصمة لدعوتهم لقيت اهتمامات واسعة من ولاة الأمر من المرابطين والموحدين، ونتيجة هذا الاهتمام الكبير أصبحت فاس حاضرة المغرب في تلك الفترة وبلغت من الرقي والازدهار ما بلغته بغداد أيام الرشيد حتى أصبحت تسمى بغداد المغرب⁽²⁾ مما دعى لسان الدين بن الخطيب يصفها بأنها "مصلى القاصي والداني، بلد المدارك والمدارس والفهارس والمشايخ أسنتها باللغات المختلفة لائحة"⁽³⁾، وعلى الرغم من أن الصلات الثقافية لم تنقطع بين المغرب والأندلس منذ الفتح الإسلامي للمنطقة إلا أن هذه الصلات ازدادت رسوخا، وازدهارا بعد أن أصبحت الأندلس إقليما تابعا للمغرب الأقصى، وقد شهدت مدينة فاس نجما يتألق بما فيها من تيارات ثقافية، وبما يموج بداخلها من حركة علمية، كما كان للرحلات العلمية التي قام بها طلبة فاس إلى المشرق للأخذ بعلومهم والعودة إلى بلادهم بحرا متفجرا من العلوم والآداب الأثر الكبير في الازدهار العلمي والثقافي، والحضاري، كما لعبت المؤسسات التعليمية بمدينة فاس دورا كبيرا في نشر مختلف العلوم وتدريبها للكبار والصغار، فيقصدونها المتعطش للعلم، رغم بعد المسافة وصعوبة المسالك إلا أن شهب العلم والمعرفة تنادي، ولعل أهم هذه المراكز المدارس والمساجد، باعتبارها مراكز ثقافية حيث تم فيها تدريس تعاليم الدين الإسلامي، كما اتخذ المسجد مكانا للعبادة، ومعهدا للتعليم، ومن أشهر مساجد فاس جامع القروين الذي وضع حجر أساسه عام 245هـ ليكون دار علم وفقه، ومركزا علميا ذا أهمية عظمى،

(1) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت لبنان، ط1، 1961، ص2، ص111.

(2) عبد الواحد بن علي المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص257.

(3) جمال طه: مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين، دار الوفاء للطباعة والنشر، الاسكندرية، القاهرة ط2002، ص1، ص273.

وكعبة يحج إليها الطلبة من جميع أنحاء المغرب الإسلامي لتلقي العلوم الإسلامية، وغيرها من العلوم الأخرى.⁽¹⁾

2-1-1 مراكش: بناها يوسف بن تاشفين⁽²⁾ سنة 454هـ، وجعلها عاصمة لدولته، وقد كانت المركز العلمي الثاني بعد فاس، اهتم بها خلفاء المرابطين والموحدين من الناحيتين السياسية والثقافية، وأثناء زيارة الرحالة ابن بطوطة لها في القرن الثامن الهجري ذكر⁽³⁾ بأنها "من أجمل المدن، فسيحة الأرجاء متسعة الأقطار كثيرة الخيرات، بها المساجد الضخمة كمسجدها الأعظم المعروف بمسجد الكتبيين وبها الصومعة الهائلة العجيبة..." كما قال ابن جزى في مراكش: يقول قاضيها الإمام التاريخي أبو عبد الله محمد بن عبد الملك الأوسى:

لله مراكشُ الغراءُ من بلادِ
سكن
حلها نازحُ، الأوطانِ مُغْتَرِبِ
وطن
بينَ الحديثِ بها أو بالعيانِ لها
والأذنِ
وَحَبَّذا أَهْلُهَا السَّادَاتُ مِنْ
أَسْلُوهُ بِالْأَنْسِ عَنِ أَهْلِ وَعَنْ
يَنْشَأُ التَّحَاسُدُ بَيْنَ الْعَيْنِ

وبهذا فمراكش أرض الجمال، والتاريخ، والعلوم كانت مقصدا للعلماء في مختلف الأقطار العربية للتزود بعلومها بحفظهم لأمتهات الكتب، وترجمتها، ومن شدة تعلق عبد المؤمن بأهله، ورغبته في العلم رفع الحضر عن طائفة من الكتب التي كانت ممنوعة في عهد المرابطين مثل كتب الغزالي.... كما شجع على نشر الكتب على اختلافها ككتب الفروسية أو سيرها، وكتب المغامرات والقصص...⁽⁴⁾ وكانت هذه العلوم تلقى في المدارس والمساجد، ومن أشهر مساجدها، "جامع الكتبية وجامع القصبية" وفي هذا يذكر ابن سعيد المغربي "إن حضرة مراكش هي بغداد المغرب، وهي أعظم ما في بر العدوتين، وأكثر مصانعها ومبانيها الجليلة، وبساتينها إنما ظهرت في مدة بني عبد المؤمن، وكانوا يجلبون

(1) المرجع نفسه:ص 273.

(2) أبو يعقوب يوسف بن تاشفين ولد سنة 400هـ. وتوفي سنة 500 هـ من قبيلة لمتونة الصنهاجية، مؤسس الدولة المرابطية وزعيم الروحي، كان رجل دين خيرا، هازما، داهية عادلا... يميل إلى أهل العلم والدين ويكرمهم، ويصدر عن رأيهم، كان حسن السيرة لقب بأمير المسلمين، كان حليما كريما، هزم ألفونسو في معركة الزلاقة، كما قضى على ملوك الطوائف بنفي آخر ملوكهم المعتمد بن عباد إلى أعماق، انظر ابن الأثير الكامل في التاريخ، ج 10، ص 417، ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس، تح احسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط 1980، ج 3، ص 46-47.

(3) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، لبنان، 1992، ص 672-673.

(4) عبد الرحمان بن محمد الجبالي، تاريخ الجزائر العام، ج 2 ص 4

لها صناع الأندلس من جزيرتهم، وذلك مشهور معلوم، إلى الآن⁽¹⁾، وبهذا كان للمساجد دورها في الثقافة والتعليم بعد أن كانت مكانا للعبادة، وتعلم الدين الإسلامي أصبحت مراكز الثقافة والتعلم بعد أن كانت مكانا للعبادة وتعلم الدين الإسلامي أصبحت مراكز ثقافية تعلم طلبتها مختلف العلوم والفنون كما أعطت للمجتمع الموحد وجودا وتميزا على الصعيد الاجتماعي، والفكري، والسياسي فتخرج منهم العالم الفقيه، والقاضي⁽²⁾ الجليل، ومنهم من تولى خطة الشورى، والفتوى في الأحكام والنوازل، وكانت الإمانية الأخلاقية المتأثرة بالورع المالكي، وأخلاقه تعطيهم حق القيادة الاجتماعية والروحية وتضعهم في آن واحد زعماء مصلحين يحرصون اجتماعيا على توجيه المجتمع وإقامة الحدود ويحافظون دينيا على تطبيق المنهج الإلهي ليظل قائدا وموجها لكل إبداع حضاري.

3-1-1- الرباط: بناها أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن على ساحل البحر، وسماها "رباط الفتح"⁽³⁾ ولعلها مقتبسة في تسميتها من القرآن الكريم قال تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ﴾⁽⁴⁾، وقوله أيضا: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اصْبِرُوا، وَصَابِرُوا، وَرَابِطُوا، وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾⁽⁵⁾، وهي حصن حربي يقام في الثغور لمواجهة العدو والدفاع عن المدن ويرجع تأسيس أول رباط في إفريقيا إلى الوالي العباسي "هرثمة بن أعين" سنة 179هـ⁽⁶⁾ إضافة إلى رباط عبد الله بن ياسين الذي أنشأه في الحوض الأدنى لنهر السنغال⁽⁷⁾، والذي كان يدعو فيه أصحابه الملتزمين (المرابطين) إلى الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وقد لعبت هذه الربط دورها العسكري حيث كانت صامدة أمام أساطيل البزنطيين الذين عجزوا عن احتلال سواحل إفريقيا، وإلى جانب مهمتها العسكرية، اهتمت بالناحية العلمية، خاصة بعد انتشار الإسلام مما ساعد على انتشار الثقافة العربية، فشهد المغرب تيارات فكرية، ومذهبية عصفت بالمشرق، مما دفع المقيمين بها إلى النفقة في الدين، وتعاليمه لمواجهة تلك التيارات كما أصبحت هذه الربط مدارس علمية يدرس فيها علم الفقه، والحديث، وبهذا ازدهرت الحركة العلمية، ومن أشهر

(1) السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب العربي الكبير، ج2، ص832.

(2) أشهرهم القاضي اسحاق بن إبراهيم الغماري السعدي (ت 609هـ) فقيه مالكي حافظ للرأي قائم بالمدونة، وأبو الحسن علي بن أحمد التجيبي المعروف بالحرالي المراكشي (ت 637هـ) انظر: محمد المنوني: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، المغرب، ط2، 1977، ص55-56.

(3) تسمى حاليا: الرباط وهي غير رباط السوس قرب نهر السنغال الذي أنشأه المرابطون. انظر عبد الواحد بن علي المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص258.

(4) الأنفال: 60.

(5) آل عمران: 200.

(6) سعدون نصر الله: تاريخ العرب السياسي في المغرب، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط 2003، ص1، ص247.

(7) المرجع نفسه: ص249-250.

مراكزها العلمية المساجد وأشهرها "جامع تازى" الذي بناه عبد المؤمن إضافة إلى الربط المتواجدة في مدينة الرباط، فقد اتخذها طلبتها مكانا للعبادة كإقامة الصلوات الخمس، وتحفيظ القرآن الكريم، وتفسيره، وكل ما يمت إلى الدين بصلة ومن خلال هذا نستنتج أن الرباط كان مدينة دين، وعبادة، وعلم قبل أن يكون حصن دفاع ضد العدو، كما أكدت الربط خدماتها للإسلام وللمسلمين فقد عصمت أهل المغرب إلى حد كبير من الفتن التي سادت المشرق، كما كانت مثالا للزهد، والتقشف والتفاني في سبيل الله.⁽¹⁾

2-1 مراكز الثقافة بالأندلس:

من الصعب أن نحدد المراكز العلمية الشهيرة في الأندلس، لأنها وبكل بساطة ذات نتاج أدبي واحد رغم بعد المسافة إلا أن تيار العلم والمعرفة حرك شراع أديبتها، كيف لا وهي دار ملك المسلمين كما نافست بعض مدن الأندلس كقرطبة بغداد حاضرة العباسيين، والقاهرة حاضرة الفاطميين منافسة ثقافية، فكانت مركز إشعاع للحضارة العربية بأوربا، ولم تنزع قرطبة ثقافة الأندلس بل نافستها مدن أندلسية أخرى "اشبيلية، بطليوس، غرناطة" في مختلف العلوم ورغم ما وصلت إليه الثقافة في الأندلس من الرقي والازدهار، إلا أنها لم تصل إلى ما وصلته مدينة فاس المغرب، كما تم الامتزاج العلمي والأدبي بين القطرين المغربي والأندلسي في العهد الموحد، حتى أن كتاب التراجم الأندلسيين يؤلفون كتباً يمزجون فيها بين علماء أو أديباء القطرين⁽²⁾، وطبيعي أن خلفاء الموحدين لم يجدوا صعوبة في نشر الثقافة والعلوم، لأنهم وجدوها أرضاً خصبة متشعبة بالثقافة العربية الأصيلة لأن حكامها السابقين (بنو أمية، ملوك الطوائف) كانوا ذا علم واسع، وأفق عال، وبهذا كان فضل الأندلسيين على تقدم المعارف العامة كبيراً كما ساعدت الرحلات الأندلسية إلى المشرق لتحصيل العلوم، والعودة إلى البلاد لنشرها وأيضاً رحلاتهم إلى المغرب لزيارة "فاس، مراكش، القيروان" لأخذ العلم على يد مشايخها إضافة إلى وجود عامل آخر شجع هذه الحركة، والمتمثل في كون أمراء الموحدين على قدر كبير من الثقافة والعلم، فمنهم الشاعر والأديب، والعالم كإمامهم المهدي بن تومرت، وعبد المؤمن بن علي خليفتهما، وبنيه وكتابهم، ووزرائهم، وشعرائهم، وكل أمير وكل قاض وكل شاعر أسهم بنصيب من أدبه فارتقت مكانة الأدب وسمت كما اهتم أمراؤهم ببناء المساجد،

(1) المرجع نفسه ص 248.

(2) شوقي ضيف: تاريخ الأدب العربي عصر الدول والإمارات، دار المعارف، القاهرة، مصر، ط1، ص336.

والمدارس مثلما فعل يعقوب المنصور الذي شيد منارة الخير الدا⁽¹⁾ في جامع اشبيلية التي تعتبر واحدة من عجائب الدنيا السبع، وقد نafs هذا الجامع القروين، وجامع مراكش في الثقافة الأدبية والعلمية.

3-1 مراكز الثقافة بالمغربين الأوسط والأدنى:

1-3-1 المغرب الأوسط (الجزائر)

قبل التحدث عن الجانب الثقافي للمغرب الأوسط أخرج قليلا على الجانب السياسي الذي ساهم في تطور الثقافة في المغرب الأوسط، فبعد أن آل حكم الموحدين إلى عبد المؤمن نزع الأمر من أهل السوس قوم "ابن تومرت" بالمغرب الأقصى، وجعله في قومه الجزائريين بعد أن استقدمهم إليه، واجتهد في تهذيبهم وإنشائهم نشأة حربية عسكرية⁽²⁾ فاستولى على معظم ولاياته حيث خلصهم من نفوذ المرابطين، والطامعين فيها، فاهتم بتنشئة أهلها ثقافيا، وعلميا، فلم يجد صعوبة كبيرة في ذلك حيث كان أهل الجزائر على قدر كبير من العلم والمعرفة. كون أمراء الدول التي تعاقبت عليها عملوا على تشجيع العلماء، والأدباء مما فتح المجال لهم لنشر علومهم، ومعارفهم في أوساط مجتمعاتهم ومن أهم مراكز الثقافة بالمغرب الأوسط .

1- تاهرت: أسسها عبد الرحمان بن رستم⁽³⁾ سنة (148هـ) واتخذها حاضرة لملكه، كما اعتنى بها عبد المؤمن وقام على نشر مبادئ الموحدين⁽⁴⁾ كما كانت بتيهرت مكتبة عظيمة شملت على نحو ثلاثمئة كتاب في مختلف العلوم، والفنون، والآداب وقد خربت في عهد الفاطميين.⁽⁵⁾

2- بجاية: مدينة العلم والثقافة، حيث كان الطلبة يقصدونها من كل مكان، ويتزاحمون في طلب العلم، وقد كانت مزدهرة علميا، وثقافيا لدرجة كبيرة حتى أنها لقت بمكة الصغيرة لأنها كانت ملتقى العلماء والأدباء والأطباء والشعراء⁽⁶⁾.

(1) الخير الدا (لعبة الهواء) هي صومعة المسجد الكبير الذي بناه يوسف بن عبد المؤمن باشبيلية سنة 1180م وبعد أن شيدها رأت زوجته أن تبيع حليها الذهبية الخاصة، وما تملك من أحجار كريمة، وكل ما قدمه لها زوجها عند اقترانه بها، وتأمراً أن يصنع بثمنها جميعا تفاحات ذهبية تعلو قمة المنارة ليكتمل رونقها المرجع نفسه ص 332.

(2) عبد الرحمان بن محمد الجبالي: تاريخ الجزائر العام، ج2، ص8.

(3) عبد الرحمان بن رستم مؤسس الدولة الرستمية بالمغرب الأوسط كان تقيا متواضعا، انصب جل اهتمامه للقضاء على الفتنة الداخلية، وما كان يواجه الدولة من الأخطار الخارجية، دعم أركان دولته وهيا لها الأمن والاستقرار بفضل سياسته القائمة على العدل والاستقرار. بحاز إبراهيم بكير: الدولة الرستمية، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، ط2، 1977، ص111-113.

(4) مبادئ الموحدين التي نصها ابن تومرت: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، توحيد الله سبحانه وتعالى وعدم الشرك به، التنزيه المطلق لله تعالى عن كل تشبيه أو تكليف، كل إنسان يعاقب على أفعال لم يرد لها، قدرة الله فوق كل شيء، الإيمان بالقضاء والقدر وعدم الشك فيهما.

(5) عبد الرحمان بن محمد الجبالي: تاريخ الجزائر العام، ج2، ص286.

(6) عبد القادر جغول: مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط، ترجمة فضيل الحكيم، دار الحدائق للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1، 1982، ص60.

3- تلمسان: كان حظها كبيرا حيث لقيت عناية عبد المؤمن كيف لا وهي موطن ولادته، فقد جدد مسجدها الجامع سنة (191هـ) وبنى لنفسه قصر المشورة بها سنة (540هـ)⁽¹⁾ وكانت مركزا إداريا يضم قرية تاجرا مسقط رأسه، وهي بطن من زناتة، وكومية عشيرته الأقربين وبهذا كانت تلمسان حصنا منيعا، ومركزا علميا لنشر الثقافة بالمغرب الأوسط.

2-3-1 المغرب الأدنى: (تونس):

لم تكن أقل أهمية عن مراكز المغرب، بل كانت المركز الثقافي الأول بفضل مدينة القيروان مركز الإشعاع العلمي في بلاد المغرب اعتنى بها الموحدون واهتموا بها باعتبارها حلقة الوصل بين المغرب والأندلس كما أنها لم تكن بمعزل عن المشرق بل كانت شديدة الاتصال به، نتيجة موقعها الجغرافي الممتاز مما جعلها رابطة طبيعية بين المشرق الإسلامي، ومغربه يمر عليها كل من يقصد الزيارة، أو السفر، أو طلب العلم، ولقاء الشيوخ، وفي هذا قال المراكشي: "وكانت القيروان هذه في قديم الزمان منذ الفتح إلى أن خربها الأعراب دار العلم بالمغرب إليها ينسب أكابر علمائه، وإليها كانت رحلة اهله في طلب العلم..."⁽²⁾ وازدهرت فيها العلوم، ونشطت فيها الحركة العلمية والأدبية، كما زادها مهاجرو الأندلس تبادلا ثقافيا ومعرفيا شمل كل الميادين، وكان لجامعها الفضل الكبير في ازدهار الحركة الفكرية باعتباره مركزا علميا شهيرا. طغت شهرته العلمية على شهرة "جامع عمر بن العاص" بفسطاط مصر الإسلامية، ولكن لم تكن القيروان وحدها مركز الإشعاع العلمي، فقد شاركتها مراكز جديدة أمثال "المهدية"⁽³⁾ التي ازدان ملك صنهاجة بها كما ازدان بالقيروان، فكان فيها بلاط فاخر التفت حوله ثلة صالحة من رجال العلم وأعلام الأدب وكبار الفلاسفة والشعراء⁽⁴⁾، فلم تقل عن القيروان في شيء بها ازدهار الثقافة والعلوم، وبهذين المركزين العلميين كانت الثقافة الموحدية بالمغرب الأدنى، وازدهرت بازدهار أهلها ومراكزها العلمية، هذه نظرة خاطفة عن الحركة الفكرية والعلمية في أهم مراكز حكم الموحدين، والشيء الملاحظ أن الثقافة كانت مزدهرة جدا خاصة في المغرب الأقصى، لأن خلفاء الموحدين اهتموا به، باعتباره موطنه الأصلي،

(1) عبد القادر جغول: مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم والوسيط: ص 287.

(2) عبد الواحد بن علي المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 255.

(3) تقع شمالي سفاقس على ساحل البحر المتوسط حاضرة بني عبيد.

(4) مارتينو ماريو مورينو: المسلمون في صقلية (الدراسات التاريخية 4)، منشورات الجامعة اللبنانية بيروت، لبنان، 1957، ص 184.

وقاعدة ملكهم، وسأذكر هذه المؤسسات التي ساهمت في نشر هذه الثقافة والتي كان لها الفضل الكبير في تخريج العلماء والأدباء الذين أسهموا في نشر هذه الثقافة العربية حتى أن أعمالهم إلى الآن مقصدا يستفيد منه كل متعطر للعلم.

2- المؤسسات التعليمية وطريقة التعليم:

لقد تنوعت أماكن التعليم في عصر الموحدين من كتاتيب، ومساجد، ومدارس، كما تنوعت مناهج التعليم التي كانت منتهجة فيها، ورغم هذا التنوع يبقى الهدف واحداً، وهو نشر الدين الإسلامي، وتعليم اللغة العربية، وترسيخ العقائد التومارتية في أوساط المجتمع المغربي.

1-2- المساجد (الجوامع): يعتبر المسجد أول مؤسسة تعليمية في تاريخ العرب اقتداءً بما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم في حياته، حيث اتخذ مسجده الشريف في المدينة مركزاً يجتمع فيه أصحابه ليفسر لهم الآيات التي كانت تنزل عليه، ويعلمهم أصول الدين وفروعه ثم سار الخلفاء الراشدون والصحابة التابعون على هذا المنهج فكانوا يجلسون في المسجد النبوي يعظون الناس، ويعلمونهم أصول دينهم ويفتون لهم فيما أشكل عليهم⁽¹⁾، وبهذا كان مسجد الرسول صلى الله عليه وسلم المثال الذي احتذته وسارت على نهجه سائر مساجد العالم الإسلامي كمساجد المغرب، وأشهرها "جامع القرويين" بفاس الذي يعد أقدم جامعة علمية في العالم العربي يقصده العلماء، والشعراء⁽²⁾ من كل مكان كما كان سراج مدينة فاس التي تستضاء به وفيه يقول الحسن الوزان: "أن محيط هذا الجامع يبلغ ميلاً ونصفاً، وأنه له واحداً وثلاثين باباً كبيراً عالياً ومنارته عالية جداً ويوقد فيه كل ليلة ستمائة سراج، وعلى طول الجدران كراسي من مختلف الأنواع وكانت تبدأ هذه المحاضرات بعد صلاة الصبح وتنتهي بعد شروق الشمس بساعة"⁽³⁾ وأيضاً جامع علي بن يوسف بن تاشفين الذي هدمه عبد المؤمن وبنى مكانه جامعاً آخر إضافة إلى الجوامع الكبرى في سبتة، طنجة، تازة، أصيلا، سجلماسة، ولا ننسى جامع الأندلس وجامع القيروان الذي بلغت شهرته الآفاق العربي، وكذلك الجامع الأعظم بتلمسان الذي بناه موسى بن نصير سنة 89هـ وكان مركزاً ثقافياً من مراكز الثقافة العربية الإسلامية في

(1) المهدي بوعدلي: مراكز الثقافة وخزائن الكتب عبر التاريخ، مجلة الأصالة، العدد 7، السنة الثانية 2 صفر الأول 1392هـ، مارس، أبريل 1972، قسنطينة، الجزائر، ص 6.

(2) منهم الشاعر بكر بن حماد التاهرتي الذي استقدمه الأمير بن القاسم بن إدريس إلى فاس حاضرة الأدارسة.

(3) شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات، ص 331.

المغرب وإلى جانبه جامع طنجة وقسنطينة وبونة ووهران،⁽¹⁾ وكانت تدرس فيها مختلف العلوم والآداب، واعتمد الموحدون في مصادر دراستهم على صحيح البخاري، ومسلم وعلى موطأ مالك، كما ظهرت كتب في مختلف العلوم ككتب الفقه التي تتناول تفسير القرآن لعبد الجليل القصري (ت 608هـ)، وللمزدغي (ت 655هـ)، وفي التراجم فهرست أبي الصبر أيوب (ت 604هـ) وشعب الإيمان وتنبه الأنام في مشكل الحديث لعبد الجليل القصري، وشرح أسماء الله الحسنى، والناسخ والمنسوخ، والمدارك في وصل مقطوع مالك لأبي الحسن الحصار (ت 611هـ)، مفتاح اللب المقفل لفهم الكتاب المنزل لأبي الحسن الحرالي المراكشي.⁽²⁾

2-2- المدارس: يعود تاريخ ظهور المدارس إلى القرن الرابع وخاصة في خرسان إلى جانب المدرسة النظامية ببغداد⁽³⁾، ويعود ظهورها في بلاد المغرب إلى القرن الخامس الهجري، وإلى جانب دورها التعليمي فإنها كانت لمقاومة ما عساه أن يكون قد تبقى من التشيع، أو ما تسرب منه إلى التعليم بالقيروان والمهدية، كما أنها لم تكن أقل أهمية من المساجد، فقد اهتم الموحدون بإنشائها خاصة عبد المؤمن فقد أنشأ مدرستين المدرسة العامة والمدرسة الملكية، وكان يتبع في تدريس الطلبة الصغار في المدرسة العامة على حفظ كتاب الموطأ،⁽⁴⁾ وكان ذلك كل يوم جمعة بعد صلاة العصر داخل القصر، فيجتمع الحفاظ فيه وهم نحو ثلاثة آلاف⁽⁵⁾، كما عملت هذه المدرسة على تخريج الموظفين في الدولة، وإعدادهم، أما المدرسة الملكية فطبيعي أن يدرس فيها الأمراء أبناء الخلفاء الموحدين وقد أسس مدرسة بالرباط لتعليم فن الملاحة⁽⁶⁾. وقد كانت المدرسة تأخذ شكل الزاوية ولا تختلف عن المدرسة الشرقية قال وليام مورس "William Moriss": " وفي نفس هذا الوقت -تقريباً- الذي ظهرت فيه المدرسة في الشرق ظهرت المدرسة في المغرب وهي تتحلى بنفس الاسم..." ولا يوجب هذا الجزم بأن المدرسة المغربية تقليد للمدرسة المصرية، فإن المدرسة المغربية لها مثالها النموذجي المقتبس من المعهد

(1) محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي الأدب المغربي: مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت لبنان ط 1960، ص72.

(2) سعدون نصر الله: تاريخ العرب السياسي في المغرب، ص 206.

(3) محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي: الأدب المغربي: ص94.

(4) يقصد به كتاب إمامهم المهدي بن تومرت الذي ألفه ووضع قواعده، وأسماء " أعز ما يطلب" وهو عبارة عن مجموعة من الرسائل في التوحيد ومجموعة من القواعد والأسس التومارنية التي وضعها لأصحابه، أثناء دعوته التوحيدية، وليس كتاب الموطأ لمالك.

(5) محمد المنوني: العلوم والآداب والفنون، على عهد الموحدين، ص23.

(6) شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات، ص332.

التعليمي الملحق بالزاوية المتولدة عن الرباط، والسابقة لعهد إحداث المدارس⁽¹⁾، وسار حفيده يعقوب الموحيدي على خطاه فقد أسس مدارس في إفريقية التونسية والأندلس وفي هذا يقول الحسن الوزان عن مدرسة شيدت في عهد الموحيدين: "ولعلها شيدت في عهد يعقوب بقصبة مراكش، وهي أشبه بمؤسسة إذ يلحق بها مساكن للطلاب، وتشمل على ثلاثين غرفة، وفي الطابق الأرضي قاعة كانت تلقى فيها الدروس في الماضي، وكان التلميذ في هذه المدرسة يعفى من المصاريف، ويعطى كسوة، وكان الأساتذة يتقاضون راتبا شهريا فيها بين مائة ومائتي دينار حسب طبيعة الدروس التي يقومون بها"⁽²⁾.

وقد اهتم الخواص أيضا بإنشائها فهذا المحدث الكبير أبو الحسن الشاربي السبتي (ت649هـ) يشيد مدرسة بسبته، ويقف عليها من خيار أملاكه، وعقاراته ما يفي بالانفاق عليها، و يلحق بها مكتبة نفيسة⁽³⁾، والشيء الذي لاحظته أن الموحيدين لم يهتموا بإنشاء هذه المدارس في كل من الجزائر وتونس إلا قليلا، وإنما صبوا جل اهتمامهم إلى إنشائها في المغرب الأقصى وكانت تدرس فيها مختلف العلوم والآداب والفنون، ولم تختلف عن المساجد في شيء.

3-2- الكتايب: هي أسبق أنواع المعاهد التعليمية وجودا في العالم الإسلامي، ويطلق اسم الكتاب على المعهد الذي يتعلم فيه الصبيان القرآن الكريم، ويعود تاريخ ظهوره إلى النصف الأول من القرن الأول الهجري حيث كان الولاة العرب يأمرؤن عمالهم بنصب الخيام لتعليم الصغار، وقد كان "مصاحبا لجيوش الفتح، على غرار السيف، في هذه الدولة العربية (بلاد المغرب)، وكان الكتاب منذ النصف الأول من القرن الأول عبارة عن (خيمة) من جملة الخيام قبل أن تمصر الأمصار وكان جيش الفتح يصطحب معه خطباء وشعراء ومعلميه"⁽⁴⁾، إذ كانت أحوال التعليم في المغرب تعتمد على الكتاب الخيمي واستعمله الموحدون واتخذوها مكانا لنشر مبادئهم على أوسع مدى، وقد أمر عبد المؤمن بالتعليم وجعله مجانيا⁽⁵⁾ ولم يقتصر على الطلبة فقط بل شمل كل فئات المجتمع وقد أنشأها عبد المؤمن في كل بلد وقرية كبيرة وصغيرة في الوديان والجبال، وكانت مقتصرة على تعليم القرآن الكريم، وتعليم رسم الآيات، وما اتصل بذلك من الخط العربي، ويقول الحسن

(1) محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي: الأدب المغربي، ص95.

(2) شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات، ص332.

(3) المرجع نفسه: ص333.

(4) محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي: الأدب المغربي، ص80.

(5) محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحيدين، ص27.

الوزان في هذا: " كان بمدينة فاس مائتي كتب يشتمل كل كتاب على قاعة كبيرة مع درجات تستخدم كمقاعد للأطفال، والمعلم يعلمهم القراءة والكتابة لا في كتاب معين وإنما يستعين بألواح خشب كثيرة تكتب عليها الناشئة ما تحفظه من الآيات، ويختم الناشئ القرآن في نحو سبع سنوات، ويعلمه المعلم الخط، وحين يصل إلى إجابة جزء لأبأس به من القرآن الكريم يقدم أبوه هدية لمعلمه"⁽¹⁾، ولا تختلف الكتاتيب في طريقة التعليم عن المساجد والمدارس، وقد كانت منتشرة في المغريين الأدنى والأوسط مستندينا في هذا على أنه عمها في كل قرية وجبل فكيف لا يأمر بنائها في المدن الكبرى وهو ينقسم إلى: بلدي وأندلسي، أما البلدي ويقصد به الكتاب المغربي المحض، ويمتاز بالبساطة من حيث البناء مع الاتساع، ويعتمد على التعليم بالحفظ وما تخزنه الذاكرة، أما الأندلسي فيمتاز بالأناقة والزخرف

ويعتمد على مزيج من الحفظ والفهم، والكتاتيب الأندلسية تبدأ بطبخة في شمال المغرب الأقصى وتنتهي بدرنة، ومن أشهر هذه الكتاتيب كتاب (سيدي نصر القرواشي) بتستور، وكتاب (سيدي علي عزوز بزغوان)، وكلاهما آية من أبداع تحف الفن المعماري الأندلسي⁽²⁾.

4-2 الزوايا: لم تكن معروفة ببلاد المغرب قبل القرن السابع الهجري، وإنما كانوا يطلقون عليها الرباط، وكانت متعلقة بالنسك والمتصوفة كما كانت تلقى فيها الدروس الدينية والفقهاء، وهي أشبه ما تكون بالخانقاه الشرقية، وهي عبارة عن مجموعة من الأبنية المتلاصقة يتوسطها صحن كبير، تتوسطه فوارة أو بركة حولها أسمطة من النارج والحناء والورد، وتتكون من مجموعة غرف لمبيت الطلبة ومن غرفة التدريس، والمكتبة والجامع، ثم المرافق العامة، وكانت هذه الزوايا تتحول بالتدريج إلى سوق أسبوعية، ثم قرية، ثم بلدة، وتكون الأراضي التي حولها وقفا عليها في الغالب كي تعيش منها، ومن النذور والقربان التي يتقرب بها أهلها إلى الله، كذلك يقوم طلبتها بجمع الزكاة، وفي الزاوية يقع الختان والزواج⁽³⁾، والزاوية أنواع منها البسيطة وهي التي بنيت كمكان للتعليم والتعبد ولم تبني على ضريح أو نسبت إلى ولي، والزاوية ذات الولي وهي التي بنيت حول ضريح، وسرعان ما تكتسب شهرة وسمعة عظيمة، فنتحول إلى مركز علمي وعمراني

(1) شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات، ص330.

(2) محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي: الأدب المغربي، ص83.

(3) المرجع نفسه، ص88.

كبير، ونوع ثالث من هذه الزوايا وهي الزاوية الطرقية، وهي التي تنسب إلى طريقة من الطرق الصوفية كالطيبية والتجانية والقادرية والرحمانية والعيساوية و السنوسية والسلامية والعزوزية⁽¹⁾ وإلى جانب هذه الأنواع هناك نوع آخر وهو الزاوية العسكرية ويتعلمون فيها روح القبيلة، والتضامن والامتثال القبائلي المتمثل في الامتثال العسكري، كما يتعلمون أصول العسكرية من رماية ومدفعية وفروسية ومثال هذه الزوايا البقشاشية، البشيرية فالبقشاشية لأبناء المماليك والعلوج، والبشيرية لأبناء زواوة من البربر⁽²⁾، وترجع أول زاوية عرفها المغرب إلى زاوية أبي محمد صالح التي أقيمت في منتصف القرن السابع الهجري بمدينة آسفي⁽³⁾، وهي على المحيط الأطلسي، وكانت تلقى فيها العلوم الدينية، ويرتادها النساك والزهاد والمتصوفة للعبادة، وما نلاحظه أن الموحدين لم يهتموا بها كثيرا لأن كتب الدراسات المغربية لا تذكر هذا الاهتمام.

5-2- الرباط: وهي عبارة عن ثكنة تتكون من صحن كبير، ومن عشرات الغرف الانفرادية حوله وتنتهي بجامع كبير، وصومعة مستديرة للآذان، ومراقبة السواحل من غارات الروم، وإقامة الإشارات النارية بالليل، تلك الإشارات التي تتناقلها الأربطة أولا بأول، من أدنى رباط سبتة في أقصى المغرب إلى الاسكندرية⁽⁴⁾، كما أنه يقوم بمهام غير التعليم والدفاع عن البلاد، فإنه مستشفى للمرضى، ودار المسافرين، كما نجد في كل رباط مكتبة جدارية وقد كان عددها كبيرا في بلاد المغرب وهو بهذا دار علم لتتقيف الرجال والنساء، ومكتبة جامعة لنشر الثقافة الإسلامية وبيت استنساخ للكتب والمحافظة عليها، ويرجع أقدم رباط بالمغرب إلى الوالي "هرثمة" بن أعين الذي أنشأه سنة 181 هـ ويسمى رباط المنستير بطرابلس الغرب⁽⁵⁾، وقد كانت تلقى في هذه الأربطة دروس في شرح أصول التعليم بالكتاب، وتفسيره، وتعليم الحديث، والفقه، والشعر، وغير ذلك من العلوم، والآداب، والفنون، غير أن طريقته بسيطة جدا تتماشى، وبساطة عقول المسلمين الجدد من البربر المغاربة، وقد أخذ المغاربة لفظة "المانستير من النصارى، وهي لفظ لا تيني ولا يزال باقيا إلى اليوم في لفظة Monastere الفرنسية التي تعني مركز العبادة للزهاد، وفيه خلوة، وانفراد.

(1) محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي: الأدب المغربي، ص 89..

(2) المرجع نفسه: ص 89.

(3) شوقي ضيف: عصر الدول والإمارات، ص 333.

(4) محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي: الأدب المغربي، ص 92.

(5) المرجع نفسه: ص 91.

6-2- المسيد: أنشأ لغرض تعليمي وكان في الصل ملحقا بالمسجد ثم تطور فأصبح مستقلا عنه⁽¹⁾، مع أنه في الصل مسجد ، ولكنه خاص ، وكان هدفه تفقيه الناس في اللغة والدين، وقد أنشأه العرب للمحافظة على لغتهم ودينهم في بلاد المغرب البربرية كما أنه وسيلة لنشر الإسلام كما اهتم المغاربة بإنشائه، وعلموا فيه العربية بالبربرية ، وعلموا فيه القرآن عربيا مبينا وشرحوه بالبربرية، وكذلك الفقه والخطابة لأن غاية البربر هي أن يتعربوا فيفوقوا العرب في اللغة والشعر والعلوم الإسلامية عامة⁽²⁾ وقد استقل المسيد بنفسه ابتداء من القرن الخامس هجري وكان قائما بذاته من حيث البناء والمقصد وصار للتعليم العالي، ويعتبر المسيد معهد التعليم الابتدائي عند الحضر، وهو الكتاب المشرقي من حيث الاقتباس ويمثله محل تعليم الشريعة⁽³⁾ عند البدو ، وأصله تحريف بربري لكلمة مسجد، وتميز لها، لتباين المقصد بين المسجد الذي هو محل للصلاة والمسيد الذي هو محل للتعليم، وقد نشأت في الأندلس، وشمال المغرب الأقصى، ثم انتقلت إلى الجزائر ثم جاءت إلى تونس على عهد الموحدين، حيث يوجد بعاصمة تونس إلى الآن مسيد القبلة⁽⁴⁾ وطريقة التعليم فيه تعتمد على الذاكرة وعلى شحذ حاستي السمع والبصر وتدريب الأصابع في تجويد الخط وزخرفته.

هذه لمحة بسيطة عن أهم مراكز التعليم التي اعتمدها الموحدون والمنتشرة في بلاد المغرب، وإنما يعود هذا الاهتمام بينائها، وتطوير طرق التعليم فيها إلى الدور الكبير الذي تلعبه في تثقيف أهل المغرب، وإخراجهم من جهلهم، وبهذا تتطور العلوم والآداب بتطور أهلها مما يجعل منها دولة قوية، وعظيمة سياسيا، وثقافيا تبسط نفوذها على كل البلاد مفاخرة بإنجازاتها ، وبعلمائها، وبأدبائها.

3- المواد التعليمية:

قسم علماء المسلمين في العصور الوسطى العلوم إلى مجموعتين هما:

العلوم النقلية، والعلوم العقلية فماذا نقصد بهذين العلمين:

(1) عبد الحليم عويس: دولة بني حماد، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط 1، 1980، ص 253

(2) محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي: الأدب المغربي، ص 85.

(3) هو خيمة ممتازة وكبيرة وسط خيام الحي البدوي حيث لا توجد زاوية.

(4) محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي: الأدب المغربي، ص 86.

1-3- العلوم النقلية: وتشمل علوم الدين، وعلوم اللغة العربية، وهي مأخوذة من الكتاب والسنة بالنص أو بالاجماع أو بالإلحاق، وقد اهتم الموحدون بهذه العلوم اهتماما كبيرا.

1-3-3 علم القراءات: أول علم اعتنى به الموحدون باعتباره أول محاولة لتفسير القرآن الكريم، وقد كان متواترا بين الأمة غير أن الصحابة رووه عن الرسول صلى الله عليه وسلم على طرق مختلفة في بعض ألفاظه وكيفيات نطق الحروف وتناقله الصحابة إلى أن استقر على سبع طرق مختلفة وهو ما يعرف بالقراءات السبع وقد كان إمامهم المهدي يزعم أنه مأمور بنوع من الوحي والالهام، كما أنه بارع في علم الكلام⁽¹⁾، ويعتبر الشيخ أبو القاسم الرعيني الشاطبي الأندلسي (ت 590هـ)⁽²⁾. أبرز من كتب فيه، وقد اهتم الخلفاء الموحدون سعيا منهم لتعلم كتاب الله، وسيرهم على نظام إمامهم الذي وضعه لهم والذي كان معتمدا على حفظ حزب من المصحف الشريف كل يوم عقب صلاة الصبح والمغرب⁽³⁾ لأنهم وجدوا أنفسهم عاجزين عن فهم القرآن وقراءته لأنهم أهل بدو، وأصحاب لغة بربرية بعيدة عن ألفاظه وعن لغته العربية، فاجتهدوا في تعلمها ومعرفة قواعدها لقراءة المصحف الشريف وفهم مضمونه، والعمل بما جاء فيه، ولعل ما يؤكد هذا الاهتمام بهذا العلم هو أن الخليفة يوسف بن عبد المؤمن قد درسه ونال حظا وافرا منه، فكان من أحسن نطقا بالقرآن الكريم⁽⁴⁾، كما شجع الخليفة يعقوب المنصور مؤلفين لفن القراءات لتأليف الكتب فيه رغبة منه في أن يتلو الناس القرآن الكريم تلاوة سليمة وصحيحة⁽⁵⁾.

2-1-3- التفسير: يعتبر علم التفسير من أجل العلوم وأشرفها إذ يعنى بكتاب الله تعالى من خلال بيان معنى آيات وتفسيرها وإبراز قيمتها وهدفها، وقد ظهر مع نزول القرآن ثم مع بيان الرسول صلى الله عليه وسلم، وتفسيره بتوضيح الأحكام الشرعية فكان أول من فسره

(1) علم الكلام هو علم يتضمن الحجج عن العقائد الإيمانية بالأدلة العقلية والرد على المبتدعة المحترفين في الاعتقادات من مذاهب السلف وأهل السنة.

(2) أحمد بن محمد المقرئ التلمساني: فح الطيب من غضن الأندلس الرطيب، تح: إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، 1988، ج2، ص22-23.

(3) ابن أبي زرع: الأنيب المطرب في روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص182.

(4) عبد الواحد بن علي المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص167.

(5) عبد الله علي علام: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف، مصر، القاهرة، 1119هـ، ص295.

باعتباره أعلم البشر بمعانيه، ومعرفة مقاصده قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾⁽¹⁾، وقد اهتم الموحدون اهتماما كبيرا به، حتى أنهم استدعوا المفسرين من الأندلس ليتعاونوا مع مفسريهم المغاربة، وقد كان الموحدون على المذهب الأشعري⁽²⁾، وسائرين على فكرة المهدوية الشيعية كما اختلفت المذاهب التي كانت منتشرة في المغرب في ذلك الوقت غير أن المذهب الذي طغى على بلاد المغرب هو مذهب الأشاعرة كون ابن تومرت تعلم على يد أبو حامد الغزالي، أشهر أئمة الأشعرية في النصف الثاني من القرن الخامس، وقد كان تفسيره معتمدا على العقل أكثر من اعتماده على النقل، وقد ساروا على طريقة الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته، وتجنبوا طريقة العقل والتأويل الذي التزمه المعتزلة والشيعة لنشر مبادئهم، ونبغ في هذا العلم علماء أبرزهم أبو الحسن علي بن أحمد التجيبي الحرالي المراكشي (ت 637هـ)⁽³⁾ الذي ابتدع علما جديدا لقواعد التفسير، فكان يلقي في التعليم قوانين تنزل في علم التفسير منزلة أصول الفقه من الأحكام، وعلى هذه الأحكام ألف كتابه مفتاح اللب المقفل على فهم القرآن المنزل.

3-1-3- الحديث: هو كل ما آثر عن النبي صلى الله عليه وسلم بعد البعثة، وقبلها من أفعال وأقوال، وغير ذلك، ومن أشهر الأئمة الإمام البخاري (ت 256هـ) حيث جمع 7563 حديثا، والإمام مسلم (ت 261هـ) الذي جمع 3003 حديثا، الإمام مالك بن أنس (ت 179هـ) جمع 1720 حديثا، وقد اهتم علماء المغرب بصحيح مسلم وأنكبوا على جمعه وفضلوه على كتاب البخاري⁽⁴⁾، وقد عني الموحدون بالحديث الشريف عناية فائقة حيث كان إمامهم المهدي بن تومرت محدثا حافظا غير أنه استند في مهدويته إلى بعض الأحاديث المنتحلة التي انتحلها الشيعة⁽⁵⁾، كما كان خليفته عبد المؤمن من المتبحرين في الحديث وقد سار على نهج إمامه، غير أننا نلمس أن هذه الأحاديث التي قامت عليها المهدوية ضعف العمل بها في عهد يوسف بن عبد المؤمن الذي قرأ الأحاديث من مصادرها الأصلية، وفي هذا يقول المراكشي: "صح عندي أنه

(1) النحل: 44.

(2) أصحابه من أهل السنة والجماعة، وسموا باسم إمامهم أبي الحسن علي بن اسماعيل الأشعري من ذرية أبي موسى الأشعري الصحابي الشهير الذي أنابه علي بن أبي طالب في التحكيم إثر حرب صفين، توفي سنة 330هـ/941م.

(3) أبو العباس أحمد بن أحمد الغبريني: عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية، تح رابع بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط 2، 1981، ص 145-146.

(4) عبد الرحمان أبو زيد ولي الدين ابن خلدون: المقدمة المسماة ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والبربر، ومن عاصرهم من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، 2004، ص 426.

(5) عبد الله علي علام: الدولة المغربية في عهد عبد المؤمن بن علي، ص 300.

كان يحفظ أحد الصحيحين الشك مني. إما البخاري أو مسلم، وأغلب ظني أن البخاري حفظه في حياة أبيه بعد تعلم القرآن هذا مع ذكر جمل من الفقه...⁽¹⁾، ولا يدل رفض يوسف هذه الأحاديث المنتحلة أنه منع من تدريسها، وإنما احترمها غير أن ابنه يعقوب المنصور أنكرها ورفض الاعتراف بها، ومن أشهر علماء الحديث في هذا العصر نجد أشهرهم وهو القاضي عياض بن موسى اليحصري السبتي (ت 544هـ) بمراكش الذي كان من أكبر الحفاظ، ومن أقدّر أمة عصره على تمييز صحيح الأحاديث من منتحلها.⁽²⁾

2-3- علوم اللغة العربية:

1-2-3- النحو: اهتم به الموحدون ولا سيما العلوم اللسانية خاصة أن ابن تومرت كان مهتما باللغة العربية، وقد لاق منهم اهتماما كبيرا، وعلى رأس أعلامهم يوسف بن عبد المؤمن الذي كان أحفظ الناس للغة، وأسرعهم فهما ونفوذ خاطر في غامض مسائل النحو⁽³⁾ أما من اللغويين الذين اشتهروا في هذا العصر أبو القاسم علي بن حمزة البصري الذي اكتشفت بمكتبة القروين أوراق من تأليفه في اللغة بخطه كتبها برباط الفتح سنة (586هـ)، وأبو عبد الله محمد بن عيسى بن محمد بن أصبغ الأزدي المعروف بابن الناصف (ت 620هـ)⁽⁴⁾، كما ازدهر علم النحو في مدن المغرب كطنجة، التي كانت أحد مراكز النحو كما رفع نحاتها ومقرؤها أسألتهم إلى النحويين والمقرئين من أهل اشبيلية، وقد انتدب للإجابة عنها أبو بكر محمد بن خلف بن محمد بن صاف اللخمي الاشبيلي (ت 586هـ) أما في الأندلس ظهر عمر الشلوبين مؤلف كتاب التوطئة في النحو والصرف وصاحب لامية الأفعال، وعلى رأس نحاة المغرب أبو موسى عيسى بن عبد العزيز مؤلف الجزولية⁽⁵⁾ التي أطلق عليها النحاة عدة أسماء، كالقانون والاعتماد والمقدمة، وقد ألفوا أيضا في القوافي والعروض، وأشهر من كتب فيه أبو ذر مصعب بن مسعود الخشدي والحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله الأنصاري الذي برع في النحو والعروض (ت 585هـ) بمالقة، أما كتابه من

(1) عبد الواحد بن علي المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 167.

(2) عبد الله علي علام: الدولة المغربية في عهد عبد المؤمن بن علي، ص 301.

(3) عبد الواحد بن علي المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 167.

(4) محمد المنوني: الأدب والعلوم والفنون على عهد الموحدين، ص 61.

(5) كتيب موجز ولكنه مشتمل على كثير من مسائل النحو التي هي أقرب إلى الألغاز والرموز منها إلى القواعد النحوية الواضحة.

الأندلسيين فهم محمد بن جعفر بن أحمد بن خلف الذي درس في بلاد المغرب وكان صاحب بلاغة كبيرة (ت586هـ) بمرسية.⁽¹⁾

2-2-3- الفلسفة: ويقصد بها علم المنطق الذي ظهر منذ القديم على أيدي فلاسفة اليونان القدامى (أفلاطون، سقراط)، ويعتبر افلاطون أول من حصل مسألتها ودون علمها ورتب قوانينها، وقد اهتم بها الموحدون اهتماما كبيرا حيث كان المغرب في عهدهم يفرع لمشاكلها من كل الأقطار، وشاهد ذلك أن فريدريك الثاني ملك إيطاليا وجه مسائل فلسفية إلى علماء سبتة، ليجيبوا عنها، وقد ندبوا للجواب عنها الفيلسوف المسلم ابن سبعين (ت669هـ) وكان إذ ذاك في سبتة، ولقد انتدب هذا الفيلسوف للجواب عن تلك المسائل في كتاب عنونه (المسائل الصقلية) اشتمل على 49 صفحة توجد نسخة خطية منه في اكسفورد⁽²⁾، كما نشطت الفلسفة في عهد يوسف بن عبد المؤمن الذي أخذ يجمع الكتب من أقطار الأندلس والمغرب، ويبحث عن العلماء خاصة أهل النظر إلى أن اجتمع له منهم ما لم يجتمع لملك قبله من ملوك المغرب،⁽³⁾ ومن علمائها نجد ابن رشد (ت595هـ)، ابن زهر (ت557هـ)، ابن طفيل (ت1185م) وقد كان لهؤلاء الفلاسفة شأن كبير في بلاط حكم الموحدين، وقد قربهم ملوكهم منهم وأجزلوا لهم العطاء وقد بلغت شهرتهم الآفاق الأوربية خاصة مؤلفات أو ترجمات ابن رشد، وفي هذا يقول المؤرخ غوستاف لوبون Gosstave Loupon: "أمر لويس الحادي عشر ملك فرنسا بتدريس مذهب ابن رشد، ومذهب أرسطو الفيلسوفين في كل جامعات فرنسا ونافار"⁽⁴⁾.

أما المؤرخ الفرنسي ارنست رينان Arniste Rinan (1823-1892) فقال: "لولا ابن رشد لما فهمت فلسفة أرسطو"⁽⁴⁾، ومن خلال رأي المحدثين نرى أن الفلسفة والاستقلال الفكري في الأندلس لم يبلغا أوج نموها إلا في عهد الموحدين، وأن المغرب الإسلامي في عصر الموحدين يبدو عليه طابع فكري غربي الخصائص والسماوات وأن العلوم في الأندلس الموحدية كانت تعيش في عصرها الذهبي وكما حظيت الفلسفة بهذا الاهتمام الكبير، فإنها عانت من الظلم الكبير ونستغرب هذا

(1) محمد المنوني: الآداب والعلوم والفنون على عهد الموحدين، ص318.

(2) المرجع نفسه، ص97.

(3) عبد الواحد بن علي المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص169.

(4) محمد المنوني: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ص100.

(5) حكمت علي الأوسي: الأدب الأندلسي في عصر الموحدين، ص38.

التناقض الكبير، فكيف لخلفاء أحبوا العلوم ومجدوا أهلها أن يكون أحفادهم على عكسهم، في معاقبة الفلاسفة والحاقد الضرر بهم، حتى أن الفقهاء كانت سلطتهم كبيرة في هذه الدولة حيث أنهم جعلوا الخلفاء الموحدين يغضبون من الفلاسفة ويقتلونهم ويسجنونهم، ويأمرون بإحراق كتبهم وربما يرجع هذا إلى أنهم تدخلوا في سلطة الحكم، وأخذوا يتحكمون فيها فلم يعجب ذلك الخلفاء الموحدين.

فهذا المأمون بن المنصور يقتل الفيلسوف الأندلسي ابن حبيب من أجل انشغاله بهذا العلم (الفلسفة)، كما أمر المنصور بقتل عبد المؤمن بسجن الفيلسوف ابن رشد ولعنه.⁽¹⁾

وما نستطيع أن نقوله أن الأمراء الموحدين اهتموا بالعلوم والآداب اهتماما كبيرا وقد كان الأدب مزدهرا في عهدهم ازدهارا كبيرا فقد فكوا القيود التي كانت في عهد المرابطين وفتحوها على مختلف العلوم، وبما أنها دولة ذو طابع علمي وثقافي، فقد نشطت الحركة الأدبية وظهرت فيها فنونه وهو محور بحثنا وهذا ما سنتناوله من خلال التعرض لهذه الأشكال الأدبية، التي لقيت اهتماما خاصا من الموحدين.

توطئة:

تعود البدايات الأولى للنثر الأدبي إلى العصر الجاهلي، وبالخصوص في فن الكتابة العربية، على الرغم من أنهم كانوا أهل بداهة كما كان في أغليبتهم من الأميين، غير أن بعضهم كان يعرف القراءة والكتابة، غير أننا لا نملك أدلة مادية تثبت أن العرب في العصر الجاهلي تركوا مدونات، فإن ذلك لا يعني أن الخط العربي لم يكن قد نشأ، فالنقوش المكتشفة حديثا تؤكد أنه تم تكونه في الحجاز منذ القرن السادس الميلادي، ومنها انتشر في بعض البيئات الصحراوية، وبهذا استطاع العرب أن يدونوا تراثهم الأدبي، وهو ما وصل إلى أيدينا من نثرهم، وشعرهم، ولعل كلام العرب كان أغلبه نثرا، ونستند على هذا بقول الجاحظ يعزوا الرقاشي القاص والخطيب السجاع قوله بغزارة النثر العربي القديم استنادا إلى ما أورده من لسانه "وما تكلمت به العرب من جيد المنثور أكثر مما تكلمت به من جيد الموزون، فلم يحفظ من المنثور عشره، ولا ضاع من الموزون عشره"⁽²⁾، وبهذا نلاحظ أن النثر لم يلق حظه من الدراسات

(1) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف، مصر، القاهرة، ط 1960، 3، ص 17.

(2) الجاحظ: البيان والتبيين، تج وشرح: عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، (دت)، ج 1، ص 287.

والبحوث الأدبية، فقد لقي اهمالا من طرف العلماء والنقاد القدامى ما عدا شذرات عابرة وردت في سياقاتهم التي تتفق مع التصور التاريخي لتشكيل الأنواع الأدبية، كما قال ابن رشيق: "كان الكلام كله منثورا، فاحتاجت العرب إلى الغناء بمكارم أخلاقها وطيب أعرافها، وذكر أيامها الصالحة، وفرسانها الأمجاد، وسمحاتها الأجواد لتتهز أنفسها إلى الكرم، وتدل أبنائها على حسن الشيم، فتوهموا أعاريض جعلوها موازين الكلام فلما تم لهم وزنه سموه شعرا، لأنهم شعروا به، أي فطنوا"⁽¹⁾ أما رأي النهشيلي فلا يختلف عن هذا حيث يقول على لسان بعض علماء العربية: "لما رأت العرب المنثور يند عليهم وينفلت من أيديهم، ولم يكن لهم كتاب يتضمن أفعالهم، تدبروا الأوزان والأعاريض، فأخرجوا الكلام أحسن مخرج، بأساليب الغناء، فجاءهم مستويا، ورأوه باقيا على ممر الأيام فألفوا ذلك وسموه شعرا"⁽²⁾

من خلال هذه التعاريف نفهم أن الكلام العربي في أول أمره كان منثورا ثم تحول إلى شعر، وإنما يعود هذا إلى حاجتهم في التغني بمكارمهم وأمجادهم، ولا يكون هذا إلا بأقوال شعرية موزونة أسهل حفظا، وأشد وقعا في نفوسهم غير أن المنثور صعب الحفظ، وقد يضيع إذا لم يرسخ في الذاكرة، إضافة إلى عدم توفر أدوات الكتابة لتدوينه، وحفظه من الضياع، فاستعملوا الأوزان التي تحل محل الكتابة في أشعارهم فانضبطت على نظم إيقاعية صقلت مع الممارسة وهو ما يعرف عندنا بالأوزان الشعرية التي وضعها الخليل بن أحمد الفراهيدي، فاصبحت علما قائما بذاته، وهو ما يعرف عندنا بعلم العروض، ولعل من أهم مظاهر هذا الإهمال أننا لا نجد تعريفا صحيحا للنثر قد استوفى ما يشترط في كل تعريف صالح من دقة، وإحاطة واستقصاء وأن جلّ الدراسات الأدبية تدور في فلك الشعر والشعراء ككتب القدامى التي انصبت على الشعر، وأصحابه، ومنها شروح المعلقات، وكتاب الحماسة، والمفضليات، والأصمعيات، وديوان أبي الطيب المتنبي، وغيرها من كتب الشعر والشعراء، كما نجد طائفة صالحة من المؤلفات تدور حول أبي تمام، والبحثري، ومسلم بن الوليد، وأبي نواس، وبيشار، والمتنبي⁽³⁾، وهناك من الكتاب من فضل النثر على الشعر، بل واعتبره هو الأساس، ويعتبر القلقشندي من الذين رجحوا النثر على الشعر فقال: "إن الشعر وإن كانت له فضيلة تخصه من حيث تفرده باعتدال أقسامه،

(1) ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وأدابه، تح: محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة القاهرة، ط 3، 1960، ج1، ص20.

(2) النهشيلي أبو محمد عبد الكريم بن إبراهيم: اختيار الممتع في علم الشعر، نج: المنجي الكعبي، تونس، (د ت)، ص24.

(3) زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع، دار الجبل، بيروت، لبنان، (د ت)، ج2، ص18.

وتوازن أجزائه، وتساوي قوافيه، مع طول بقائه على تعاقب الأزمان، وتداوله على السنة الرواة لسهولة حفظه، وجمال انشاده بمجالس الملوك، فإن النثر أرفع منه درجة، وأعلى رتبة، وأشرف مقاما، وأحسن نظاما⁽¹⁾، وأما الكتاب الذين غلب عليهم النثر، وكان لهم مع ذلك شعر جيد فهم عديدون منهم علي بن عبد العزيز الجرجاني، أبو بكر الخوارزمي، أبو الفضل ابن العميد، أبو اسحاق الصابي، بديع الزمان الهمذاني، أبو اسحاق الحصري، أبو الفرج البيهقي، وهؤلاء كانوا يجيدون الشعر إجابة تامة في موضوعات لا يحسن فيها غير القريض⁽²⁾

ولا يوجد كتاب منشور شغل النقاد غير القرآن الكريم كلام الله المنزه عن اي خطأ أو تشبيه لأفلاظه المعجزة والراقية في دلالتها وقد نزله الله على خير خلقه محمد صلى الله عليه وسلم ومن شدة اعجازه أن المشركين اتهموا الرسول صلى الله عليه وسلم بأنه شاعر من شدة حلاوته ووقع ألفاظه في الأذن، وإذا كان الشعر يسعى إلى مخاطبة الشعور باللمحات الدالة في ايقاعات موسيقية موزونة، ومقفاة أحيانا فإن النثر يستهدف تقديم أفكار مجددة واضحة في رباط متماسك، ومن هنا يحاول الناثر اخضاع اللغة لموقفه الفكري، بينما يرفض الشاعر تطويع لغته لهذا الموقف، وهذا ما جعل جان بول سارتر (Jean-Paul Sartre) (1905-1980) ينكر قضية الالتزام عند الشاعر⁽³⁾، وقد نستطيع تشبيه الشعر والتصوير البياني بالرقص أو الرسم وبهذا فالنثر تغيير ذهني عن تجربة إنسانية ولو جئنا لاعطاء مفهوم للنثر نجد أنفسنا مجبرين على الإجابة عن هذا السؤال وليس لنا من سبيل سوى البحث عن مفهوم لفظة نثر في اللغة العربية.

مفهوم النثر:

بعد اطلاعي على مدلول كلمة نثر في المعاجم العربي اتضح لي أنها مشتقة من أصل مادي حسي، هو النثرة أي الخيشوم وما والاه، أو الفرجة بين الشاربين حيال وترة الأنف أو الدرع الواسعة، والنثر نثر الشئ بيدك ترمي به متفرقا مثل نثر الجوز واللوز والسكر، وكذلك نثر الحب إذا بذر، وهو النثار، وقد نثره وينثره نثرًا ونثارًا ونثره، فانثرت

(1) أبو العباس أحمد بن علي الفلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الانشاء، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، مطابع كوستاتسوماس وشركائه، القاهرة، دت، ج1، ص58.

(2) زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع، ص29.

(3) ابن منظور (جمال الدين أبي الفضل محمد ابن مكرم ابن منظور الأمازيغي المصري): لسان العرب، تح عامر أحمد حيدر، مراجعة عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط 1، 2003، ص 5، مادة نثر.

وتتأثر، والنثارة ما تتأثر منه،⁽¹⁾ أما الجوهري فقال: النثار بالضم ما تتأثر من الشيء، ودرُّ مُنْتَرٍ شُدُّد للكثرة.⁽²⁾

قال ابن سيدة لم يفسر نثراً فقال: وعندي أنه مُتَأَثِّرٌ متساقط لا يثبت وفي حديث ابن مسعود ونثراً كَنَثَرِ الدَّقْلِ أي كما يتساقط الرطب اليابس من العدق إذا هُرَّ، وتناثر القوم مرضوا فماتوا والنثور الكثير الولد، وقد نثر ولدا ونثر كلاما: أكثره، وقد نثرت ذا بطنها ونثرت بطنها نثر بين النثر ومنثر، كلاهما كثير الكلام، والأنثى نثره فقط، والنثرة الخيشوم وما والاه.⁽³⁾

قال الأصمعي: النافر والنائر، الشاه تسعل فينثر من أنفها شيء وفي حديث ابن عباس: الجراد نثره الحوت أي عطسته، وحديث كعب: إنما هو نثرة حوت، وقد نثر ينثر نثيراً،⁽⁴⁾ أنشد ابن الأعرابي:

فَمَا أَنْجَرَتْ حَتَّى أَهَبُ بِسُدْفَةٍ عَلاَجِيمَ عَيْرَانِي صُبَّاحٍ نَثِيرَهَا⁽⁵⁾

والانتثار والاستنثار بمعنى وهو نثر ما في الأنف بالنفس وإذا استنشقت فانثر وفي التهذيب فانثر وقد روى: فانثر فبقطع الألف.⁽⁶⁾

وقال ابن الأثير: نثر ينثر، بالكسر إذا امتخط، واستنثر استنقل منه، استنشق الماء ثم استخرج ما في الأنف، ويروى فأنثر بألف مقطوعة، وأهل اللغة لا يجيزونه والصواب بألف الوصل، ونثر السكر ينثره بالضم، والنثرة فرجة ما بين الشاربين حيال وقرة الأنف، وكذلك هي من الأسد وقيل هي أنف الأسد: والنثرة نجم من نجوم الأسد ينزلها القمر.⁽⁷⁾ أما الزمخشري فيعرفه بقوله: ما أصبت من نثر فلان شيئاً، وهو اسم المنثور من السكر ونحوه كالنثر بمعنى المنثور، والنثار بمعنى النثر أيضاً، وهو الفتات المتناثر من المائدة.⁽⁸⁾

أما صاحب القاموس فيقول: نثر الشيء ينثره نثراً ونثاراً، رماه متفرقا، كثره فانثر وتثر، والنثارة بالضم والنثر بالفتح ما تناثر منه، أو الأولى، تخص بما يُنثر من المائدة فيؤكل

(1) ابن منظور، لسان العرب، مادة نظر

(2) المرجع نفسه: مادة نثر.

(3) المرجع نفسه: مادة نثر.

(4) المرجع نفسه: مادة نثر.

(5) ذي الرمة: الديوان، قدم له وشرحه أحمد حسن بسح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995، ص 141.

(6) ابن منظور: لسان العرب، مادة نثر.

(7) المرجع نفسه: مادة نثر.

(8) الزمخشري أساس البلاغة، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1992، 1، مادة نثر.

للتواب،⁽¹⁾ ألاحظ أن لفظة نثر في إطارها اللغوي، تعني الشيء المبعثر المتفرق، ومن صفات الشيء المتفرق الامتداد والاتساع، والشيء الذي يبدو بهذه الصفات يخيل للناظر إليه أنه كثير العدد، ومن ثم تأخذ دلالة هذه اللفظة معنى الكثرة، يقال: نثر الولد، أكثره ثم تأخذ هذه اللفظة بعد ذلك دلالة معنوية يقال: نثر الكلام أكثره، تشبيها له بنثر الولد والرجل، والنثر الكثير الكلام والنثر على هذا النحو هو الكلام الكثير المنتثر تشبيها له بنثر المائدة ونثر الولد، وتدخل هذه اللفظة بيئة الثقافة الأدبية بهذا المعنى، أي على أنها الكلام الكثير المتفرق ثم تقتصر على الكلام الأدبي الذي يسمو على الكلام العادي، تعبيرا ومعنا ويستعملها النقاد الأدباء بهذا المفهوم على أنها ذلك الكلام الفني غير المنظوم والذي يقابل الكلام المنظوم.

أما قدامة بن جعفر فيقول فيه: "واعلم أن سائر العبارة من كلام العرب إما أن يكون منظوما وإما أن يكون منثورا والمنظوم هو الشعر، والمنثور هو الكلام"⁽²⁾.
أما ابن خلدون فيقول فيه: "اعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين في الشعر المنظوم وهو الكلام الموزون المقفى، ومعناه الذي تكون أوزانه كلها على روي واحد وهو القافية وفي النثر وهو الكلام غير الموزون"⁽³⁾، أما ابن وهب فيقول: "واعلم أن الشعر أبلغ البلاغة"⁽⁴⁾

فالنثر في عرف هؤلاء النقاد، فن قولي غير منظوم، يقابل الشعر ذلك الفن القولي المنظوم والفرق بين الشعر والنثر في رأيهم، يرجع إلى الناحية الموسيقية فقط وقد اتخذها بعضهم حجة لتفضيل الشعر على النثر، وفي هذا يقول ابن رشيق مفضلا الفن القولي المنظوم أي (الشعر) على الفن القولي غير المنظوم أي (النثر) "إن كل منظوم أحسن من كل منثور، من جنسه في معترف العادة، ألا ترى أن الدر وهو أخو اللفظ ونسيبه، وإليه يقاس، وبه يشبه، إذا كان منثورا لم يؤمن عليه، ولم ينتفع به، في الباب الذي له كسب، ومن أجله ننتخب، وإن كان أعلى قدرا وأعلى ثمنا، فإذا نظم كان أصون له من الابتذال، وأظهر لحسنه من كثرة الاستعمال"⁽⁵⁾.

(1) الفيروز أبادي: القاموس المحيط، تح أبو الوفاء نصر الدين الهوريني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2007، مادة نثر.

(2) قدامة بن جعفر: نقد النثر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 1982، ص74.

(3) عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ص585.

(4) ابن وهب: البرهان في وجوه البيان، تحقيق: أحمد مطلوب وخبديجة الحريني، دار الطباعة، بغداد، 1968، ص350.

(5) ابن رشيق: العمدة في محاسن الشعر وآدابه ج1، ص19-20.

أما أبو الهلال العسكري فيقول: "ليس شيء يقوم مقامه في المجالس الحافلة والمشاهد الجامعة، إذا قام به منشد على رؤوس الأشهاد، ولا يفوز أحد من مؤلفي الكلام بما يفوز فيه صاحبه من العطايا الجزيلة والعارف السنيّة، ولا يهتز ملك، ولا رئيس لشيء من الكلام كما يهتز له، ويرتاح لاستماعه؛ لأن مجالس الظرفاء والأدباء لا تطيب، ولا تؤنس إلا بإنشاد الأشعار، ومذاكرة الأخبار فالشعر أصلح للأحان التي هي أهنى للذات إذا سمعها ذو القرائح الصافية والأنفس اللطيفة لا تنتهياً صنعتها إلا على كل منظوم من الشعر، فهو لها بمنزلة المادة القابلة لصورها الشريفة".⁽¹⁾

والحقيقة أن هذه التعاريف لا تستقيم وواقع النثر العربي، فالمتصفح لهذا الفن القولي في أزهى عصور الأدب العربي، في المشرق والمغرب يدرك أن به نظماً وإيقاعاً كما في الشعر، ويرى بعض النقاد العرب أن قواعد نقد الشعر تصلح لنقد النثر كقول قدامة بن جعفر: "وقد ذكرنا المعاني التي يصير بها الشعر حسناً وبالجملة موصوفاً، والمعاني التي يصير بها قبيحاً مردولاً وقلنا: إن الشعر كلام مؤلف، فما حسن فيه فهو في الكلام حسن، وما قبح فهو في الكلام قبيح، وما ذكرناه هناك من أوصاف حد الشعر، فاستعمله في الخطابة والترسل، وكل ما قلناه من معايبه فتجنبه ها هنا".⁽²⁾

وسأعرض لبعض الكتاب ومواقفهم من النثر.

يقول الجاحظ: "وقد نقلت كتب الهند وترجمت حكم اليونانية، وحولت آداب الفرس، فبعضها ازداد حسناً، وبعضها ما انتقض شيئاً ولو حولت حكمة العرب لم يجدوا في معانيها شيئاً لم تذكره العجم في كتبهم التي وضعت لمعاشهم، وحكمهم، ولبطل ذلك المعجز، وقد نقلت هذه الكتب من أمة إلى أمة، ومن قرن إلى قرن، ومن لسان إلى لسان حتى انتهت إلينا، وكنا آخر من ورثها ونظر فيها، فقد صح أن الكتب (أي كتب النثر) أبلغ من تقييد المآثر من الشعر".⁽³⁾

أما أبو حيان التوحيدي فيقول: "النثر أصل الكلام، والنظم فرعه، والأصل أشرف من الفرع والفرع أنقص من الأصل"⁽⁴⁾ ويقول أيضاً: "إذا نظر في النظم والنثر على استيعاب

(1) أبو هلال الحسن بن عبد الله بن سهل العسكري: كتاب الصناعتين، الكتابة والشعر، تج: علي محمد الجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، 1406هـ- 1986م، ص137- 138.

(2) قدامة بن جعفر: نقد النثر، ص94.

(3) الجاحظ: كتاب الحيوان، تج وشرح: عبد السلام هارون، دار إحياء التراث العربي بيروت، لبنان، (دت)، ج1، ص75.

(4) أبو حيان التوحيدي، الإمتاع والمؤانسة، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، 2005، ج2، ص226.

أحوالهما وشرائطهما... كان أن المنظوم فيه نثر من وجه، والمنثور فيه نظم من وجه، ولو أنهما يستهينان هذا النعت لما اختلفا ولا اختلفا".⁽¹⁾

وما يلاحظ أن أبو حيان التوحيدي قد اهتدى إلى حقيقة النثر، وحل مقوماته الجوهرية تحليلاً يتصف بالدقة والعمق كما بين أهمية كل من عنصري العقل والموسيقى، والخيال في النثر الفني فحسب قوله إن الشعر لا يختص وحده بالموسيقى والخيال، بل هما قدر مشترك في الشعر والنثر، والفرق بين النوعين من الكلام نسبي أما الجوهر فواحد.

وبهذا فالنثر حقل للتعبير عن القوة والعاطفة، والبيان، وموسيقى من فيض الخاطر، يقرر جان بول سارتر (Jean paul sartre) إذ يقول: "والنثر ذو فائدة بحكم جوهره، فكأن الكاتب هو الذي يسخر الكلام لأغراضه، فقد كان السيد جردان يصطنع النثر في التماس خفه في حين اصطنعه هتلر في إعلان الحروب على بولونيا".⁽²⁾

من خلال هذه الأقوال لعلماء اللغة والبلاغة أستطيع أن أقسم النثر إلى نوعان:

1- **النثر الفني:** وهو لون من التعبير الأدبي المنثور الذي يلزم فيه الكاتب بالتعبير

عن قضايا معينة بشكل أدبي متميز، يثير فينا احساسات جمالية، وانفعالات عاطفية كالمقامات والرسائل والخطب، وقد كان مدار هذا النثر الأسلوب البلاغي الحافل بأنواع المحسنات البديعية وهو الذي يتأسس على رؤية ثقافية ومعاناة ذهنية تعبر عن مختلف جوانب الحياة البشرية بشكل يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها مهارة وبلاغة، هذا الضرب هو الذي يعني النقاد في مختلف اللغات ببحثه ودرسه، وبيان ما مر به من أحداث وأطوار، وما يتميز به في كل طور من صفات وخصائص وفي هذا يقول ابن خلدون: "وأما النثر فمنه السجع الذي يؤتى به قطعاً، ويلتزم في كل كلمتين منه قافية واحدة يسمى سجعاً، ومنه المرسل، وهو الذي يطلق فيه الكلام اطلاقاً ولا يقطع أجزاء بل يرسل إرسالاً من غير تقييد بقافية، ولا غيرها، ويستعمل في الخطب والدعاء وترغيب الجمهور وترهيبهم".⁽³⁾

2- **النثر التأليفي:** ويشمل تلك المؤلفات التي تجمع إلى اهتماماتها التاريخية والثقافية

والأدبية خصائص التعبير الأدبي، والتصوير الفنوي وتدخل فيها كتب النقد الأدبي، كتب الرسائل والعهود، وكتب الرحلات وغيرها من المؤلفات التي تدخل

(1) أبو حيان التوحيدي، الامتاع والموانسة ج2، ص227.

(2) عبد المالك مرتاض: نظرية النص الأدبي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، 2007، ص93.

(3) عبد الرحمان بن خلدون: المقدمة، ص 585-586.

في هذا النثر الفني، وقد تحرر هذا النثر من الأسلوب التقريري الجاف وأصبح أقرب إلى روح النثر الفني وهو ما يسمى (بالنثر الفني التألّيفي)، وهو يعبر عن رقي الأمة الفكري والحضاري وعن استقرارها السياسي، ويكشف عن صور النضج الذي بلغه في المجالات المختلفة.

وللنثر سماته المختلفة حيث أنه شغل اهتمامات النقاد واستأثر بملاحظاتهم وآرائهم من حيث الوظيفة وطبيعة اللغة في كل منهما، كما أن النثر أكثر ميلا إلى التعبيرات اللغوية الدقيقة الواضحة، ومعتمد على البراهين التي تعين على عرض المعاني وإظهارها.

اهتمام الموحدين بالنثر:

تعود البدايات الأولى للاهتمام بالنثر الأدبي إلى دخول العرب المسلمين إلى المغرب ونقلهم لكل حضارة وتعليمهم اللغة العربية الفصحى، كما نقل هؤلاء العرب عاداتهم وتقاليدهم الحياتية والأدبية، غير أن أهل المغرب ارتدوا عن الإسلام أكثر من مرة لأنهم اعتبروهم غزاة لأرضهم مما كان سببا في عدم استفادتهم من حضارة العرب الفكرية مبكرا، ولكن نور العلم أقوى من غطرسة الجهل فامتزج المغاربة مع الفاتحين العرب وتعلموا منهم اللغة العربية وتعرفوا على تراثهم الأدبي فاختلّف بين روائع الشعر وبلاغة النثر، وتطورت طرق عيشهم وتحضروا في كل ميادين الحياة، وكان هذا مهذا جيدا وأرضا خصبة لنمو النثر الأدبي، الذي كان في أول الأمر وسيلة لنقل الفكرة في غير التواء ولا اعوجاج، يسري على نثر المشرق العربي لكنه تطور في عهد الموحدين ليصبح تقليدا للنثر العباسي في شتى ألوانه، فتتوعد فنونه من خطابة ورسائل ومناظرات وتاريخ ورحلات جغرافية، والنثر عندهم أنواع أولها ما يصدر عن الملوك والسلاطين والخلفاء حول شؤون الدولة كمنشوراتهم ومعاهداتهم، وولايات عهدهم، ومراسلاتهم، وغيرها من أمور السياسة وثانيها ما اختص بحياة الأفراد، كالرسائل الأخلاقية ووصف الجماعات وغيرها وثالثها ما تعلق بالسياسة وبشؤون الحرب ورابعها ما كتب في الأدبيات كالوصف والقصص والمقامات، والأسفار والرسائل الإخوانية، وغيرها، وقد لاق النثر اهتماما كبيرا من أمراء الموحدين وكتابهم حتى أنهم صاروا يناقسون أدباء الأندلس لمحو تلك النظرة التي تقول أن البربري جاهل في كل شيء بدوي الأصل والنشأة، فطبع أدبهم بطابع القومية والأصالة وصار

تمهيد في بوابات الدراسة

أدبا معبرا عن المشاعر المغربية الحقة، و مترجما للصفات المغربية الأصلية كالمجد،
والصرامة، والشجاعة، وحب الدين، وقد عبر أدبهم عن الدعوة الموحديّة والمهديّة
والعصمة والإمامة.

توطئة:

الخطابة فن أدبي قديم النشأة، نشأ مع الإنسان وصعد معه في مدارج الرقي، والازدهار، ولا تكاد أمة عرفها التاريخ تخلو منها، وقد وجدت في آثار المصريين القدامى خطب، دونت بالهيلوغريفية⁽¹⁾. كان يقوم بها الملوك ورجال الدين، وللآشوريين⁽²⁾ خطب كتبت باللغة المسمارية⁽³⁾ كما كان لليونان والرومان خطب هزوا بها أعواد المناير، ويذكر الجاحظ أن الفرس أخطب الناس وفي هذا يقول: "وقد علمنا أن أخطب الناس الفرس وأخطب الفرس أهل فارس، وأعذبهم كلاما، وأسهلهم مخرجا، وأحسهم دلا، وأشدهم فيه تحكما، أهل مرو، وأفصحهم بالفارسية الدريّة، وباللغة الفهلوية أهل قسبة الأهواز"⁽⁴⁾، كما استعملها الأنبياء عليهم الصلاة والسلام واتخذوها سلاحا لنشر دعوتهم، فزلزلوا عروش الطغاة، وقادوا الأمم بالمنطق الفصل، والحجة الدامغة المقنعة لنزع غطاء الجهل والظلام، وبما أنها قديمة قدم التاريخ، نالت حظها عند العرب في جاهليتهم، وفي إسلامهم، فكانت ربيبة الشعر حيث كانت مكانة الخطيب لا تقل أهمية عن مكانة الشاعر الذي يعتبر اللسان الذي يعبر به عن القبيلة، فالمعروف عن العرب في جاهليتهم الفصاحة والبيان لذا كانوا يتناولونها في كل مناسبة من مناسباتهم، فاعتبرت في تراثهم النثري من أبرز الفنون القولية تعبيراً عن أحوال المجتمع العربي الوجدانية والاجتماعية والدينية، والفكرية، فأرخت قبل مجيء الإسلام للمنازعات القبلية ولدهشة العربي التي بعثته على التأمل في الكون، والدعوة للاعتبار بأحداثه، وحقائقه وعبرته بعد الإسلام عن اطمئنان هذا المجتمع المظطرب بخالق الكون، مدبره، ودعوته لمكارم الإسلام، وفضائله، وبذلك أخذت الخطابة الإسلامية تؤسس خطابها في مختلف مجالات الأمة على قواعد الهداية الدينية الحاثية على تبيان مسؤولية المسلم في حياته وآخرته.⁽⁵⁾

(1) كتابة تصويرية رمزية قديمة استعملها سكان مصر القدامى تكتب على الخشب أو الحجر أو المعدن، وقد أطلق عليها الإغريق اسم الهيروغليف، أي النقوش المقدسة وتسمى أيضا الكتابة المقدسة، تم ابتكارها أواخر الألف الرابع قبل الميلاد (3000ق.م) اندريه ايمار وجانين أوبوايه: تاريخ الحضارات العام، تر: يوسف أسعد داغر وأحمد عويدات، منشورات عويدات بيروت، باريس، ط2، 1981، ص1، ص127.

(2) قوم استوطنوا بلاد الرافدين (العراق) بمكان مرتفع أشور، ولذلك تسموا به، أسسوا امبراطورية واسعة وعظيمة بقيت آثارها شاهدة على رقيها وقد سقطت على يد الكلدانيين سنة (609ق.م)، المرجع نفسه: ص172.

(3) كتابة ابتكرها السومريون في منطقة بلاد الرافدين تتشكل من حروف لها رؤوس تشبه رؤس المسامير ويعود استعمالها إلى النصف الثاني من الألف الرابع، وانطلقت برسم شكل يمثل الشيء أو الكائن الحي، واستعمل الخزف كمادة للكتابة، وكانت حروفها ترقم على ألواح الطين اللين وتشوى لتتصلب، وأشهر كتاباتها قانون حمورابي الذي نقش على الحجارة، المرجع نفسه ص172..

(4) الجاحظ: البيان والتبيين، ج3، ص13.

(5) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص57.

1- تعريف الخطابة:

1-1- الخطابة لغة: الخطبة مصدر الخطيب، وخطب الخطيب على المنبر، واختطب يختطب خطبةً، واسم الكلام: الخطبة؛ قال ابو منصور: والذي قال الليث، إن الخطبة مصدر الخطيب، لا يجوز إلا على وجه واحد، وهو أن الخطبة اسم للكلام، الذي يتكلم به الخطيب، فيوضع موضع المصدر. (1)

أما الجوهر فيقول: خطبت على المنبر خطبةً بالضم، وخطبت المرأة خطبةً، بالكسر، واختطب فيهما، قال ثعلب: خطب على القوم خطبةً فجعلها مصدرًا؛ قال ابن سيدة: ولا أدري كيف ذلك إلا أن يكون وضع الاسم موضع المصدر؛ وذهب ابو اسحاق إلى أن الخطبة عند العرب: الكلام المنثور المسجع، ونحوه، ورجل خطيب، حسن الخطبة، وجمع الخطيب خطباء، وخطب بالضم خطابةً، بالفتح صار خطيبًا. وفي حديث الحجاج: أمن أهل المحاشد والمخاطب؟ أراد بالمخاطب الخطب، جمع على غير قياس، كالملاح؛ وقيل: هو جمعه مخطبةً والمخطبة: الخطبة؛ والمخاطبة، مفاعلة من الخطاب والمشاورة أراد: أنت من الذين يخطبون الناس، ويحثونهم على الخروج، والاجتماع للفتن. (2)

أما مفهوم الخطابة عند "الزبيدي" (3) فهو لا يكاد يختلف عن مفهومها عند "ابن منظور" حتى أنه مطابق له في المعنى واللفظ، أما الخطابة عند الزمخشري فجاء تعريفها كما يلي: خطب أي خاطبه وأحسن الخطاب، وهو المواجهة بالكلام، وخطب الخطيب خطبةً حسنة، وكان يقوم الرجل في النادي في الجاهلية فيقول: خطب فمن أراد انكاحه قال: نكح، واختطب القوم فلانا، دعوه إلى أن يخطب إليهم، يقال: اختطبوه فما خطب إليهم.

ومن المجاز: فلان يخطب عمل كذا يطلبه، وقد أخطبك الصيد فارمه، أي اكتبك وأمكنك، واخطبك الأمر، وهو أمر مُخطب، ومعناه أطلبك من طلبت إليه حاجة فاطلبي، وما خطبك: ما شأنك الذي تخطبه، ومنه هذا خطب يسير، وخطب جليل، وهو يقاسي خطوب الدهر. (4)

(1) ابن منظور: لسان العرب، ج1، مادة خطب.

(2) المرجع نفسه: ج1، مادة خطب.

(3) الزبيدي محمد مرتضى الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس، تج: علي هلاي، مراجعة عبد الله العلابي وعبد الستار أحمد فراج، مطبعة

حكومة الكويت، الكويت، 1966م، مادة خطب.

(4) الزمخشري: أساس البلاغة، مادة خطب.

أما الخطابة عند قدامة بن جعفر "فمأخوذة من خَطَبْتُ أَخْطَبُ خِطَابَةً، كما يقال كتبت أكتب كتابة، واشتق ذلك من (الخطب) وهو الأمر الجليل، لأنه إنما يقام بالخطب في الأمور التي تجل وتعظم والاسم منها خَاطِبٌ مثل راحمٌ، إذا جُعِلَ وصفا لازما قيل خطيبٌ كما قيل في راحم ورحيم عليه وعلى وصفه، وصار صناعة له، والخطبة الواحدة من المصدر كالقومة من القيام، والضربة من الضرب، وإذا جمعتها قلت خُطْبٌ مثل جمعة وجمع، والخطبة اسم المخطوب به وجمعها خِطَبٌ مثل كِسْرَةٍ وكِسْرٍ، فأما الخطابة فيقال: منها: خاطبتُ أَخْطَبُ مُخَاطَبَةً، والاسم الخِطَابُ، مثل قائلته أقائله مقاتلة، والاسم القتال"⁽¹⁾.

من خلال هذه التعاريف التي سبقت لعلماء اللغة القدامى في مفهومهم للفظه الخطابة توصلنا إلى أنها تؤدي إلى معنيين أولهما ذلك الكلام المنشور المسجع في غالبه، والذي يلقي على الجماهير من السامعين لاستمالتهم، واقناعهم، والذي يكون صادرا عن صاحب الأمر الذي يسمى (الخطيب) والذي يهدف من وراء خطبته إلى تأكيد حجته مستخدما مختلف الأدلة، والبراهين، والتي لها وقعها الخاص، وأثرها البالغ في نفوس الجماهير.

وثانيها هو الدعوة للزواج لأن الخطبة هي دعوة المرأة للزواج وتسمى الخطبية، أو طلب الاقتران بها، وبهذا فالخطابة يمكن أن تكون مشافهة أو كتابة، وذلك يرجع إلى قدرة وفصاحة الخطيب الذي يتسلل إلى قلوب السامعين، ويخترقها دون استئذان هو المتمكن من استنهاض الهمم، ورفع رايات الجهاد، وتحريك العواطف، والمشاعر التي تكون الدافع لقوة الإنسان وشجاعته.

2-2- الخطابة اصطلاحا: ويقصد بها "القاء الكلام المنشور مسجوعا أو مرسلا لاستمالة المخاطبين إلى رأي أو ترغيبهم في عمل"⁽²⁾، وبهذا فالخطابة فن أدبي من أقدم الفنون النثرية في الأدب العربي، وهدفه اقناع الجماهير، والتأثير فيهم، وفي سلوكهم، وعواطفهم وعقولهم، وبهذا فهي تعالج قضايا كثيرة تفرضها عليها الظروف بكل أنواعها، ومن هذا تعددت أنواعها من خطب سياسية واجتماعية، ودينية حسب كل عصر وما تقتضيه كما شغلت الخطابة محور النقاش بين فلاسفة اليونان فقد شغل

(1) قدامة بن جعفر: نقد النثر، ص 94-95.

(2) علي محفوظ: فن الخطابة واعداد الخطيب، دار الاعتصام للطباعة، القاهرة، مصر، (دت)، ص 96.

أفلاطون (Platon) بالرد على السوفسطائيين في محاورته من محاوراته أودعها كتابه جورجياس (Gorgais) أحد شيوخ السوفسطائيين حيث يقول: "إن الحقيقة لا تكفي وحدها في أن تكون محور الخطابة، فالفصاحة تجعل من الخطيب عبقرياً، قادراً على الاستمالة التي تجذب الجماهير إليه، وكل فكرة خلقية تختفي، أو يجب أن تختفي أمام ما يدركه الخطيب من النجاح".⁽¹⁾ وبهذا نلاحظ أن أفلاطون قد تصدى لمهاجمة هذه الأفكار وقرر أن الخطابة لا تكون مواطناً، وليست كافية في إدارة شؤون السياسة، وأن السياسي الذي يعتمد عليها، سيتعرض للاخفاق لا محال.

وقد عرف أرسطو (Aristote) الخطابة بأنها "القدرة على الكشف نظرياً، في كل حالة من الحالات، عن وسائل الإقناع الخاصة بتلك الحالة"⁽²⁾، غير أن الخطابة ظهرت قبل أرسطو مع ظهور السوفسطائيين⁽³⁾ في اليونان بظهور النثر الفني الذي نسّم الحياة الاجتماعية في القرن السادس قبل الميلاد، وتزامن معه ظهور مدرستين أحدهما المدرسة اليونانية (l'école d'honie)، التي أسسها تاليس (Talis) نحو سنة (600ق م) وانكب طلبتها على دراسة الطبيعة، بكل مكوناتها، وتزامن ظهورها مع ظهور بيتاغور (Pythagore) مؤسس المدرسة الثانية، الذي أسس فلسفته الرياضية⁽⁴⁾ غير أن السوفسطائيين يرون أن العلماء ليسوا هم من عنوا بدراسة هذه العلوم فقط، وإنما كان لهم رأيهم في هذا فيقولون: "إن العلماء هم صنّاع كلام ومهندساو جمل وعبارات والجديرون بهذا الاسم منهم الخطباء والبلغاء R.Heteurs وحدهم".⁽⁵⁾ فهم يرون أنهم مقدّمون على العلماء لما للخطيب من عبقرية من صنع الكلام المؤثر، ومع موقفهم السلبي لهم مبادئهم التي يرجعون إليها، والتي يعتمدون عليها، وبهذا تحرر النثر الفني من قيود العلم، والقاعدة وأصبح للكلام المحل الأول، وحل الخطيب محل العالم، والفيلسوف ووقف الخطيب أمام العلماء يجادلهم جدلاً حراً يرجع فيه إلى صدق حسه، وإلى ما يجده في نفسه غير أنه بما يفرضه العلماء من رعاية مبادئ قد تفوّت عليه

(1) أرسطو طاليس: كتابه الخطابة، تر وتقديم وتح ، وتعليق إبراهيم سلامة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، مطبعة لجنة البيان العربي، ط2، 1953، ص15.

(2) محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، 2004، ص95.

(3) مشتقة من كلمة سفسطائي، التي كانت تعني عند الإغريق، الرجل الاختصاصي والعالم والخبير، والبارع في مهنته وفي فنه، وهي تستخدم للدلالة على الإنسان الملم تماماً بمهنته والمزود بكياسة مندفعه جداً، وقد استخدمت هذه اللفظة لتدل على رجال نوابغ بكفاءهم ومواهبهم ومعارفهم وتجربتهم في مجالات أكثر تبيانا في النشاط التطبيقي، وفي الثقافة في القرن الخامس للميلاد أصبح رجال الدولة والمنتشعين والقادة العسكريين والفلاسفة والأطباء والشعراء والمعماريين والموسيقيين والممثلين يطلق عليهم لفظ السوفسطائيين. سقراط ثيوكاريس كيسيديس: مسألة الجدل، ترجمة طلال السهيل، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، لبنان، بيروت، ط1، 1987، ص85-86.

(4) أرسطو طاليس، كتابه الخطابة، ص15.

(5) المرجع نفسه: ص17.

الفصل الأول الخطابة

مبدأ المنفعة التي يعمل لها.⁽¹⁾ وكانت كتب أرسطو في الخطابة خير دليل على ذلك، وبهذا فالنثر الفني اليوناني مدين برقيه للسفسطائيين فهم الذين أكسبوا الكلام هذه الطواعية التي تحملت أدق الأفكار، وهم الذين كسوا هذا الجمال الذي عرفته الخطابة في اليونان والرومان في الأعصر القديمة.⁽²⁾

وقد غير أرسطو مفهوم الخطابة الذي كان معروفا سابقا عند أولئك الذين اتخذوها وسيلة لتعمية الجماهير على أفعالهم، وأعمالهم الشنيعة فدافع عنها، وأخرجها من دائرة هذه الأفكار الغامضة المسيئة لها بلفت السامعين إليها واستنهاضهم وتزويدهم بوسائل الحق والعدل، وتسليحهم بالبراهين والحجج التي تؤثر في نفوس الجماهير كما أنها أكثر اقناعا وأقوى في إيراد الحجج مثل المنطق الذي به يستطيع أن يميز القياس الصحيح من القياس الفاسد، وليس هناك من كلمة بها يتميز الخطيب الشريف المقصد من الخطيب السوء النية على حين يكون المرء منطوقيا على حسب مقدرته في الجدل، وسوفسطائيا على حسب الغاية.⁽³⁾

أما ابن رشد فيعرف الخطابة "بأنها قوة تتكلف الإقناع الممكن في كل واحد من الأشياء المفردة"⁽⁴⁾.

أما عند حنا الفاخوري فهي "الإقناع واستمالة السامع ليعمل حسب ما يدعو إليه الخطيب"⁽⁵⁾

وهي عند علي بوملحم "هي القول بغية الإقناع والتأثير"⁽⁶⁾

ولا تختلف في تعريفها عند عبد الجليل عبده شلبي الذي يقول: "هي فن مخاطبة الجماهير بطريقة التقائية تشتمل على الإقناع والاستمالة".⁽⁷⁾

وهي علم يقتدر بقواعده مشافهة الجماهير بفنون القول المختلفة لإقناعهم واستمالتهم"⁽⁸⁾ ومن خلال هذه التعاريف فيمكن القول على أنها تجمع على النقاط الآتية:

- الخطابة لا تبرر إلا بوجود خطيب وخطبة وجمهور.

- هي فن قولي.

(1) أرسطو طاليس، كتابة الخطابة:ص17.

(2) المرجع نفسه:ص18.

(3) أرسطو طاليس: كتابة الخطابة، ص 95.

(4) ابن رشد: تلخيص الخطابة، تحقيق وتقديم عبد الرحمان بدوي، دار القلم، بيروت، لبنان،(دت)، ص15.

(5) حنا الفاخوري: تاريخ الأدب العربي، المكتبة البوليسية، بيروت، لبنان، ط9، 1978، ص192.

(6) علي بوملحم: في الأدب وفنونه، المطبعة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، (دت)، ص132.

(7) عبد الجليل عبده شلبي: الخطابة وإعداد الخطيب، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط1986، ص2، ص13.

(8) يوسف محمد يوسف: الخطابة، مطبعة الفجر الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 1992، ص46.

- تهدف إلى الإقناع فكريا واستمالة الجمهور وجدانيا.
- مخاطبة ومشافهة الجمهور في قضية محددة أو قضايا معينة.

2- تطور الخطابة:

تطورت الخطابة ونشطت بتطور المجتمع الإسلامي، واتصاله بالحضارات الجديدة كما رقيت بفعل التيارات الحزبية والعقائدية، والثقافية المتصارعة وارتبطت بهذا الصراع الفكري في حياة الناس حتى يخيل إلى من يقرأ في أخبار القوم أنهم أصبحوا جميعا خطباء، فهم يخطبون في نظرياتهم السياسية، ومعتقداتهم الدينية ويتناقشون فيها بكل مكان، في المسجد الجامع، وفي الطرقات والأسواق وفي السلم، وحين يتحاربون، ومن ورائهم القصاص والوعاظ.⁽¹⁾

وقد كان المجتمع العربي الجاهلي مثقلا بقضايا الحياة، وبمواقفها التي كانت وليدة الظروف التي يعيشها فكان لها الأثر الكبير في خطب الخطباء التي ترجمت هذه الآهات الصادرة من نفوسهم الجريحة، وقد كانت للعرب في جاهليتهم تقاليد في حياتهم الاجتماعية لعلها أقوى من قوانين هذا الزمان، وانفذ لشدة تعلق الفرد بالقبيلة ولحرصه على احترام شيوخها، ولغيرتهم على سمعة القبيلة يظنون بالله والناس ولغير ذلك من الأسباب غير الحق ظن الجاهلية.⁽²⁾

ولعل من أهم ما نسب إلى العصر الجاهلي من صور النثر، خطب وفود العرب عند كسرى وهي خطب طويلة غير أن بعض الباحثين يشك في نسبة هذه الخطب إلى العصر الجاهلي يقول زكي مبارك: "وأنا أرى أن هذه الخطب منخولة وضعها الرواة بعد الإسلام لأغراض سياسية، حين أرادوا أن يثبتوا فضل العرب في الجاهلية وأنهم كانوا قادرين على مقاومة الفرس بالسيف، واللسان، وأكبر الظن أنها وضعت في العصر الإسلامي، فإنها لغتها تشابه تمام المشابهة للغة التي كتبت بها مشاورة المهدي لأهل بيته في بغداد سنة 170هـ"، ثم يستدل على ذلك بقوله: "إن التشابه بين الأثرين بين واضح من حيث الألفاظ والتعابير والأسلوب وتدلنا خطب الوافدين على كسرى على تصور العرب بعد الإسلام لما كان عليه أسلافهم من المنعة وقوة الجانب، وما أحبوا أن يصفوهم به من الثورة على كسرى والتأهب لمقاومته والخروج على سلطانه،

(1) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص 67.

(2) ظافر القاسمي، الحياة الاجتماعية عند العرب، ص 25.

وهي في جملتها صورة لشمائل العرب، وعاتتهم، وأخلاقهم وطباعهم، وتفسير لما أخذ عليهم من الشذوذ في بعض الأوضاع الاجتماعية".

إن خطب الجاهلية تتم على بلاغتهم وفصاحة العرب رغم بداوتهم، فلسانهم أقدر على تركيب الكلمة، واختيار اللفظ الذي له وقعته الموسيقي في أذن السامع، والخطيب في الجاهلية هو لسانها الذي تتكلم به، وكان سادة العرب هم الخطباء، فيخطبون في قومهم فيعطون، ويذكرون، ويرهبون حسب المقام الذي استدعته فالخطيب يعظ قومه وينصحهم مستخدماً ألفاظ الترغيب والترهيب، والتي لها وقعها الخاص على السامعين فتؤثر فيهم، وتصل إلى كياناتهم ويكون دوره في الأغلب دور المقنع الساعي إلى جمع الكلمة الداعي إلى السلم، وقد اشتهرت بعض القبائل في الجاهلية بخطبائها الفصحاء فمن غطفان نجد "خويلد بن عمرو" خطيب يوم الفجار، و "العشراء بن جابر بن عقيل" ومن بني ضيبة "حنظلة بن ضرار" ومن القبائل اليمينية ثم حمير "الصباح بن شفي الحميري"، وكان أخطب العرب، ومن الأنصار "قيس بن شماس" وابنه "ثابت" خطيب النبي صلى الله عليه وسلم.⁽¹⁾

وبهذا ارتفع شأن الخطابة وسما وصار ينافس الشعر، فالشاعر كان مقدماً على الخطيب، وهو لسانها الناطق باسمها، ثم تغير الحال، وصار الخطيب هو المفضل نتيجة تأثير المستجدات التي أملت ظروف الحياة، وفي هذا يقول الجاحظ: "كان الشاعر أرفع قدراً من الخطيب، وهم إليه أحوج لود مآثرهم عليهم، وتذكيرهم بأيامهم، فلما كثر الشعراء، وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر".⁽²⁾

وظل للخطابة أهميتها البالغة وضرورتها الدائمة بعد مجيء الإسلام كما كان للبيئة العربية الأثر البالغ في شيوع الخطابة عند العرب، فالطبيعة طلاقة رحبة صريحة تميل بالناس إلى الشعور بالحرية، وبالاعتزاز بالنفس.⁽³⁾

كما كان العرب عامة مفطورين على البداهة، وسلاسة الطباع لذا كانوا مرتجلين في خطبهم دون ملاقاتهم لصعوبة فجاءت خطبهم في يسر وقلة معاناة، وقد ساعدهم على ذلك قدراتهم البيانية، وما ركب فيهم من اللسن الفصيحة، وجودة التميز بين الجيد والرديء من الألفاظ، وبعد مجيء الإسلام ازداد الاهتمام بالخطابة ذلك أن الدعوة

(1) الجاحظ: البيان والتبيين، ج1، ص350-351.

(2) المرجع نفسه: ج1 ص 241.

(3) المرجع نفسه: ج1، ص 88.

المحمدية احتاجت إلى منابر متعددة لا يصل رسالتها المتمثلة في نشر تعاليم الدين الجديد، وكانت أفضل وسيلة الخطابة التي تحمل في طياتها بذور التجاوب العقلي العميق الذي تعتمده الدعوة الإسلامية.

وبهذا أخذت على كاهلها حملا ثقيلًا، وكانت غايتها في الأغلب الاقناع بالمنطق في السامعين، والتأثير في عواطفهم، ونتج عنه انقلاب جذري في حياة العرب. يقول شوقي ضيف: "إذ كان مجيء الإسلام، إذن أبرز الأحداث التي كان لها أثرها في تطور فن الخطابة"⁽¹⁾ وقد تميزت الخطب في صدر الإسلام بطابعها الخاص الذي يميزها عن خطب الجاهلية، فاستبغت بالصبغة الإسلامية، وازدانت، وتمتقت بألفاظ عربية فصيحة مستمدة من القرآن الكريم لها وقعها الخاص على أذن السامعين فما إن يسمعها الحاضر حتى يحس بحلاوة الايمان، وينجذب لها لشدة وقعها في نفسه ومن أشهر خطباء هذا العصر، خير البشر محمد بن عبد الله، وابن عمه علي بن أبي طالب وغيرهم، وأهم ما يميز هذه الخطب هو أنها تستفتح بالبسملة والحمد لله والاستعانة به، والاستغفار وهذا جديد في خطب العرب، لأن الخطب في الجاهلية كانت تبدأ بغير هذا "كبسمك اللهم"، وقد سمي خطباء السلف، وأهل البيان، الخطبة التي لم تبدأ بالتحميد وتستفتح بالتمجيد "البتراء"، والتي لم توشح بالقرآن، وتزين بالصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم "الشوهاء"⁽²⁾.

وقد سار الخلفاء الراشدون من بعده على نهجه، وعلى وعظه وارشاده وبهذا اكتسب الخطب في العهد الإسلامي حلة جديدة ميزتها عن خطب الجاهلية، وأصبحت الوسيلة المثلى التي تمسك واقتدى بها الدعاة للاتصال بالجمهور والتأثير فيهم. وفي العصر الأموي ظلت الخطابة مزدهرة لكثرة دواعيها دينيا، وسياسيا واجتماعيا، كما كان لظهور الطوائف والأحزاب الإسلامية، التي اعتمدت بدورها على استخدام بعض القصص الذي يعتبر لونا جديدا من الخطابة وبالتالي ظهور هذه الأحزاب على مسرح الحياة السياسية أدى إلى بروز حركة أدبية متطورة اتسمت بالنجاح وبعثت نهضة خطابية رائعة شاملة، وكان من وراء ذلك أن أخذت الخطابة عامة طابعا جديدا أغلب فيه عنصر السياسة، وهو اتجاه طبيعي جرت عليه الخطابة وقد شارك الزهاد،

(1) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه، ص 52.

(2) الجاحظ: البيان والتبيين، ج2، ص31-32.

والنساك فيها، وكان الخلفاء، والأمراء يخشون الخطباء خشيتهم للشعراء لما في أقوالهم من التأثير في نفوس العرب الحساسة⁽¹⁾، وكان خطباء هذا العصر يتفاوتون في البلاغة، وقوة الدعاية، وأشهر خطباء هذا العصر زياد بن أبيه، الحجاج بن يوسف الثقفي.

وكانت موضوعات خطبهم تدور حول النصح والإرشاد، والتهديد والوعيد أحياناً، كلها حماسة وتأثير في النفوس، وكانت ألفاظها مختارة ومنتقاة لخدمة الموضوع، كما استعانوا ببعض الآيات القرآنية لتأكيد الحجة، وإرهاب الناس بما ينتظرهم يوم العقاب، ولكن سرعان ما أخذت روح الخطابة القوية تضعف فيهم نتيجة الفراغ من الفتوحات الإسلامية واستسلامهم للراحة والترف، وما إن جاء العصر العباسي حتى بدأت في التخاذل، وانصرف الناس عنها إلى الفنون المكتوبة كتدوين الكتب، وترجمتها خاصة بعد ذلك الامتزاج الحضاري الذي حدث معها ومع الشعوب الأخرى كالفرس واليونان والهند، فكان اهتمام الخلفاء وكتابهم منصبا على نقل هذه العلوم، والمعارف خاصة في عهد هارون الرشيد الذي أسس دار الحكمة التي تعتبر مجمعا علميا يضم مختلف الكتب الأدبية والعلمية، وقد كان واقع الحياة السياسية والاجتماعية هو الدافع على نشاط الخطابة السياسية التي اتخذتها الثورة العباسية كأداة في بيان حق العباسيين في الحكم.⁽²⁾ ونتيجة لتلك الثورات السياسية التي حدثت في بغداد من أجل الحكم، كما ضعفت الخطابة الحفلية التي تلقى في المناسبات ولكن الخطابة الدينية نشطت بشكل كبير خاصة في المساجد، التي كانت تقام بها حلقات علمية للوعظ والإرشاد، فكان الناس يلتفون حول هذه الحلقات، لأخذ العلم والمعرفة والتزود بمختلف العلوم والآداب، وما يميز خطبهم هو اقتباسهم من القصص القرآني والحديث النبوي الشريف، وقصص الأنبياء والمرسلين، وقصص الأمم السابقة وذلك لأخذ العبرة، والاعتاظ، وقد ساعد على نشاط هذا النوع من الخطابة، هو اختلال أحوال المجتمع العباسي، وانتشار المناكر فيه، وإهمال مصالح الرعايا، خاصة الخلفاء منهم حيث اهتموا بمصالحهم الخاصة فكانت مجالسهم لا تخلوا من السمر والأنس، فلا يكاد بلاطهم يخلو من شاعر، وبهذا أهملوا مصالح رعاياهم، وفسدت أحوال المجتمعات فعمد الوعاظ إلى الخطابة

(1) عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص 438-439.

(2) شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، دار المعارف، مصر، القاهرة، ط 1981، ص 3، 448.

الدينية التي كلها نضج وارشاد، وكلها حماسة فقربتهم من الناس، حتى وصلت إلى أعماق تفكيرهم فسيطرت على وجدانهم، وتمكنت من غرس روح الجهاد في نفوسهم، كما اتسمت بالأسلوب السهل الواضح القريب إلى القارئ للتأثير فيه، وألفاظه سهلة واضحة لا غموض فيها، وقد يكثر السجع في بعضها وينقص في البعض الآخر، وهذا راجع إلى قوة الإبداع لدى الخطيب.

3- أنواع الخطابة:

لقد كان أرسطو Aristote أول من قسم الخطابة إلى ثلاثة أقسام حسب اعتقاده وهي الاستشارية Délibératif، والقضائية Judiciare، والاستدلالية épideictique ويعتمد في تقسيمه هذا على عناصر ثلاثة هي (الخطيب، السامع، الموضوع).⁽¹⁾ وموضوعاتها مختلفة باختلاف أنواعها فموضوع الاستدلالية هو المدح أو الذم، وموضوع القضائية الاتهام والدفاع، وموضوع الاستشارية النصح بفعل الشيء أو عدم فعله.

كما أن غاياتها متمية كذلك، فالاستدلالية غاياتها بيان الجميل أو القبيح من الأفعال والقضائية تميز المشروع من غير المشروع، كما تهدف الاستشارية شرح النافع L'utile والضرار، وتشترك أنواع الخطابة الثلاثة في بعض مواطن الحجج، إذ تتناول هه الحجج الممكن والمستحيل، والعظيم والحقير، فيما لها من قيمة مطلقة أو نسبية عالمية أو فردية.⁽²⁾

ولكننا نعتمد في تقسيمنا للخطابة على ما عهدناه من الأنواع الخطابية المألوفة في عصرنا.

3-1- الخطابة السياسية: تتناول الخطب السياسية موضوعات تتعلق بتنظيم الجماعة وإقامة الحكم فيها وتصدر عادة من الخلفاء والأمراء وأصحاب الرأي في البلاد كما تصدر عن القادة في الجيوش، وكانت الحروب والخلافات الداخلية بين الأحزاب الدافع الأول والأكبر لرقبها ونشاطها فهي مزيج من الاحساسات المتدفقة والمشاعر الفياضة التي تتجاوب مع الشعور العام والحس المشترك، وهذه المعاني من شأنها أن تجعلها

(1) أرسطو طاليس: كتاب الخطابة، ص32.

(2) محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص 98.

في الذروة العليا، فكيف إذا كانت بواعثها وميادينها واسعة، وفرسانها يجيدون الكر والفر، وحياسة الألفاظ ونسج الكلمات

2-3- الخطابة الدينية: اتخذت من المساجد والكنائس للتأثير على السامعين، وحثهم على ترك متاع الدنيا بإغرائهم بالفضيلة، وكانت تكثر أيام الجمعة والأعياد أو في مجالس الوعظ والارشاد، أو في حلقات العلم، وقد كانت إلى زمن قريب قائمة على الدواوين المكتوبة بلغة الركيكة، وأسلوب متهافت وسجع مجتلب، ذات موضوعات معادة مرددة، يلاحظ فيها مناسبات الشهور، والأسابيع والأيام، والفصول، والمواسم، والأعياد أو تحس بكلام مكتوب في الخمر والزنا، وقتل النفس والربا وغيرها من الموبقات المحرمة والكبائر المنهي عنها.⁽¹⁾

وكانت ألفاظها مستمدة من القرآن الكريم، والحديث الشريف وأقوال الصحابة ومن سبقهم من السلف الصالح لتثبيت الحجة، وإقرارها فتدمع العين لسماعتها، وتهلع النفوس، وتقشعر الأبدان لهول ما نطقت به أفواه الخطباء.

3-3- الخطابة القضائية: وهي تلقى في دور المحاكم، وقد ازدهرت كسائر أنواع الخطب في اليونان حيث كان الخطباء يدافعون عن مالهم، وشرفهم، وأرزاقهم أمام القضاء، وكان القضاء اليوناني لا يسمح للمتقاضين باعتماد موكل عنهم أمام المحاكم بل يلزمهم بالدفاع عن أنفسهم، وهي أيضا خطابة المحامي أو وكيل النيابة كما يسمى في العرف، وهي أجدر أنواع البيان بالاقناع، والافصاح لأنها - دائما أبدا - بسبب احقاق حق وابطال باطل، وقد ارتبطت بإنشاء المحاكم الأهلية والشرعية، والتنظيم والتقاضي واتخاذ المحاماة عن الخصم مهنة للناس يتكسبون بها ويرتزقون منها⁽²⁾، وبهذا كان للخطابة القضائية شأن عظيم لأن المتقاضين لا يحرصون على حذق الخطبة كما يحرص عليها المحامون والرسميون، ومهما يكن فإنها قد أصبحت في عصرنا شائعة وتعتمد على النصوص القانونية المعمول عليها، والبراهين الصحيحة التي تجري وفق الأصول الثقافية.

4-3- الخطابة العلمية: وهي الخطابة التي لا تعتمد إلا على الحقائق المجردة من الخيال والمبالغة، وقد نجدها مكتوبة أو نجدها تصدر عن أصحابها مرتجلة، تعالج

(1) إبراهيم علي أبو خشب: الأدب والبلاغة، مطبعة المعرفة، مصر القاهرة، ط 1959، ص 118.

(2) المرجع نفسه، ص 120.

مواضيع علمية حديثة، وهي حديثة النشأة، وقد نضجت أساليبها وتهذبت عباراتها وألفاظها كما برع الناس فيها حسب ما اقتضته ظروفهم المعاشية، وقد زاحمت الفنون الأخرى التي صارت في مستوى لا يقل عن غيرها من الأنواع التي تحتل في النفوس مكانة مرموقة، والخطابة ضرورية لكل أمة في سلمها وفي حربها فهي أداة الدعوة إلى الرأي، والتوجيه إلى الخير ووسيلة الدعاة بين الأنبياء والمرشدين والزعماء فهي ضرورة من ضروريات الحياة الاجتماعية والدينية والسياسية، وإنما تقوى الخطابة ويرتفع صوتها في زمن الحرية، وفي ظلها، حيث تستطيع الأمة أن تتنفس بآمالها، مشاعرها، وتتطلق من قيود الذل والظلم إلى حيث تتطلق أفواها بما تجيش به الخواطر، وتضطرم به النفوس، وتتجه إليه الآمال ففي ظلام الحرية تتقارع الآراء وتتصارع الأفكار، وتتنازع المبادئ، وتتنافس المذاهب، وتتعدد الخصومات، وفي ذلك كله غداة للخطابة، ومداد لها، وداع إليها، وبها رسالة نبيلة، ومهمة عظمى، وبخاصة في البيئات التي تهتز للقول، وتطرب للبيان، وتستجيب للمنطق وتتأثر بسحر البلاغة، ولهذا كانت وظيفة القادة، ومنطق الخاصة، وحديث الخلفاء والأمراء يفزعون إليها في الشدائد ويلتجئون إليها في الاقناع ويلبسون ردائها حينما يريدون أن يرتفعوا إلى مستوى لا يصل إليه خيال الشعراء ولا أوهام الفلاسفة، وبهذا ظل للخطابة منذ عرفتها الخليقة تاريخها الناصح وجبينها اللامع ومنطقها المتزن، وساحتها النظيفة حتى عند الأمم الأخرى غير المسلمة. ويقول أصحاب كتاب المفصل: "واعلم أن ملكة الخطابة إنما تقوى وتشتد، وتشيع بين الناس في أثناء الرجات الاجتماعية والسياسية بوجه خاص، لأنها هي تبعث قادة الفكر لمعالجة الأحداث على استشارة الجماعات وتوجيهها إلى ما يبغون منها في الشأن العام..."⁽¹⁾

وتنشط الخطابة وتزدهر برقي أصحابها وأهلها والمحيط الذي برزت فيه.

4- عناصر الخطابة:

للخطابة عناصر تعتمد عليها وتتمثل هذه العناصر في:

4-1- الخطيب: وهو الذي يقوم بإلقاء الخطبة وقد يكون من الرجال العاديين، أو الأشخاص ذي المراتب العليا والمكانة المرموقة، وقد تفرض مهمته عليه أن يكون في نزاهة القاضي، وأمانة المؤتمن، ولا يستخدم العضلات المفتولة وإنما يكتفي بخلقه

(1) إبراهيم علي أبو خشب: تاريخ الأدب في العصر الحاضر، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، 1978، ص 152.

ونصاعة تاريخه، واستقامة أدبه، ومتانة عقله، وطهارة نفسه، وورع قلبه، كما يجب "أن يكون جهير الصوت صافيه حسن الالقاء، مناسب الهيئة، حسن الوقوف، متزن الحركات، خبير بنفسية السامعين قادرا على الاندماج فيهم وعلى فهم ما يطرأ عليهم أثناء الخطابة من فنون فيعالجه ومن غضب فيتلافاه، ويحسن انتهاز الفرص واختيار الأوقات والانتفاع بكل ما يريده جادا مرة ومازحا مرة أخرى حتى يظفر بما يريد ويمكن بيان ذلك في خطب من العصر الحديث"⁽¹⁾ ويجب عليه أن يستخدم في خطبه ألفاظا وعبارات تتم عن حقائق صادقة "فإذا شوه الخطباء الحقيقة في حديثهم في أمر من الأمور أو في نصحهم به"⁽²⁾ كما يجب أن يجتنب الإطالة أو الإيجاز مراعاة للضجر والملل حتى لا يتسرب إلى نفوس الجماهير، ونستدل على هذا بقول محمد غنيمي هلال "ومراعاة المقام مدار الإيجاز والتطويل، إذ الإطالة -حين يكفي الإيجاز- مدعاة للضجر والسامة، على حين الإيجاز في موضع الإطالة تقصير ولا يصح أن يستعمل الخطيب ألفاظ الخاصة في مخاطبة العامة، ولا كلام الملوك مع السوقة"⁽³⁾.

كما يجب عليه أن يعرف مواضع الإطالة والتقصير في الكلام مع اختيار العبارات التي تخدم الموضوع فيجعله صورة مقربة منه لما يصوره من حالات مجتمعة استنادا إلى قول قدامة بن جعفر في هذا الصدد "وأن يكون الخطيب أو المترسل عارفا بمواقع القول وأوقاته واحتمال المخاطبين له، فلا يستعمل الإيجاز في موضع الإطالة فيقصر عن بلوغ الإرادة، وألا يستعمل الإطالة في موضع الإيجاز فيتناول مقدار الحاجة، إلى الإضجار والملالة..."⁽⁴⁾

والخطيب كالممثل البارع الذي يتسرب إلى نفوس المتفرجين من الجماهير فيعرف رغباتها ونوازعها ثم يظهر بالمظهر اللائق والصوت المناسب، والحركة التي تصادف الارتياح، أو السكون الذي تدعو إليه الحال، والارتجال في الخطابة من العناصر المهمة لأنه يأخذ بألباب السامعين ويحوز اعجابهم ويلمس منهم مواطن الرضا والارتياح.

(1) أحمد الشايب: الأسلوب دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب البلاغية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، مصر، 1966، ص 118-119.

(2) محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص 100-101.

(3) المرجع نفسه، ص 205.

(4) قدامة بن جعفر: نقد النثر، ص 96.

2-4- الجمهور: وهم المقياس السديد لمستوى اللغة ودرجتها وعادة ما يكونون من العامة، ونادرا ما يكونون من الخاصة إذا كان الأسلوب ساميا والعبارات في مستوى فهمهم، وآهاتهم وآلامهم هي محور الخطابة وفي هذا يقول أرسطو، "العواطف مصحوبة بالألم أو اللذة، ويحمل تغييرها على تغيير الناس في أحكامهم، كالغضب والرحمة والخوف، وكل الانفعالات من هذا النوع، وكذلك ما يضادها من انفعالات".⁽¹⁾ وبهذا فالجمهور هم الذين يحكمون على هذه الخطب فيحلون مكان القاضي في المحكمة الذي يصدر الأحكام وبهذا يميزون بين جيدها وسيئها اعتمادا على ما تسمعه آذانهم وتجيش بهم عواطفهم، فإذا كانت الخطبة ذات نسيج متماسك وصبغ للمواضيع لقيت اعجابا لديهم، وإن خالفت هذا لقيت رفضا من السامعين.

3-4- الموضوع: والموضوع هو وليد البيئة لأنها هي التي تفرض نفسها عليه كيف لا وهي التي تحرك فيه الحماس لاستنهاض الهمم وفي هذا يقول أبو جعفر النحاس: "إن الخطب من مستودعات سر البلاغة، ومجامع الحكم، بها تفاخرت العرب في مشاهدتهم وبها نطقت الخلفاء والأمراء على منابرهم، بها يتميز الكلام، وبها يخاطب الخاص والعام، وعلى منوال الخطابة نسجت الكتابة، وعلى طريق الخطباء مشيت الكتاب".⁽²⁾

وهي نسيج متناسق من الحجج والبراهين التي تخدم الموضوع والتي تثري مضمونه، فيتفنن الخطيب في استخدام هذه الحقائق مستشهدا بما جادت به قريحة العرب من قصص أو حوادث وقعت، أو سبكه بألفاظ القرآن الكريم والحديث الشريف.

5- خطباء الموحدين وأشهر خطبهم:

تحتاج الأمم إلى الخطابة حاجة ملحة، وتضطرها الظروف السياسية والاجتماعية إلى الاعتماد عليها، ولا سيما إن كانت ترجو منها أن يطمئن الناس إلى دعوتها، ويؤمنوا بجدارة خطيبها وكلما زاد الإنسان حاجة إليها، وازدادت الرغبة فيها، والاقبال عليها، كان رقيها وازدهارها والخطابة في البلاد المغربية لا تختلف عن واقعها في بلاد المشرق، حتى وإن لهذه البلاد طابعها البربري الذي غلبت عليه البداوة، واللغة الأمازيغية، فبعد الفتح الإسلامي وجد المغربي نفسه أمام لغة غير لغته الأصلية،

(1) محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، ص 101.

(2) الفلقتندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج1، ص 210.

واستدعته الظروف إلى اعتناق الدين الإسلامي، والعمل بما جاء فيه، فانكب على تعلم اللغة العربية، وقواعدها، فأصبح فصيح اللسان، إذ تعلم لغة جديدة إلى جانب لغته الأصلية، وتوالت الحضارات على البلاد المغربية، ودبت الحمية في صدور أهلها لارتشاف مناهل العلم، والمعرفة، وامتاز الأدب بحلاوته وبساطته، وأول ما يلقانا من فن الخطابة في بلاد المغرب خطبة طارق بن زياد الذي خطب خطبة لا يجاريه فيها أحد لوقعها في نفوس جيشه، لشدة فصاحتها، وقوة تركيبها وسبكها الجيد والمتين، وتوالت على بلاد المغرب حضارات وإمارات ساهمت في رقي الحياة الاجتماعية، وازدهار الحركة العلمية والأدبية، وقد نافست كل دولة الأخرى في التربع على عرش العلم والمعرفة، كدولة الموحدين التي أكرمت الأدباء والعلماء، وأثنت لهم العطاء، وقربتهم من بلاطهم، وقد كان ملوكهم على قدر كبير من العلم والمعرفة حيث كان المهدي عالما فقهيا روايا للحديث عارفا بالأصول والجدل، فصيح اللسان⁽¹⁾ وكان له شعر فمن ذلك قوله:

خَذتَ بِأَعْضَادِهِمْ إِذْ نَأَوْا
فَكَمْ أَنْتَ تَتَهَى وَلَا تَنْتَهَى
فِيَا حَجَرَ السِّنِّ حَتَّى مَتَى
وَخَلَّفَكَ الْقَوْمُ إِذْ وَدَعُوا
تُسْمَعُ وَعَظًا وَلَا تَسْمَعُ
تَسِنَّ الْحَدِيدَ وَلَا تَقْطَعُ⁽²⁾

وكان كثيرا ما ينشد:

تَجَرَّدَ مِنَ الدُّنْيَا فَإِنَّكَ إِنَّمَا
خَرَجْتَ إِلَى الدُّنْيَا وَأَنْتَ مُجَرَّدٌ⁽¹⁾

يظهر على إمام الموحدين محمد بن تومرت المهدي نزعة الزهدية في الحياة، وقد اصطبغت أشعاره بها، حيث انعكست صورة حياته اليومية على نتاجه الأدبي فقد كان زاهد تقيا، وكان قوته من غزل أخته، في كل يوم رغيفا بقليل من السمن أو الزيت، ولم ينتقل حاله إلى غير هذا عندما أصبح إماما لدولة الموحدين وزعيمهم ومما يروى عنه، أنه أمر أصحابه بإحراق ما غنموه في حربهم مع المرابطين، عندما رأهم، وقد

(1) أحمد بن خالد الناصري: كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق وتعليق الاستاذ أحمد الناصري، أشرف على النشر محمد حجي وإبراهيم بوطالب وأحمد التوفيق، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، 2001، ج3، ص29.

(2) المرجع نفسه: ج3، ص29.

(3) المرجع نفسه: ج3، ص29.

مالت نفوسهم إلى كثرة ما غنموه وقال: "من كان يبتغي للدنيا فليس له عندي إلا ما رأى! ومن تبغني للأخرة فجزاؤه عند الله".⁽¹⁾

وقد امتاز الأدب في عهد الموحدين ببساطته، وخلوه من الزخرف، والصنعة ومن الشوائب الشائعة في الأدب العربي، كما اصطبغ بالصبغة الدينية التي نشأت عليها الدولة الموحدية، ومع الازدهار الثقافي الذي عرفته نشطت فنونه الأدبية نشاطا كبيرا، ولعل أهمها الخطابة التي كانت دواعيها متعددة بالمغرب نتيجة الخصومات القومية، والصراع السياسي، وطبيعي أن تكثر الخطب، والمواعظ في المغرب الأقصى كثرتها في بلدان العالم الإسلامي جميعا، "إذ كانت تكرر في كل مسجد أسبوعيا في صلاة الجمعة وبالمثل في صلاة العيدين، وربما كانت كثرة تكرارها هي السبب في أنه لم يتجرأ أحد من القدماء لتدوينها تدوينا عاما، ومع ذلك فقد اثرت بعض الخطب التي قالها بعض الحكماء أو بعض كبار الوعاظ".

وسنورد نماذج هذه الخطب التي برزت في هذا العصر، وبالحدِيث عنها يبرز لنا خطيبها ذو الفصاحتين، ومؤسس دعوتها المهدي بن تومرت الذي استعمل اللغة البربرية في خطبه ووعظه إلى جانب اللغة العربية فكان أفصح أهل زمانه في ذلك اللسان.⁽²⁾

1-5- خطب المهدي بن تومرت:⁽³⁾

كانت الخطابة أول أداة استعملها الموحدون في نشر دعوتهم القائمة على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لما لها من أثر كبير على الناس خاصة في استنهاض الهمم وحث النفوس على القتال للقضاء على دولة المرابطين، واستفرادهم بالحكم، فتتوَعَت خطبهم من سياسية ودينية واجتماعية غير أن الخطب السياسية هي التي طغت على الواقع المعاش، بحكم أنهم كانوا في صراع طويل وممير مع أعدائهم المرابطين، وقد كان لزعيمهم الروحي الذي كان اليد المحركة لدعوتهم الأثر الكبير والدافع القوي على نشاطها،⁽⁴⁾ ولقد أوضح ليفي بروفنسال (Lévi provençal) أن

(1) أحمد بن خالد الناصري: كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج3، ص 29.

(2) شوقي صيف: عصر الدول والإمارات، ص 485.

(3) انظر: ترجمته في هذا البحث: ص 11.

(4) قبيلة من قبائل البربر بالمغرب الأقصى ومن بطونهم برغواطة، غمارة، أهل جبل درن وهو تعريب للاسم البربري أدرارن، جمع أدرارن ومعناه الجبل وكانوا من أوفر القبائل وكان لهم عدد وقوة وطاعة للدين ومخالفة لإخوانهم برغواطة في نحلة كفرهم، وكان منهم قبيل الإسلام ملوك وأمراء، ولهم مع المتونة ملوك المغرب حروب وفتن سائر أيامهم حتى كان اجتماعهم على المهدي وقيامهم بدعوتهم، فكانت لهم دولة عظيمة أنظر: أحمد بن خالد الناصري: كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج3، ص 11، عبد الرحمن ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ج6، ص 245-246.

نجاح ابن تومرت بين المصامدة كان راجعا إلى فصاحته فقال: "إننا لا نجد كثيرا من الخطباء المغاربة ممن يفوق ابن تومرت في مجال الفصاحة، وحتى ألد أعدائه، الذين كانوا يصفونه بالحمق، فإنهم كانوا يضيفون أنه كان يجيد اللغة العربية بشكل خارق للعادة... لقد كان بليغا، وكان كلامه مهذبا، بعيد المدى، لا يتكون من جمل متفنتة التركيب فحسب، بل يحمل أيضا في طياته إلى المستمعين المعجبين ما يقتضيه الحال من اقناع، وتهديد ووعيد بعقاب جهنم ووعد بنعيم الجنة"⁽¹⁾، وتعود أول خطبة خطبها ابن تومرت في شيوخ المصامدة في بداية دعوته الموحدية لغرس الثقة في نفوسهم، وتحسيسهم بأنهم على حق، وقد قيل أنها قيلت باللهجة البربرية لأن أهله من المصامدة لا يحسنون إلا لهجتهم المحلية، ولا يفهمون اللغة العربية، ولذا خاطب ابن تومرت سكان جبال السوس الأقصى بلغتهم⁽²⁾، وقد أورد المراكشي بعض ما قيل في هذه الخطبة، ونصها "ما على وجه الأرض من يؤمن إيمانكم وأنتم العصابة المعنيون بقوله عليه الصلاة والسلام: "لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله"⁽³⁾، وأنتم الذين يفتح الله بكم فارس والروم ويقتل الدجال، ومنكم الأمير الذي يصلي بعيسى ابن مريم، ولا يزال الأمر فيكم إلى قيام الساعة"⁽⁴⁾، وبعد هذه الخطبة قام أهله بمبايعته أميرا عليهم، وكان ذلك سنة (515هـ، 1121م)⁽⁵⁾، وهذه الخطبة تتم على فصاحة ابن تومرت، وتمسكه بالدين الإسلامي حيث أنه غرس الثقة في صفوف أتباعه الذين رفعه إلى نراتب عليا، ووصفهم بأنهم أفضل من على وجه الأرض مستدلا على ذلك بحديث رسول الله صلى الله عليه وسلم، ورغم قصرها إلا أنها خدمت الموضوع المعالج، كما أنها تزوج بين العاطفة الدينية وتعتمد على إذكائها، فتشحن السامعين عقديا، وبين السلطة والحكم، وترغب الحماسة فيها، وبهذا أشحن نفوسهم، فما إن يتحول الحكم إليهم حتى يدين لهم الناس بالولاء، والطاعة، وأنهم أهل الخير والصلاح الذين سيصلحون ما أفسده غيرهم، فاجتمع عليه

(1) رشيد بورويبة: ابن تومرت، ترجمة عبد الحميد حاجيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1982، ص 122.

(2) المرجع نفسه، ص 123.

(3) أبي الحسن مسلم بن الحجاج ابن مسلم القشيري النيسبوري: الجامع الصحيح دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، (د ت) م 1

ج، 1، ص 95.

(4) عبد الواحد بن علي المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 133.

(5) أحمد بن خالد الناصري: كتاب الاستقصا لأخبار دول الأقصى، ج 3، ص 21.

شيوخ المصامدة، وأهلها، والتفوا حوله، وتمكنوا من القضاء على دولة المرابطين، وقد عكست صورة ذلك الإنسان البربري المتمدن، وأخرجته من دائرة التخلف، وإلى جانب هذه الخطبة السياسية، نجد نوعاً آخر من الخطب، كخطب الاستخلاف التي يخطبها ولي الأمر في أهله عندما يحس أنه ملاق ربه، وعادة ما تكون في التوصية بالحكم لفلان، كولي عهده من بنيهِ، أو واحد من أصحابه الذي يراه قادراً على حمل هذا الأمر الكبير، كخطبته المشهورة في تولية خليفته عبد المؤمن بن علي الذي تزعم إمرة الموحدين بعد وفاة زعيمهم، وقد خطبها ابن تومرت عندما أحس بموته، ومما يرويه بعض المؤرخين أنه أمر الموحدين أن يجتمعوا فحضروا كلهم، ثم وعظ الناس حتى أضحى النهار ثم دخل ببغلتته الدار راكباً، وبقي ساعة، ثم خرج يرفع الكرزية عن رأسه، ثم قال: اعرفوني وحققوني. أنا مسافر عنكم سفراً بعيداً، فضج الناس بالبكاء وقالوا له: "إن كنت تسير إلى الشرق نسير معك"، فقال: "ليس هذا سفر يسافر معه أحد: إنما هو لي وحدي، ثم دخل ولم يره أحد أبداً"⁽¹⁾ وممن حضر معه في غيبته خمسة أناس وهم الخليفة، وأبو إبراهيم عمر أصناك، وسنار، وأخته زينب⁽²⁾ وبعد أن حضر الموحدون بين يديه، قام وكان متكئاً - فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على محمد نبيه صلى الله عليه وسلم، ثم أنشأ يترضى عن الخلفاء الراشدين - رضوان الله عليهم - ويذكر ما كانوا عليه من الثبات في دينهم والعزيمة في أمرهم، وأن أحدهم كان لا تأخذه في الله لومة لائم، وذكر من حد عمر رضي الله عنه ابنه في الخمر، وتصميمه على الحق، في أشباه لهذه الفصول، ثم قال: "...فانقرضت هذه العصابة"⁽³⁾ - نضر الله وجوهها، وشكر لها سعيها، وجزاها خيراً عن أمة نبيها - وخبطت الناس فتنة تركت الحليم حيران، والعالم متجاهلاً مدهاناً؛ فلم ينتفع العلماء بعلمهم، بل قصدوا به الملوك، واجتلبوا به الدنيا، وأمالوا وجوه الناس إليهم... ثم إن الله - سبحانه وله الحمد - منّ عليكم أيتها الطائفة⁽⁴⁾ بتأييده، وخصمكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحده،⁽⁵⁾ وقبض لكم من ألكام⁽⁶⁾ ضاللاً لا تهتدون، وعمياً لا

(1) أحمد بن خالد الناصري، كتاب الاستقصا لأخبار دول القصى، ج3، ص33.

(2) المرجع نفسه: ج3، ص33.

(3) المقصود بها: دولة المرابطين وأهلها وهم المرابطين أو الملمثين، التي أسسها يوسف بن تاشفين سنة (448هـ).

(4) أصحابه وأهل دعوته من الموحدين.

(5) عوضكم، واختار لكم بديلاً.

(6) من الألفة.

تبصرون لا تعرفون معروفا، ولا تتكرون منكرا، قد فشت⁽¹⁾ فيكم البدع، واستهوكم الأباطيل، وزين لكم الشيطان أزاليل، وترهات، أنزه لسانه عن النطق بها،⁽²⁾ وأربأ بلفظي عن ذكرها؛ فهذاكم به الله بعد الضلالة، وبصركم بعد العمي، وجمعكم بعد الفرقة، وأعزكم بعد الذلة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين،⁽³⁾ وسيورثكم أرضهم، وديارهم، ذلك بما كسبته أيديهم وأضمرت قلوبهم؛ ﴿وَمَا رَبُّكَ بِضَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾؛⁽⁴⁾ فجددوا الله سبحانه -خالص نياتكم، وأروه من الشكر قولاً وفعلاً ما يزكي به سعيكم، ويتقبل أعمالكم، وينشر أمركم؛ واحذروا الفرقة، واختلاف الكلمة، وشتات الآراء، وكونوا يدا واحدة على عدوكم، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس، واسرعوا إلى طاعتكم، وكثر أتباعكم، وأظهر الله الحق على أيديكم، وإلا تفعلوا شملكم الذل، وعمكم الصغار، واحتقركم العامة، فخطفتكم الخاصة؛ وعليكم في جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة،⁽⁵⁾ واللين بالعنف؛ واعلموا مع هذا أنه لا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا على الذي صلح عليه أمر أولها، وقد اخترنا لكم رجلاً منكم، وجعلناه أميراً عليكم؛ بعد أن بلوناه في جميع أحواله، من ليله ونهاره، ومدخله ومخرجه، واختبرنا سريرته، وعلايته، فرأيناه في ذلك كله ثباتاً في دينه متبصراً في أمره، وإنني لأرجو ألا يخلف الظن فيه، وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن فاسمعوا له، وأطيعوا ما دام سامعاً مطيعاً لربه، فإن بدل أو نكص على عقبه أو ارتاب في أمره ففي الموحدين - أعزهم الله - بركة، وخير كثير، والأمر أمر الله يقلده من يشاء من عباده"⁽⁶⁾.

عمد ابن تومرت في خطبته هذه إلى الأسلوب العربي المعهود في الخطابة، وإلى المنهج المتبع من طرف الخطيب، كما أنها تتم على فصاحة صاحبها الذي أحسن نسج عباراتها واستخدامها في مكانها، وهذه العبارات العربية الفصيحة خدمت الموضوع المعالج وهذا لم يمنع من وجود ألفاظ غريبة، ولم يعهد لها الناس وليست متداولة في قاموسهم اليومي مثل (أفاكم، أزاليل، المارقين، يخلف)، وهذه الخطبة، رغم طولها إلا أنها منعت الملل من التسرب إلى أعماق السامعين، فهي مخاطبة لذلك الوجدان النفسي، والعقل معاً، مما يدل على نضج القضية، واختمار الموضوع في نفوس صحابته، وقد

(1) انتشرت حتى سادت.

(2) من الترفع عن هذا الأمر، ورفضه وعدم الرضى به.

(3) أعدائهم المرابطين الذين كان يسميهم بالمجسمين.

(4) فصلت: 46.

(5) الخشونة والقسوة والمعاملة السيئة.

(6) اختبرناه.

بدأها بحمد الله والثناء على رسوله، وصحابته، ثم أتت على جماعته المقربين، وعظم شأنهم، وأوصاهم بعدم الفرقة، والتمسك بالدين الإسلامي وعدم معارضته على من اختاره ليكون خليفة بعده لإمرة الموحدين، والقائم على أمورهم، وتحمل أعباء هذه الأمة التي بدأت بالظهور على المسرح السياسي الذي يلعب فيه أعدائهم الرابطون دور الكهل الذي صار عاجزا على تحمل مسؤولية العدوتين (المغرب، الأندلس)، كما اتبع فيها أسلوب الترغيب والترهيب، الذي يجسده أسلوب الأمر الذي تعددت أغراضه من وعظ، ونصح، وإرشاد، ومن أمثلة ذلك قوله: (لا تهتدون، لا تبصرون، لا تعرفون، لا تتكرون) هذه الأساليب كلها وعظ وإرشاد، أيضا (فجددوا الله سبحانه...، احذروا الفرقة، واعلموا مع هذا...، فاسمعوا، أطيعوا...) والغرض منها هو النصح والإرشاد، كما أن النص زين ببعض الفواصل السجعية مثل الطباق في قوله: (معروفا # منكرا)، (الرافة # الغلظة)، (اللين # العنف)، (ليله # نهاره)، (مدخله # مخرجه)، (سريرته # علانيته).

السجع في قوله: (من عليكم أيها الطائفة)، (خصم من بين أهل هذا العصر)، (ألفاكم ضلالا لا تهتدون)، (عميا لا تبصرون)، (لا تعرفون معروفا)، (ولا تتكرون منكرا)، (استهوتكم الأباطيل)، (زين لكم الشيطان الأضائل)، (تراهات أنزه لساني عن النطق بها)، (أربأ بلفظي عن ذكرها)، (فهداكم الله بعد الضلالة)، (بصركم بعد العمى)، (جمعكم بعد الفرقة)، (أعزكم بعد الذل)، و المقابلة في قوله: (لا تعرفون معروفا = ولا تتكرون منكرا)

وقد زادت هذه المحسنات رونقا وجمالا على الخطبة، وما نلاحظه على ابن تومرت هو استعماله للجمل القصيرة، غير أن هذا لا يخل بالوحدة الموضوعية، لأن أفكارها مرتبة ترتيبا تسلسليا، ومنطقيا، وعباراتها واضحة لا غموض فيها، وهي تجسيد لصورة الخطيب فيها، فهي تعبير عن حرارة العاطفة وصدق العزم، وحسن النية في كل عبارة فيها، والتفاف صحابته حوله ما هو إلا دليل على مكانته المرموقة، ومنزلته الرفيعة بين أهله، فهو صاحب أمر إذ قيل نفذ، وصاحب عقل رجيح، وفكر عالي يسمو إلى أبعد حد فما إن انتهى ابن تومرت من خطبته حتى قام القوم وبايعوا عبد المؤمن بن علي على امرتهم وكان هذا يوم الخميس الرابع عشر لشهر رمضان المعظم من سنة أربع وعشرين وخمسمئة (31 غشت 1130م)، وهي البيعة

الخاصة،⁽¹⁾ وبويع بيعته العامة يوم الجمعة الموفي عشرين لربيع الأول من سنة ست وعشرين وخمسة (9 فبراير 1132م) بعد وفاة المهدي بسنتين بجامع تينمل بعد صلاة الجمعة.⁽²⁾

أما المثال الثالث لخطابته، فيتمثل في التعريض بأعدائه، والتكيل بهم، ومحاولة تشويه صورة المرابطين، واتهامهم بأبشع التهم في قوله: "... واعلموا وفقكم الله أن المجسمين،⁽³⁾ والماكرين، وكل ما نسب إلى العلم أشد في الصد عن سبيل الله من ابليس اللعين، فلا تلتفتوا إلى ما يقولونه، فإنه كذب وبهتان، واقتراء على الله ورسوله... فانتهبوا وفقكم الله لهذه الحيل التي يحتالون بها على عيشتهم، ودنياهم حتى حملهم ذلك على الافتراء على الله ورسوله حتى عكسوا الحقائق، وقلبوها، وحرفوا الكلام عن مواضعه، ونسبوا من دعا إلى التوبة، والتوحيد، واتباع السنة إلى الخلاف، وسموه مخالف بيغيهم..."⁽⁴⁾

لم نعثر على النص كاملا في الكتب التي تناولت هذه الدولة، ولعل هذا راجع إلى أن نصوص الأدب المغربي قد ضاعت، ولم يبق منها إلا القليل، نعثر عليه في كتب التاريخ التي اهتم بها الزمن، وسجلها من المخطوطات التي وجدت في المتاحف الأوربية وهذه الخطبة رغم قصرها إلا أنها أوصلت تلك الفكرة التي قصدها المهدي وأراد إيصالها إلى صحابته، وأهل دعوته، فكان هذا الإيجاز البالغ، وكانت هذه الدقة المتناهية، وهذه الفواصل السجعية (المجسمين، الماكرين، عيشتهم، دنياهم) والمحدودة التي زواجت بين الجمل، ووزانت فيها، فأعطت جرسا موسيقيا يقرع الآذان، ويشد الألباب، ويملأ الأذهان، ويشحن الأنفس، وعباراته جزلة، كما طغى على الخطبة الأسلوب الانشائي المتمثل في الأمر في قوله: (واعلموا...، لا تلتفتوا...، انتبهوا...) كما أن الجمل جاءت طويلة وألفاظها سهلة فصيحة، أما عن الوحدة الموضوعية فهي تامة وواضحة، رغم عدم اطلاعنا على النص كله إلا أن فكرته الموضوعية قد توضحت لدينا، وقد استطاع أن يقنع أصحابه، وأتباعه من المصامدة أنهم الطائفة المسلمة التي

(1) سميت بهذا الاسم لأن أصحاب المهدي العشرة ومنهم عمر بن عبد الله الصنهاجي المعروف بعمر أزناج، عمر بن ومزال الذي كان اسمه خصكة، فسماه ابت تومرت عمر ويعرف بعمر إيني، عبد الله بن سليمان من أهل تيممل من قبيلة يقال لها مسكالة هم الذين بايعوه وكانت في السر لخواهم من أن يختلف أمر الموحدين عليهم إذا علموا بموت أميرهم وإمامهم المهدي بن تومرت.

(2) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص 186.

(3) يعني أن ينسب لله تنزه اسمه شيء مجسم، كاليد والعين، مما هو ثابت للمخلوقات، وكان الموحدون يطلقون على خصومهم المرابطين اسم المجسمين، في نظرهم، وكان المرابطون كسائر أهل السنة متشبهين بآيات المتشابهة على ظاهرها.

(4) علي محمد الصلابي اعلام أهل العلم والدين بأحوال دولة الموحدين ص 63.

تعمل بقول الله تعالى، وتجاهد في سبيل إعلاء كلمة الحق، فبث الثقة في نفوسهم، وغرس فيهم روح الجهاد، وأقنع العقول في صفوفهم، والأمر الذي نلاحظه في هذه الخطبة هو تلك التهم الباطلة التي اتهم بها المرابطين رغم أنها أمة عربية مسلمة نشأت على قواعد الدين وأصوله، وهو بهذا مجحف بحقهم كثيرا حيث أنزل عليهم مجموعة من التهم الباطلة كأنها الصاعقة المميتة لهم، وهذا أمر طبيعي من شخص يريد أن يسود قومه فينحاز لهم، وينكل بأعدائهم لتعزيز مكانته لديهم، وبسط نفوذه وهيمته عليهم، إن ما مر بنا من الخطب السياسية التي تناولناها لدليل كبير على نشاطهم المبكر في هذه الدولة، وقد جسدها ذلك الصراع القائم بينها وبين عدوتها الدولة المرابطية من أجل الظفر بالحكم، فلم تتلفظ أفواههم إلا بما يشحن النفوس للقتال، وقد كانت الخطابة الوسيلة الوحيدة لشحن الهمم، ودفع العزائم، لما لها من قوة الإقناع، والتأثير في نفوس السامعين فيكونون شديدي الإحساس بها، يلتفون حول المجالس التي تعقد فيها، لمناقشة الأمور المستعجلة والمواقف الخطيرة، فيعطيها طابعا مميزا، ووقعا هائلا وكانت خطب المهدي ابن تومرت خير دليل على هذا لأنها حثت على الجهاد، وتضمنت جانبا من الوعظ والإرشاد، فبعد استفحاياته التي كلها حماسة، وتصوير لقوته. تنبيهه إلى خطورة الوضع وصعوبته، واستعماله لأسلوب النصح والإرشاد، والنهي والأمر، يصل إلى النتيجة المنشودة التي اصطبغت بالحجة والدليل الواضح مع استخدام للبيان وصوره لأن الخطابة تقوم باستعراض مشاعر الناس، وترجمتها، وهي تعبير عن حالات الصراع الفكري، وحالات الصراع السياسي المرتبط بالعاطفة القوية، والجياشة، وكان لهذه الخطب وقعها الخاص على الأمة المغربية.

2-5- خطب الوزراء والكتاب:

اقتضت الظروف السياسية والمناسبات الدينية والاجتماعية في المغرب وجود خطابة تزكي روح الجهاد في الحروب، وتطفئ لهيب العصبية في السلم، فأصبح للخطيب شأن اجتماعي كبير يوازي به مكانة الكاتب بل يفوق مكانة الشاعر كما هو الحال مع أبو حفص عمر الأغماتي⁽¹⁾ (ت603هـ) الخطيب المفوه، والكاتب المجيد،

(1) القاضي أبو حفص عمر بن عبد الله، أغماتي الأصل فارسي المنشأ والمنزل، كان من أهل الفتيما بمدينة فاس ثم ترقى إلى الخطابة والقضاء، هو كاتب مجيد، وخطيب مفوه، وشاعر كبير من شعراء زمانه ولاه المنصور الموحدي، قضاء اشبيلية، ومات بها وهو قاض سنة (603هـ)، انظر المقري: فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج3، ص 209-210.

وقد وصلنا نص خطبته التي يحذر فيها من مذهب الفلاسفة، ويحض على اتباع السنة، والعمل بما جاء في القرآن الكريم، وهو متأثر ولا شك بحملة المنصور الموحي على الفلسفة والفلاسفة حينما ألحق بهم أشد العقاب وقام بإحراق كتبهم الفلسفية عندما أحس أن سلطتهم ونفوذهم قد قوي على دولته وهذا نصها «إياكم والقدماء، وما أحدثوا، فإنهم عن عقولهم حدثوا أتو من الافتراء بكل أعجوبة، وقلوبهم عن الأسرار محجوبة، الأنبياء، ونورهم، لا الأغنياء وغرورهم عنهم يتلق، وبهم يدرك السؤل⁽¹⁾ ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾⁽²⁾ الدين عند الله الإسلام، والعلم كتاب الله وسنة محمد عليه السلام، ما ضر ما وقف عندهما، ما جهل بعدهما، خير نبي⁽³⁾ في خير أمة ﴿يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾⁽⁴⁾ ولهم من قرب عليهم، واختصر لهم الطريق إليه، فما ضر تلك النفوس الكريمة، والقلوب السليمة والقلوب العظيمة، ما زري⁽⁵⁾ عنها من العلوم القديمة، نقاهم من الأوضار⁽⁶⁾ والأدناس، وقال كنتم خير أمة أخرجت للناس، كتابهم أعظم كتاب أنزل، ونبیهم أكرم نبي أرسل، السيد الإمام، لبنة التمام، خير البرية على الإطلاق، بعث ليتم مكارم الأخلاق أنزل الكتاب عليه، ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ، وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ﴾⁽⁷⁾ هو الشفاء والرحمة وفيه العلم كله والحكمة، معجز في وصفه عزيز في رصفه، ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ﴾⁽⁸⁾، آياته باهرة قائمة، ومعجزاته باقية دائمة، إذ هي للنبوة والرسالة خاتمة، لا تنقضي عجائبه، ولا تنتهي غرائب، ما ذا أقول، وقد بهر العقول حسبي حسبي ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا﴾⁽⁹⁾ لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي ﴿(10)﴾. « (11)

تضمنت هذه الخطبة تحذير الناس من بعض أصناف الفلاسفة، والدعوة إلى التمسك بكتاب الله، وهي نصح وارشاد، وتحذير في نفس الوقت، فقد جمعت بين هذه

(1) زين لهم الشيطان وسهل عليه الأمر، أي سؤل له.

(2) الجن : 26-27

(3) محمد بن عبد الله رسول الله عليه الصلاة والسلام.

(4) البقرة: 151.

(5) ما نحي وأبعد.

(6) الخبائث.

(7) مسيطرا عليه.

(8) فصلت: 42.

(9) الحبر الذي يكتب به.

(10) الكهف: 109.

(11) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص 353-354.

الأساليب، وقد بدأها بالتحذير الشديد مؤكداً على ذلك باستعماله لفظة (ياكم) التي تدل على النهي والابتعاد عن هذا الأمر، وتجنبه، ثم يواصل سرد أعمالهم التي قاموا بها ثم يبين أهمية الدين والعلم، والمكانة التي يحتلونها عند الله ووسط الناس والمكانة التي يحتلها القرآن الكريم الذي أزل على خاتم الأنبياء، والمرسلين هو شفاء لكل الأمراض، وعلاج لها، هو المصباح المنير الذي يستضاء به في كل عتمة، ثم يختتمها بمدى تأثير الخطيب به، وتجمع هذه الخطبة بين معالجتها لقضية اجتماعية متمثلة في سلطة الفلاسفة والفقهاء على الناس وأنها خطبة عقائدية دينية، وهذا دليل على آثار الصنعة عند الخطيب وجمل النص قصيرة منقطعة، مع استعمال للأحكام القاطعة التي لا يريد لها رداً، ولا دعماً ببرهان، وإنك لتشعر في لهجة الخطيب من الحزم والصرامة ما يعمل في النفوس ويحركها ويلهبها، وهو صاحب لسانٍ فصيح، وقد اعتمد على عنصر الإقناع أكثر من اعتماده على عنصر التأثير، كما عند إلى استعمال السجع المتمثل في قوله: (أتو من الافتراء بكل أعجوبة)، (قلوبهم عن الأسرار محجوبة)، (الأنبياء ونورهم)، (الأغنياء وغرورهم)، (الدين عند الله الإسلام)، (سنة محمد عليه السلام)، (ما ضر من وقف عندهما)، (ما جهل بعدهما)، (ما ضر تلك النفوس الكريمة)، (القلوب السليمة)، (القلوب العظيمة)، (العلوم القديمة)، (كتابهم أعظم كتاب أنزل)، (نبيهم أكرم نبي أرسل)، (السيد الإمام)، (لبنة التمام)، (خير البرية على الإطلاق)، (ليتم مكارم الأخلاق)، (آياته باهرة قائمة)، (معجزاته باقية دائمة)، (لا تنقضي عجائبه)، (لا تنتهي غرائبه).

فهذه الكلمات السجعية أضفت على الخطبة جرساً موسيقياً، كما عمد الخطيب إلى التناص حيث وُصف آيات قرآنية في خطبته ليس بطريق الإقتباس أو التضمين، وإنما لصباغة خطبته ويظهر هذا في استعماله التناص الديني، المعروف بالأحالة الدينية كقوله تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَىٰ غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَن ارْتَضَىٰ مِن رَّسُولٍ﴾⁽¹⁾ فهذه الآية من سورة الجن والآية الثانية في قوله: ﴿يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾⁽²⁾ من سورة البقرة وقد استدلل بهذه السور للإقناع وتأكيد الحجة وقد بين أهمية القرآن الكريم في قوله تعالى: ﴿مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ، وَمُهَيِّمًا

(1) الجن: 26-27

(2) البقرة: 151

عَلَيْهِ⁽¹⁾ وهي من سورة آل عمران، كما انبهر الخطيب من اعجاز القرآن الكريم، ومن كلماته العربية الفصيحة، والكثيرة فوضف قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾⁽²⁾ وهذه الآية من سورة الكهف، وقد أضفى التناص على النص اغناء واثراء لغويا، وإكمالا للمعنى، وحسنا للعبارة، وفيها صنعة وثقافة وإشارة تحيل إلى انصهار الخطيب وتألقه، وجعله موحدا مع نصه كأنه كائن متعدد المشارب.

ومنها ما قيل في الوعظ والإرشاد لأن خطباء الموحدين وكتابهم حرصوا على معالجة المجتمع من الآفات الاجتماعية التي تتخر كيانه وتضعف مع صلابة بنيانه، معتمدين في ذلك على تعاليم الإسلام السمحة، مهتدين بالسنة النبوية الشريفة، ومقتدين بالسلف الصالح ومتنورين بمنهج إمامهم المهدي، ولهذا جاءت خطبهم في هذه الموضوعات متضمنة للمعاني الدينية، كما كثر الاقتباس فيها من القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف، الذي يخدم هذه المواضيع دينيا، واجتماعيا، وسياسيا، وهو إدراك من هؤلاء الحكام بجوهر مطالب الرعية من إقامة الحق فيما يتعلق بعصب الحياة الاجتماعية، المتوازنة حيث لا يأخذ من المغارم إلا ما كان بوجه الحق في إطار الشرع الإسلامي، كما لم يغفل عن الانتباه إلى هذه الظواهر السيئة التي تظهر في المجتمع من حين لآخر، وبهذا عرف المجتمع في المغرب مثل هذه الظواهر السلبية، والآفات الاجتماعية في عهوده المختلفة وهذا الاختلاف يكمن في العهود، وكيفية معالجتها بالحزم، والصرامة في معاقبة القائمين بها، أو بالوعظ والإرشاد، واستعمال أسلوب الترغيب والترهيب الذي يلجأ إليه عادة الخلفاء عندما يستفحل الأمر عليهم، ويكون ذلك في البحث في أصولها وأسبابها الكامنة وراءها هو الأسلوب الأنجح للقاء عليها بعد استئصالها، ولهذا استمرت مثل هذه الظواهر في الوجود في وسط المجتمع في المغرب على الرغم من تشددهم في الحكم، غير أن هذه التيارات في عمق المجتمع توشي بما هو واقع آخر، وعندما تصل الأمور مداها نجد ذلك ينعكس في خطابات الحكام، محاولة منهم للحد منها على الأقل، وخطبة أبو مدين الفاسي⁽³⁾

(1) المائدة:48.

(2) الكهف:109.

(3) عبد الحفيظ بن أبي مدين بن أحمد بن محمد بن عبد القادر الفاسي الفهري العلامة الخطيب البارع، كان من أفراد الرجال وصدرا من صدور الأولياء جمع الله له علم الشريعة، تخرج على يده ألف شيخ من الأولياء، كان حافظا للحديث، وكان له مجلس وعظ يتكلم فيه كان خطيب المسجد الأعظم بفاس الغراء عدلا توفي عام 594هـ بعد مرضه، انظر: العباس بن إبراهيم: الأعلام ممن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، تخ: محمد عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، 1977، ج8، ص38.

(ت594هـ) في الوعظ خير دليل على هذا ونصها «عباد الله إنجا المخنفون⁽¹⁾ فخففوا الأتقال لتلحقوا، وفاز المتقون فإن شئتم الفوز فالتقوا، وترافق السعداء على الجادة فإياهم فراقوا، وسابق النجباء⁽²⁾ إلى العبادة فسارعوا إليها وسابقوا، ووصل المشمرون،⁽³⁾ فما ينتظر المقصرون، ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَى السَّاعَةِ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً، وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾⁽⁴⁾ أخرج الإمام أحمد في الزهد، والحاكم في المستدرک، والبيهقي عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لرجل وهو يعضه: "اغتنم⁽⁵⁾ خمسا قبل خمس، شبابك قبل هرمك⁽⁶⁾، وصحتك قبل سقمك⁽⁷⁾، وغناك قبل فقرك، وفراغك قبل شغلك، وحياتك قبل موتك"⁽⁸⁾، ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنَ اللَّهِ، مَا لَكُمْ مِنْ مَلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾⁽⁹⁾ في الحلية عن بلال بن سعيد قال: "عبد الرحمن: يقال لأحدنا أتعب أن تموت؟" فيقول: "لا". ويقول: "سوف أعمل، فلا يجب أن يموت ولا يعمل، وأحب شيء إليه أن يؤخر عمل الله ولا يحب أن يؤخر عمل الدنيا"⁽¹⁰⁾، ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغْرُبَكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَلَا يَغْرَبَكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾⁽¹¹⁾، ولا تتخيلوا الإقامة في دار لا بقاء لها، ولا تظنوا أن من جد⁽¹²⁾ على الجادة كمن تباهى بالباطل ولها، كلا! والله إن ما ولدناه فللتراب، وما جمعناه فللذهاب، وما شيدناه فللخراب، وما اكتسبناه ففي كتاب، وكل إنسان ألزمناه طائره في عنقه، وتخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا، إقرأ كتابك كفى بنفسك اليوم حسبياً روى الإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "يقول العبد مالي مالي! وإنما من ماله ثلاث، ما أكل فأفنى، أو لبس فأبلى، أو تصدق فأمضى، وما سوى ذلك فهو ذاهب وتاركه للناس"⁽¹³⁾، ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَاتٍ وَعَيْونَ، وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ! كَذَلِكَ، وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ﴾⁽¹⁴⁾ روى الديلمي عن

(1) قوم يسرقون الناس ويخنفونهم.

(2) الأذكىاء.

(3) الجادين.

(4) الزخرف: 66.

(5) اتخذ.

(6) الكبر، والتقدم في السن، وذهب الشباب.

(7) المرض والعدة.

(8) نصر الدين الألباني: ضعيف الجامع الصغير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ج4، ص

(9) الشورى: 47.

(10) ضعيف جدا، نصر الدين الألباني: ضعيف الجامع الصغير، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ج4،

(11) فاطر: 5.

(12) سار.

(13) محمد خلف سلامة: الجوهر النقي الملتقط من زهد البيهقي، دار الهجرو للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، صفحت 54.

(14) الدخان: 25-26-27-28.

أنس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: "أصلحوا دنياكم، واعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غدا".⁽¹⁾

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَلْتَنْظُرْ أَنْفُسُكُمْ مَا قَدِمَتْ لِعَدِيٍّ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾⁽²⁾. جعلني الله وإياكم ممن قدم من دنياه لأخراه، واستجاب لربه من قبل، أن يأتي يوم لا مرد له من الله، وأجارني، وإياكم من عذابه المهين، وغفر لي ولكم ولو الدنيا ولجميع المسلمين»⁽³⁾، هذه خطبة دينية صوفية، وهي خطبة الصبح والغفران، والهدوء والاطمئنان، أما من حيث شكل هذه الخطبة، وأدواتها الفنية، فإننا إذا استثنينا مدخل التحميد، الذي عادة ما يكون افتتاح تقليدي، مع أن الافتتاحية لم نعثر عليها في كتب التاريخ بل وصلنا النص هكذا، ولو توقفنا قليلا عند شكل هذه الخطبة للاحظنا، من أول وهلة، جنوحا بينا إلى السجع كقوله: (نجا المخنفون فخففوا الأثقال)، (فاز المتقون)، (ترافق السعداء على الجادة)، (سابق النجباء إلى العباد)، (فأياهم فرافقوا)، (فسارعوا إليها وسابقوا)، (وصل المشمرون)، (ينتظر المقصرون)، (هل ينظرون)، (هم لا يشعرون)، وهذا النوع من السجع لا يثقل على السمع، ولا يركب من أجله صعب المطايا لأنه لا يضحى إلى تدفق العبارة، وإلى جانبه نجد الطباق الذي يتمثل في قوله: (شبابك # هرمك)، (صحتك # سقمك)، (غناك # فقرك)، (فراغك # شغلك)، (حياتك # موتك)، (دنياكم # آخرتكم).

وهذا التناسق الفني الجميل زاد الخطبة جمالا، وجعل الخطبة قصيرة ومؤدية للمعنى ومعالجة له، كما عمد إلى استعماله للأساليب الإنشائية وخاصة أسلوب الأمر لأنه يعظ الناس ويأمرهم بفعل هذا، واجتنب هذا كقوله: (خففوا الأثقال)، (فاتقوا)، (فرافقوا) (فسارعوا إليها) (وسابقوا)، (استجيبوا لربكم)، (أصلحوا دنياكم)، (اعملوا لآخرتكم) وعبارات النص واضحة لا غموض فيها، وألفاظه فصيحة ليست خاصة بفئة معينة، وإنما هي متداولة بين الناس ومألوفة، لا يجد القارئ صعوبة في فهم معانيها إلا ما كان عفويا (المخنفون، الجادة، المشمرون) وهناك تناص قرآني في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا، وَلَا يَغُرَّنَّكُمُ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾ من سورة فاطر، حيث ساق لهم هذه الآية كي يحتثهم على التمسك بالدين وعدم الجري وراء متاع

(1) ضعيف جدا، نصر الدين الألباني: مختصر السلسلة الضعيفة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ج 2، م 2، ص 210.

(2) الحشر 18.

(3) عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج 2، ص 355-356-357.

هذه الدنيا لأنها زائلة واستشهد من السنة خاصة من الأحاديث القدسية التي رواها صلى الله عليه وسلم على لسانه تعالى حيث قال: " اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك، وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك فقد حثنا رسول الله على استغلال نعم الله التي أنعم بها على عبده وأن نحسن استغلالها وفي حديثه أيضا: « أصلحوا دنياكم واعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غدا " فقد حثنا على عمل الخير لأنه هو الباقي وهو الشاهد على افعالنا يوم لا ينفع مال ولا بنون إلا من أتى الله بوجه جميل».

وفي نفس الطراز الوعظي والصوفي الديني نموذج آخر من خطابته التي هي تعبير عن ما في نفسه وقلبه " حيث تقول: «عباد الله! لئن كانت ذنوبنا كثيرة، ومساوينا خطيرة، وسيئاتنا أربت عن الحصى، وموبقاتنا⁽¹⁾ جلت عن العد والإحصاء؛ ولئن قلت في الصالحات أعمالنا وطالت في الخبائث آمالنا، واتبعنا هوانا فظهرت منا القبائح، وملك حب الدنيا منا القلوب والجوارح، وشب حرصنا عليها وطول أملنا زاد، وحبان وقت الرحيل منها، ولا زاد ووران على قلوبنا سوء الإكتساب، وملئت صحائفنا بالكبائر، وموجبات العذاب، فرحمة ربي تسع الجميع، وفضل مولانا وافر يعم العاصي من خلقه والمطيع فليس جوده مخصوصا بمن أطاع، ولا كرمه مختصا بمن أتى في عبادته بالمستطاع بل هو مبذول بالسبق لمن شاء من خلقه، وإن عصى، وإساء وأذنب، وخالف وشق العصا، قال عليه الصلاة والسلام: "والذي نفسي بيده لو لم تذبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم آخرين يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم"⁽²⁾، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ، وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾⁽³⁾، قال عليه الصلاة والسلام: "قال الله تعالى: «أنا أكرم، وأعظم عفوا من أن أستر على عبد مسلم في الدنيا ثم أفضحه بعد إذ سترته، ولا أزال أغفر لعبدي ما استغفرتني⁽⁴⁾ ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾⁽⁵⁾، قال عليه الصلاة والسلام، قال الله تعالى: "يا ابن آدم! إنك ما دعوتني ورجوتني

(1) وهي السبع الموبقات حسب حديثه صلى الله عليه وسلم "قال اجتنبوا السبع الموبقات قيل يا رسول الله، وما هن، قال الشرك بالله، والسحر وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، وأكل مال اليتيم، وأكل الربوا والتولي يوم الزحف وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات" مسلم: الجامع الصحيح،

م، ج1، ص64.

(2) أبو مسلم: الجامع الصحيح، م3، ج5، ص130.

(3) آل عمران: 135.

(4) حديث ضعيف، نصر الدين الألباني: صحيح الجامع، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، د ط، دت، ج5، ص404.

(5) النساء: 110-111.

الناس كلهم واستشهاده ببعض الأحاديث الشريفة، والآيات القرآنية لكي تزيد من اقناع الناس، وترغيبهم في التوبة، وختمها بدعاء كان نهاية لهذا العرض الذي يحمل تحته النصيح، والإرشاد والوعظ، ونلاحظ التناص الديني في خطبته، حتى أنه غلب عليها، ليس مستشهدا بما جاء في الأحاديث، والآيات، وإنما هو التداخل النصي بين أكثر من نص كقوله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده لو لم تذبوا لذهب الله بكم، ولجاء بقوم آخرين يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم" فرسول الله صلى الله عليه وسلم يخاطب صحابته ويقول لهم بأن الله رحمة واسعة وهو غفور رحيم، حتى ولو كان المذنب قد اقترف أعظم الذنوب، وأكبرها، وفي قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ، وَمَنْ يَغْفِرِ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾ "وهي مأخوذة من سورة آل عمران، وقوله أيضا: "أنا أكرم، وأعظم عفوا من أن أستر على عبد مسلم في الدنيا ثم أفضحه بعد إذ سترته، ولا أزال أغفر لعبدي ما استغفرتني" وهو حديث قدسي، وقوله صلى الله عليه وسلم في حديث على لسانه تعالى: "يا ابن آدم إنك ما دعوتني، ورجوتني إلا غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي يا ابن آدم لو أنك أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة" فهذه الآيات والأحاديث الشريفة كلها توضح وتؤكد على رحمة الله الواسعة، ومغفرته وقدرته الكبيرة، فتجعل الإنسان على وصال مع ربه مهما عظمت ذنوبه، فهذا التداخل بين النصوص القرآنية، ونص هذه الخطبة لدليل واضح على ابداع الخطيب، وجعلها ترقى لمكانة صاحبها، الذي ترجم نزعته الدينية والصوفية في نتاجه الأدبي هو ذلك الاتصال الروحي بين الله وعباده، ولعل الفترة التي عاش فيها أبو مدين هي فترة شاع فيها الفساد والاضمحلال الأخلاقي وانتشار المنكرات، والفواحش، فنقل صورة مجتمعه وجسدها في خطبتيه الوعظيتين ويمثل القرن الخامس الهجري بداية ذلك الصراع القائم بين دولة المرابطين ودولة الموحدين، وما كان لتلك الفترة من أحداث سياسية خطيرة على الدولة وعلى الرعية الذين يعتبرون كبش الفداء، فتفرقوا وتلاشوا، وانقسموا إلى طوائف، وفرق، وساءت أحوال الناس، وتحللت أخلاقهم، وفسدت.

رغم الشح الكبير في نصوص الخطب التي وصلتنا إلا أننا تمكنا من التعرف على واقعها في الدولة الموحدية، والشيء الذي نلاحظه هو نشاط الخطابة السياسية، والدينية حتى أن النوع الأول لعب الدور الكبير في استنهاض الهمم، وتحفيز النفوس على

القتال كونها كانت في صراع سياسي مع عدوتها الدولة المرابطية، لأنها كانت في بداياتها الأولى تسعى للقضاء عليها، بكل الطرق، ومهما تعددت الوسائل التي تستعملها لذلك فكانت هي السلاح الذي استعمله المهدي بن تومرت لبت روح القتال في نفوس أهله، واصحابه وقد مرت بنا نماذج لخطبه السياسية، ودون اهمال للنوع الثاني من الخطب فإنه كان بمثابة النور الذي يضيء الظلمات، وينير دربهم، أما ما يميز الخطابة في هذه الفترة هو ذلك التواصل الأدبي مع الخطابة في المشرق، حيث أنها واكبت ذلك التطور الذي حدث في المشرق والأندلس، حتى أن ذلك ظهر في مدى تأثر المغاربة، وخاصة أدياء الدولة الموحدية بهذا، فانعكست صورتهم وشخصيتهم في نتاجهم الأدبي.

فالنصوص التي استعرضتها تجمع بين خاصية فريدة تتمثل في تواصل الخطيب مع المتلقي، ومعايشته لآلامه، وواقعه المعاش فهي تجمع بينهما، مع اختلاف شديد، وهي أنها تتأى عن التعرض لوصف أحاسيس النفس، وذكر ما نجد في غمرة الأحداث التي تقع في محيطها، بطريقة يكون الكلام فيها بثا متصاعدا مع شغاف القلب، وحديث النفس للنفس حين تسقط الأغشية، وترتفع الحواجز المصطنعة الوهمية، ويواجه الإنسان حقيقة الإنسان في أجمل صورها، أو في أبشعها، وأحقرها، كما أنها أكثر صنعة وأكثر استعمالا للسجع والتزاما به من كل ما مر بنا من النصوص التي تتناولناها، كما أنها مكتملة للأدوات البلاغية، مع نزوج للأساليب البيانية، وهذا ليس غريبا على المغاربة خاصة خطباء هذا العصر في القرن الخامس الهجري، كما كان لاحتكاكهم بالأندلسيين الأثر الكبير، والظاهرة التي نلاحظها هي تلك الموضوعات الدينية التي نالت نصيبها من هذه النصوص، حيث كثر الاقتباس فيها من القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف الذي خدم هذه الموضوعات دينيا واجتماعيا، وسياسيا، فكان المهدي بن تومرت (ت524هـ) أعظم خطيب وأشهرهم في دولته، وأسلوبه يجمع بين فصاحة العبارة وعلى الإيتاء بالحجج والبراهين لاقتناع أصحابه وهو صاحب فكر عميق، ونظر بعيد، وصاحب بلاغة قائمة على الحذق في خطبه، كما يجمع بين اللهجة الأمازيغية واللغة العربية الفصحى، التي ساعدت على احتلاله مكانة مرموقة لدى أهله من المصامدة، أما أبو حفص عمر الأغماتي (ت603هـ) فهو صاحب صبغة لفظية رائعة، وصاحب حماسة قوية، وما اعتماده على الأحكام القاطعة إلا دليل على هذا،

الفصل الأول الخطابة

مع أنه لا يريد لها ردا ولا دعما ببرهان، فإننا نشعر في لهجته من الحزم، والصرامة ما يعمل في النفوس ويحركها، فيساعد على التفاف السامعين عليه، وأما أبو مدين الفاسي (ت594هـ)، فقد ظهرت نزعته الزهدية واتجاهه الصوفي في خطبه، التي كلها شحن للنفوس، وإلهاب لها، فتشتعل تلك الحمية الدينية، فيتفاعل القارئ معها كأنه جزء منها، فالخطيب القادر والمتمكن هو الذي يدرك خصائص الأسلوب الخطابي الذي يتنوع بين الخبر والإنشاء، والسهولة والوضوح، مع استخدام للخطابات الغيبية وضمان المتكلم، لابعاد الملل وبعث للحيوية والنشاط، والإطناب بالتكرار والتأكيد بوسائله المختلفة، والتشويق بالاستطراد، والإقناع بالقرآن والحديث لدفع الملل خاصة الطويلة منها.

توطئة:

تعتبر الرسائل شكلا من الأشكال النثرية غير السردية لأنه نقل للذات، وترجمتها بالكتابة الأدبية، وهي ذلك التواصل الثقافي والفكري بين الثقافات الأخرى والمجتمعات المختلفة، فيكون ذلك الاتواصل السياسي والأدبي بين المرسل والمرسل إليه، ويشترط في المرسل أن يكون قادرا على استخدام التعبيرات الموافقة للمحور المعني، لأن محور الرسالة عنصر لاختيار نوعية الأسلوب، وطرق الصياغة والمادة المعجمية، فتختلف الاختيارات باختلاف المحاور، والموضوعات التي تدور حولها هذه الرسائل، وقد عرفت منذ القديم، فتنافس الكتاب فيها لنيل أعلى المراكز الحكومية، والمراتب العليا، وقد احتاج الناس إليها للتواصل فيما بينهم ولقيت اهتماما من الأدباء والمقاد القدامى والمحدثين، وكل عرفها على طريقته.

1- تعريف الرسائل:

أ- الرسائل لغة:

الرسائل في اللغة مشتقة من المادة اللغوية رسل من الرسل في الأمور والمنطق كالتهمل والتوقر، والتثبت، وجمع الرسالة الرسائل، قال ابن جنية: الترسل في الكلام التوقر والتفهم، والترفق من غير أن يرفع صوته شديدا⁽¹⁾ والترسل في القعود أن يتربع ويرخي ثيابه على رجليه، والإرسال التوجيه وق ارسل إليه، والاسم الرسالة والرسالة والرسول والرسيل.⁽²⁾ والرسل قطع من الإبل قدر عشر يروسل بعد قطع، ويقال: جاؤوا رسالة ورسلة: أي جماعة جماعة، وفي الأثر: أن الناس دخلوا عليه، صلى الله عليه وسلم، بعد موته أرسالا يصلون عليه، أي أفوجا، وفرقا متقطعة بعضهم يتلوا بعضا.⁽³⁾ والترسل كالرسل، والترسل في القراءة والترسيل واحد، وهي التحقيق بلا عجلة، وقيل: يعضه على أثر بعض، وترسل في لاقراءة إتأد فيها، وجاء في الأثر أن الرسول صلى الله عليه وسلم كان في كلامه ارسيل، أي ترتيل، وفي حديث عمر رضي الله عنه إذا أذنت فترسل أي تأن ولا تعجل⁽⁴⁾، قال كثير:

(1) ابن منظور: لسان العرب، مادة رسل، م11، ص 338.

(2) المرجع نفسه: ص 338.

(3) المرجع نفسه: ص 338.

(4) المرجع نفسه: ص 339.

الفصل الثاني الرسائل

لقد كذب الواشون ما بحت عندهم بايلي، ولا أرسلتهم برسيل⁽¹⁾

وفي الرقآن الكريم: "إنا رسول رب العالمين"⁽²⁾.

ولم يقل: إنا رسل لأن فعولا وفعيلا يسوي فيها المذكر والمؤنث والجمع والمفرد مثل عدو وصديق⁽³⁾.

ومما ورد في استعمال الرسول بمعنى الرسالة، وما وصل إلينا من شعر العباس بن مرداس السلمي⁽⁴⁾.

ألا من مبلغ عني خفافا رسول بيت أهلك منتهاة⁽⁵⁾

وقد أشار (القرطبي) إلى ما ذكره (ابن الأباري) من أن الرسول والرسيل والرسالة سواء والرسول في اللغة: الذي يتابع أخبار الذي بعثه أخذا من قولهم جاءت الإبل رسلا أي متتابعة⁽⁶⁾

قال أوي اسحاق النحوي، في قوله عز وجل حكاية عن (موسى) وأخيه: "فقولا إنا رسول رب العالمين"⁽⁷⁾، معناه إنا رسالة رب العالمين، أي ذورا رسالة رب العالمين، وأنشد هو أو غيره:

مَا فَهَمْتُ عَمَدَهُمْ بِسِرِّ وَلَا أُرْسَلْتُهُمْ بِرَسُولِ

أراد ولا أرسلتهم برسالة، قال (الأزهري): وهذا قول الأخفش⁽⁸⁾

أما مفهوم الرسائل عند الزمخشري، فلا يكاد يختلف عن مفهومها عند ابن منظور فهي مشتقة من رسل - راسله في كذا، وبينها مكاتبات، ومراسلات وترسلوا، وأرسلته برسالة وبرسول، وأرسلت إليه أن أفعل كذا، وأرسل الله في المم رسلا. وأرسل الفحل في اقبل ووجهت إليه أسلى أرسالا متتابعة: رسلا بعد رسل جماعة بعد جماعة، وترسل في قراءته تمهل فيها وتوقر ورسل قراءته: رتلها⁽⁹⁾.

(1) كثير عزة: الديوان، شرح: عدنان زكي درويش، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 994، ص 254.

(2) الشعراء: 16.

(3) ابن منظور: لسان العرب، مادة رسل، م11، ص339.

(4) العباس بن مرداس بن أبي عامر السلمي من مضر، أبو الهيثم: شاعر فارس، من سادات قومه أمه الخنساء الشاعرة أدرك الجاهلية والاسلام توفي سنة 18 هـ (خير الدين الزركلي: الإلغام، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط5، 1980، م3، ص: 153).

(5) الجوهري، الصحاح: نح أحمد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط3، 1984، (مادة رسل).

(6) أبو عمر يوسف بن عبد البر النميري القرطبي: بهجة المجالس، تح محمد مرسي الخولي، راجعه عبد القادر القط، الدار المصرية، دار الجبل،

(دت)، ج1، ص677.

(7) الشعراء: 16.

(8) ابن منظور: لسان العرب، م11، مادة رسل.

(9) الزمخشري: أساس البلاغة، مادة رسل.

أما قدامة بن جعفر فيعرفها كما يلي: " التروسل من ترسلت أترسل ترسلا وأنا مترسل، كنا يقال توقفت أتوقف توقفا وأنا متوقف ولا يقال ذلك إلا لمن يكون فعله في الرسائل قد تكرر، كما لا يقال اكسر إلا لمن تردد عليه الفعل في الكسر ويقال لمن فعل ذلك مرة واحدة، أرسل يرسل إرسالاً وهو مرسل، والاسم الرسالة، أو راسل مراسلة فهو مراسل، وذلك إذا كان هو ومن يرسله قد اشتركا في المراسلة، واصل الالتحاق في ذلك أنه كلام يرسل به من بعد أو غاب، فاشتق له اسم الترسل، والرسالة من ذلك"⁽¹⁾

ويبدو واضحاً من هذا أن الترسل أو الكتابة قد أخذ دلالة من هذه المعازظني ونظراً لأهميته كفن أدبي فقد خصص له مؤلف ضخم هو (صبح العشى في صناعة الإنشاء) لصاحبه القلقشندي الذي اهتم به خاصة من الأئمة الرسمي منه وهو الكتابة وتعريف الرسائل عنده لا يختلف عن سابقيه من علماء اللغة فيقول: " الكتابة في اللغة مصدر كتب يقال كتب يكتب كتباً وكتاباً ومكتبة وكتبة فهو كاتب ومعناها الجمع، يقال تكتبت القوم إذا اجتمعوا، ومنه قيل لجماعة الخيل كتيبة، وكتبت البغلة إذا جمعت بين شفريرها بحلقة أو سير ونحوه، ومن ثم تسمى الخط كتابة لجمع الحروف بعضها إلى بعض كما سمي خرز القربة كتابة لضم بعض الخرز إلى بعض"⁽²⁾.

أ - الرسائل اصطلاحاً:

الرسالة قطعة من النثر الفني تطول أو تقصر تبعاً لمشية الكاتب وغرضه وأسلوبه، وتكون كتابتها بعبارة بلغية، وأسلوب حسن رشيق، وألفاظ منتقاة ومعان طريفة.⁽³⁾ وبما أن الرسائل تعتمد في أساسها على الكتابة فإنها ضرورية كونها تدل على العلم والعالم لأنها تصوير واقعي لما يحدث في المجتمع وفي هذا المعنى يورد القلقشندي الكتابة فيقول: «بأنها صناعة روحانية تظهر بألة جثمانية دالة على المراد بتوسط نظمها، ومعنى الروحانية هي الألفاظ التي يتخيلها الكاتب في أوهامه ويصور من ضم بعضها إلى بعض صورة باطنة قائمة في نفسه، والجثمانية بالخط الذي يخطه القلم وتقيد به تلك الصورة، وتصير بعد أن كانت صورة معقولة باطنة صورة محسوسة ظاهرة».⁽⁴⁾

(1) قدامة بن جعفر: نقد النثر، ص 95.

(2) القلقشندي: صبح العشى في صناعة الإنشاء، ج1، ص 51.

(3) عيد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص 448.

(4) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج1، ص 51.

ونظرا لهذه الأهمية التي تحتلها الكتابة في المجتمع فقد أصبحت مهنة يتنافس عليها الناس في الوصول إلى أعلى المراتب، ولهذا كانت دواوين الملوك والأمراء لا تخلو من كتاب الرسائل الذين لا تتقصهم المهارة ولا الثقافة التي ينبغي أن يمتلكها كل كاتب كرسيد معرفي يستعين به على أداء مهام الكتابة الرسمية وغيرها.

وعرفها القلقشندي أيضا فقال: «هي جمع رسالة والمراد فيها أمور يرتبها الكاتب من حكاية حال من عدو أو صيد أو مدح وتقريض أو مفاخرة بين شيئين أو غير ذلك مما يجري هذا المجرى، وسميت رسائل من حيث أن الأديب المنشأ لها ربما كتب بها إلى غيره، مخبرا فيها بصورة الحال مفتوحة بما تفتح به المكاتبات ثم توسع فيها فافتتحت بالخطب وغيرها»⁽¹⁾

2- تطور أدب الرسائل:

كانت القرون الثلاثة الأولى منطلق الكتابة الأدبية نتيجة حاجة الناس إليها فالعرب في العصر الجاهلي، استخدموها لأغراض سياسية، وتجارية ولكنهم لم يستعملوها في أي مجال أدبي، نتيجة اهتمامهم بالتجارة والربح والحروب والنزاعات والسيادة والزعامة فلم يكن لهم وقت للإبداع هذا من جهة، أما من جهة أخرى هو جهل أغلبهم لطرق الكتابة كون غالبية العرب في العصر الجاهلي أميين، فقل نصيبهم من الحضارة، والتمدن فنادرا ما كان هناك من يعرف الكتابة، نتيجة انصرافهم لما هو أهم من العلم، والمعرفة، وقد لعب الشعر والخطابة دورهما في التشهير، والتأثير على الناس، وعلى عقولهم باعتبارهما وسيلة من وسائل الاتصال آنذاك، غير أن هذا لا يعني أن العرب لم يعرفوا فن الرسائل، وإنما هناك رسائل كانت ترسل إلى الملوك، لتبادل الهدايا، وتوطيد العلاقات، والمتصفح منا لكتب التاريخ وكتب الأدب يجد أن هناك رسائل عديدة وكثيرة في العصر الجاهلي كان محورها طلب العون والنصرة ضد عدو يتهددهم أو الأخذ بالثأر، أو استرجاع الملك ككتاب (السموأل) إلى (الحارث بن أبي شمر الغساني) يوصى بامرئ القيس (الشاعر) ليساعده في الوصول إلى قيصر الروم كي يمهده بما يحقق له أمله،⁽²⁾ وكتاب (قصي بن كلاب)⁽³⁾ إلى أخيه (رزاح بن

(1) القلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج 14، ص 138-139.

(2) أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني: نج: لجنة من الأديباء، ط 5، 1981، ص 76-77.

(3) ابن هشام: السيرة النبوية، تح: مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، (د ت)، م 1، ص

ربيعة بن حرام العذري) يدعو إلى نصرته، وهذا دليل على نشاط الكتابة في هذا العصر، وتعددت المواضيع المعالجة فيها، وبمجيء الإسلام الذي غير الحياة العربية، وألغى مفاهيم كثيرة كانت سائدة في العصر الجاهلي (كالثأر والعبودية والغزو...)، واتخذ الكتابة دعامة من دعائمه حيث أن أول آية نزلت على رسوله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى: ﴿إِقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ، خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ، إِقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ، الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾⁽¹⁾، كما أقسم سبحانه وتعالى بالقلم فقال جل جلاله:

﴿ن وَالْقَلَمِ وَمَا يَسْطُرُونَ﴾⁽²⁾، كما جاء في الذكر الحكيم كلمة الصحف كقوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى، صُحُفِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى﴾⁽³⁾.

وغيرها كثير من سور الذكر الحكيم، وهذا خير دليل على أهمية العلم والدعوة إليه، والمكانة المرموقة التي يحتلها، ولا أبالغ إذا قلت إن صدر الإسلام هو عصر ازدهار فن النثر باعتبار العصر الجاهلي عصر الشعر والشعراء، وبهذا فقد حرص رسول الله صلى الله عليه وسلم على أن تتعلم أمته الكتابة والقراءة، فجعل فداء كل أسير من أسرى قريش في غزوة بدر الكبرى، تعليم الكتابة والقراءة لعشرة من رجال المسلمين،⁽⁴⁾ وزاد الاحتياج للكتابة في ضرورة تدوين القرآن الكريم، مما ينزل من الوحي على النبي الكريم، وكان لزاما عليه أن يؤسس لقيام دولة إسلامية قوية وعظيمة، بنشر الإسلام في أرجاء المعمورة وبهذا نشطت الرسائل نشاطا كبيرا وتطورت الكتابة لاصطبائها بالصبغة الدينية كابتدائها (بالبسمة والتحميد، والاختتام بالسلام) وقد كانت هذه الرسائل مضطربة، ومتغيرة من حين لآخر لأن "المكاتبات في صدر الإسلام لم تكن تحفظ في سجلات خاصة وكان ذلك سببا في أن يتناولها غير مؤرخ وأديب بالتبديل والتحسين ومن ثم كان الكاتب الواحد يروي روايات مختلفة باختلاف الكتب التي ترويه وحسب نوق الراوي وقدرته اليبانية".⁽⁵⁾

(1) العلق: 1-5.

(2) القلم: 1.

(3) الأعلى: 18-19.

(4) محمد أبو الفضل وعلي محمد البجاوي: أيام العرب في الإسلام، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، صيدا، بيروت، ط4، 1973، ص

30.

(5) شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي، ص 99.

الفصل الثاني الرسائل

كما كانوا يسجعون في كتاباتهم، وهذا عن غير قصد منهم، كما استعملوا ألفاظا من القرآن الكريم، وما إن جاء العصر الأموي حتى نشطت الكتابة وازدهرت نتيجة اهتمام الخلفاء بها فقد استعملوها في المراسلة فيما بينهم، ومراسلة الولاة والملوك أثناء الفتوحات الإسلامية، كما كانت موجزة في معظمها، وكانوا يسجعون ولكنهم لم يكونوا يلتزمون السجع في جميع الموضوعات، كما استشهدوا بالآيات القرآنية، لترهيب الأعداء، وتأكيدهم للحجة بإقناعهم بالدين الإسلامي الذي هو الدين السمح، وغير ذلك، وأما عن بنائها فكان يفتح بالبسملة ثم يصرح بعد ذلك باسم المرسل والمرسل إليه دون تعظيم ودون ألقاب، وبعد التحميد والصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم يدخل الكاتب في صلب الموضوع، وتختتم بالسلام، أما ما يميز الكتابة في العصر الأموي أنها ارتقت رقا عظيمًا، وعالجت مواضيع كثيرة، ومختلفة، وهذا راجع إلى ذلك الامتزاج الحضاري والثقافي بين الأمم الأخرى كالفرس واليونان، وغيرهم باعتبار أن ثقافة هذه الأمم كانت متطورة ومزدهرة فأخذوا عنها ما يحتاجونه، كما كانت محاوراتهم ومناقشاتهم ممزوجة بالفكر اليوناني والفلسفة والمنطق⁽¹⁾، وإلى جانب هذا نشطت الترجمة فأخذوا يترجمون الكتب الفارسية، واليونانية والهندية، إلى اللغة العربية، ونتيجة هذا ازدهرت الكتابة في هذا العصر خاصة السياسية منها حيث نهضت نهضة واسعة، وهذا راجع إلى أنهم كانوا يعدون الذروة من الفصاحة، والبيان أمثال زياد والحجاج بن يوسف الثقفي، وبهذا أخذ العقل العربي ينمو ويرقى فنمت ورقيت معه تلك الصناعة، وتوفرت عليها جماعة من بلغاء الخطباء كما توفرت عليها جماعة من الكتاب المحترفين الذين توقطهم الدولة للعناية بها، وحقا يقال إن العرب استعاروا نظم الدواوين من لدن الفرس⁽²⁾.

وإلى جانب هذا النوع من الرسائل هناك رسائل اجتماعية ودينية وشخصية تتم عن البلاغة والبيان ممزوجة بتلك المحسنات البديعية، والصور البيانية وهذا لتزيينها وتمييقها، كما كانوا يعمدون إلى الإغراب اللفظي تارة، كرسائل الحجاج⁽³⁾، ومن

⁽¹⁾ شوقي ضيف: الفن ومذاهبه في النثر العربي: ص 103.

⁽²⁾ المرجع نفسه: ص 103.

⁽³⁾ أبو محمد الحجاج بن يوسف بن الحكم بن أبي عقيل بن مسعود بن عامر بن معتب ابن مالك بن كعب بن عمر بن سعد بن عوف من ثقيف، كان عامل عبد الملك بن مروان على العراق وخرسان، وعند ما توفي عبد الملك، تولى الوليد الخلافة بعده، أبقاه على ما هو عليه، كان يحب سفك الدماء، وارتكاب أمور لا يقدم عليها غيره، توفي بعد صراع مرير مع المرض في شهر رمضان وقيل في شوال سنة 95 هـ وعمره 53 سنة أو 54 سنة، وهو الأصح. انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، م 2، ص 29-30.

خلال هذا نستطيع أن نقول أن فن الرسائل قد تطور، وابتعد عن تلك السذاجة، والنظرة البدوية، وعن الزخرف المنمق، وهذا ما ينم على نمو عقول الكتاب العرب نتيجة ذلك الاحتكاك بثقافات الأمم الأخرى إلى جانب مواكبته إلى ضرورات الحياة الجديدة، وتلك النظم الحديثة التي دعت إليها الدولة الإسلامية لتأسيس أمة قوية قوامها ودستور سياستها الدين الإسلامي، ولو انتقلنا إلى العصر العباسي عصر الإبداع الأدبي، والإزدهار العلمي، فإننا نلاحظ إلى أي مدى وصلت الكتابة الأدبية، فنلاحظ ذلك الازدهار حيث نشطت نشاطا كبيرا نتيجة اهتمام أهلها بالعلوم، والآداب كما لعبت الفلسفة والمنطق دورهما في ثقافة كل كاتب نتيجة إقبالهم على قراءة ما ترجم من «الحكمة اليونانية، ومأثور ما تبادله الاسكندر المقدوني، وأرسطو من رسائل، وما نقل عن الفلاسفة اليونانيين من أقوال، وما نقل عن اليهود من حكم، وقصص تتصل بتدبير الملك، وخاصة كتاب كليلة ودمنة»⁽¹⁾، ولعلنا لا نبالغ إذا قلنا إن النتاج الفارسي المترجم كان من أهم المؤثرات في رقي الكتابة وتطورها، وقد عالجت مواضيع مختلفة كأخذ البيعة للخلفاء وولاية العهد، وأخبار الولايات، وأحوالها، ووصايا الوزراء، والحكام في تيسير أمور الحكم والسياسة، كما تفننوا في التحميدات الطويلة التي تصدر بها الرسائل وتنسب إلى الرشيد انه أول من أمر أن تبدئ مكاتباته بعد البسملة بالصلاة والسلام على النبي صلى الله عليه وسلم.⁽²⁾

وإلى جانب نشاط الرسائل الديوانية نمت الرسائل الإخوانية نموا واسعا وتنوعت أغراضها كالشعر، فهي تصور عواطف الأفراد، ومشاعرهم من مديح وهجاء، واعتذار وتهنئة، ورتاء، وتعزية، وغير ذلك مما اقتضته مظاهر الحياة الاجتماعية، وقد تسابق الكتاب في تنميق هذه الرسائل بصياغتها بأحسن المعاني مستخدمين في ذلك مهاراتهم الفنية.

هذه لمحة موجزة عن تطور الكتابة الأدبية، أو فن الرسائل عبر العصور، وما ألاحظه على هذا التطور أنه مواكب بل متأثر بتلك العوامل التي ساعدت على هذا الإزدهار كالتفتح على آداب الفرس، وفلسفة اليونان وحكم الهند، وامتزاجها بتلك الحضارات التي صقلت الأذواق وهذبت المشاعر ونقلت العربي من حياة الصحراء،

(1) شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، ص 466-467.

(2) المرجع نفسه، ص 468.

الفصل الثاني الرسائل

والبدواة إلى حياة القصور والبساتين، ومختلف مظاهر الترف، وطبيعي أن يتأثر كل مبدع بكل هذا، فتعكس على خياله الفكري، فيبتعد عن وحشي الألفاظ، وعن ذلك التصوير البسيط الذي عادة ما يكون في الصحراء والأطلال، والقصور والرياض، والبحيرات، وكل ما هو جميل، لأن الإنسان بفطرته يرى كل شيء جميل، فيحتاج إلى التعبير عن هذا الجمال في كتاباته المستوحاة والممزوجة بخياله الواسع، وبهذا نستطيع أن نقول أن غرض الرسائل غرض فني قديم وواسع قدم الإنسان لأنه تعبير عن حياة المجتمعات وكشف عن أسرار الأفراد الدفينة، في أعماقهم، ويترجم كل هذا بالكتابة، وتشمل الخطاب الذي يكتبه الكاتب إلى شخص ما في غرض من الأغراض حسبما اقتضت أحوالهم في سطور منسوجة بتلك العبارات والمعاني المعبرة، والمؤثرة، فيجتهد الكاتب في سبك أحسن رسالة إلى مرسله.

3- أنواع الرسائل :

إن هناك أنواعا عديدة من الرسائل، وهذه الرسائل تكتب حسب حاجة الناس إليها، أي حسب المكان والزمان، فهي مخاطبة الغائب بلسان القلم والورق، وهي ترجمان لمشاعرهم ولحالاتهم، وهي حبل وصال بين القريب والبعيد، ورباط الوداد مع تباعد البلاد.

وهي محاكاة لمشاكل الناس وتعبير عن واقعهم المعاش، ولهذا قسمها النقاد إلى قسمين كبيرين، قسم خاص، وقسم رسمي.

1-3- القسم الخاص: وهي تلك الرسائل التي تكون بين الأفراد وتشمل الرسائل الإخوانية، أو الرسائل الشخصية أو الأدبية أو الاجتماعية، أو الأخوية، وغيرها و " كل تسمية من تلك التسميات صحيحة في مجملها"⁽¹⁾، ولم تلبث الكتابة الأدبية أن أصبحت على يدي كتابها أداة تعبير وعرض لشتى الموضوعات، حتى لقد فاقت الشعر في ذلك بفضل ما في صناعة النثر من المرونة والتحرر من قيود الوزن والقافية⁽²⁾. ولما كانت رسائلهم الأدبية قد تنوعت بتنوع أغراضها ومراميتها، فسوف نعرض فيما يلي لأهم أنواع هذه الرسائل:

(1) الطاهر محمد توات: أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، ص 279.

(2) عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص 449.

الفصل الثاني الرسائل

1-1- الرسائل الإخوانية: هي تلك الرسائل التي تدور بين الإخوان والأصدقاء والخلصاء ومنها ايضا الرسائل التي يرأسها الكاتب إلى من يريد أن يخطب مودته، أو يلتمس منه أمرا من الأمور⁽¹⁾. وهذا النوع من الرسائل ميدان فسيح مكن الإبداع يتبارى فيها الكتاب والأدباء، ويتيح لأقلامهم وقرائهم أن تتطرق عن سجيتها، كما تتيح لأصحابها التعبير عن عواطفهم الشخصية في لغة مصقولة منتقاة، وبأساليب قوية مقنعة، ولهذا اعترف النقاد بقيمتها، كما لها أنواع شتى أوصلها صاحب كتاب (صبح الأعشى) إلى سبعة عشر نوعا هي: "التهاني، التعازي، التهادي، الشفاعات، التشوق، الاستزراه، اختطاب المودة، خطبة النساء، الاستعطاف، الاعتذار، الشكوى، استماعة الحوائج، الشكر، العتاب، السؤال عن حال المريض، الأخبار، المداعبة"⁽²⁾ وبعض هذه الأنواع يندرج تحتها أضرب كثيرة ولكننا نتعرض لها بوجه التفصيل لأنه يحتاج منا تركيزا كبيرا وبحثا مستقلا بنفسه.

1-2- الرسائل الأدبية: وهي تلك الرسائل التي تصور الأفراد وسلوكاتهم المعيشية التي وصلت إليها فضلا عما ترمي إليه من إصلاح اجتماعي وأخلاقي فهي تنتقد بصورة غير مباشرة ما آل إليه حال المجتمع من بذخ وترف، ومحاولة معالجة هذه الآفات باكتشاف الأسباب ومحاولة إعطاء الحلول للقضاء عليها، كما أنها تتناول خصال النفس الإنسانية وتصور أهواءها وأخلاقها وتوضح لها طريقها إلى الخير، حتى لا تسقط في مهاوي الشر"⁽³⁾.

أما الرسائل الاجتماعية فهي التي تعبر عن معان اجتماعية كالتشوق والحنين، والتهاني والتعازي وغير ذلك.

أما كونها شخصية فلأنها تحمل عواطف شخصية أقرب إلى قلوب الناس كما أنها أقرب إلى الشعر من أي فن آخر "لأن الرسائل الإخوانية شعر غنائي منشور يجد فيه كاتبها متنفسا حرا عن عواطفه، لا يقيدده فيها وزن ولا قافية وهي من أقرب فنون النثر إلى الشعر، وهي تعبير عن عاطفة شخصية"⁽⁴⁾.

(3) عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس: ص 454.

(4) الفلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج9، ص 5-228.

(5) شوقي ضيف، العصر العباسي الأول، ص 502.

(1) أحمد احمد بدوي، أسس النقد الأدبي عند العرب، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط4، 1964، ص 580-581.

الفصل الثاني الرسائل

وبهذا نجد أن الرسائل الخاصة متمسكة بتقاليد وأعراف ملتزمة محددة مع عناية كتابها، وهم خيرة الأدباء وصفوة البلغاء بالتميق اللفظي والسجع والمحسنات والتخيل في أغراض موضوعاتهم، كما هو الحال مع الرسائل الإخوانية أو الوجدانية التي تعنى بالمكاتبات الدائرة بين الصفوة من المنشئين في المناسبات المختلفة، معروضة في قالب فني رفراف، تتألق بين سطوره العاطفة في مختلف أشكالها ودرجاتها.

1-3- القسم الرسمي: أو الرسائل الرسمية وتسمى أيضا الرسائل الديوانية وهي التي تصدر عن الحكام والسلاطين، أو عن دواوين إنشائهم، كما يتناول المنشئون فيها على السنة حكاهم مسائل ومضامين مختلفة من صوالح الدولة وقد عرفها أحمد الشايب بأنها: «ما تصدر عن الدواوين، أو ترد إليها خاصة بشؤون الدولة وصوالحها تيسيرا للعمل، وتثبيتا للنظام العام، ويغلب على هذا النوع الدقة والسهولة في التعبير، والتقييد بالمصطلحات الحكومية والفنية، والمساواة في العبارة، والبراءة من التهويل والتخيل»⁽¹⁾. إذن هي التي كانت تصدر عن ديوان الخليفة أو الملك بوجهها إلى ولاته وعماله وقادة جيشه، بل وإلى أعدائه أحيانا منذرا ومتوعدا، وقد كان لكل خليفة أو ملك كاتبه الذي يتولى الكتابة عنه في كل مهام الدولة، وشؤونها من الرسائل والمنشورات والعهود، والمبايعات، ولم يكن يرقى إلى منصب الكتابة لدى الخلفاء والملوك إلا كبار الأدباء والشعراء في عصرهم.

ومع هذا كله فهذا النوع من الرسائل مهما بولغ في إجادته الفنية، فإنه لا يخرج عن كونه متصلا بحادث أو أمر عارض، وقلما تكون له صفة الدوام التي تهتم الناس في كل زمان ومكان.⁽²⁾

كما تناولت موضوع الانتصارات، والفتوحات والتقليد في الوظائف، والترقية في المناصب والتهديد للأعداء، والوصايا للولاة، والقضاء و لأهمية الانشاء الديواني كان الخلفاء يتخيرون بلغاء الكتاب ويحتفلون بهم.⁽³⁾

وتنقسم الرسائل إلى أقسام تعتبر هيكلها البنيوي كما ذكرها صاحب كتاب حسن التوسل في صناعة التوسل " ويحسن أن يكون الكلام منقسما في التقليد على أربعة أقسام

(1) أحمد الشايب: الأسلوب، دراسة بلاغية تحليلية لأصول الأساليب العربية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ط6، 1922، ص 113.
(2) عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص 449.
(3) الفتح بن خاقان: قلاند العقيان في محاسن الأعيان، قدم له ووضع فهرسه. محمد الغنابي، دار الكتب الوطنية، بيروت، لبنان (د ت)، ص 126.

الفصل الثاني الرسائل

مقارنة المقادير: فالربع الأول: الخطبة (مقدمة الرسالة)، والربع الثاني: ذكر موقع الأنعام في حق المقلد، وذكر الرتبة، وتفخيم أمرها، والربع الثالث: في أوصاف المقلد، وذكر ما يناسب تلك الرتبة، ويناسب حاله من عدل وسياسة ومهابة، وبعد صيت، وسمعة، وشجاعة... والربع الرابع في الوصايا⁽¹⁾.

4- بنية الرسائل:

وصفت الرسائل عند القدماء بصفات منها الصناعة أو الفن حيث أنهم اعتبروها ممارسة لها استقلالها وتميزها من الممارسات الأدبية الأخرى كالشعر والخطابة، وقد خصصت للرسائل مؤلفات خاصة بها، وهذا يعكس تصور القدماء لفن الرسائل نوعاً أدبياً متميزاً عن غيره من الأنواع، لأن الاعتبارات التي يقوم عليها تحديد النوع الأدبي على أنه طبقات من النصوص اعتبرت كذلك عبر التاريخ، وبهذا استطاعت الرسائل أن تحظى باهتمام خاص، ونوعي من قبل النقاد القدامى، وشكلت آراءهم في هذا السياق فضاءاً نظرياً للتفكير، والتمعن في بعض تحديدات الكتابة الترسيولية وقواعدها، ولاشك أن مسألة خصائص الرسائل البنائية تفرض علينا الكشف عن أوضاعها الاجتماعية، والثقافية المصاحبة لها، لأن الإفتاح على تحديد النوع لفهم التطور الذي لحق بقواعد الكتابة يتطلب النظر إلى الترسل حسب هذه الوجهة من التحليل، يستثمر مقدمات أساسية لا تصبح بموجبها إضاءة لها ملحمها المنهجي بما ييسر استخلاص خصائصه البنائية، والسياقية الخاصة والعامة، وصياغتها في قواعد تطابق مقتضى الأعراف الثقافية المتحكمة في صياغة موضوع كل تواصل ترسلي⁽²⁾.

وقد امتازت بنية الرسائل في العهد الموحد بسمات فنية ميزتها كتاباتها التي أبدع فيها كتابها، الذين خلفوا ما يمكن تصنيفه، واستخراج السمات العامة منه من حيث البناء والأسلوب، وذلك وفق ما تحتوي عليه من تشابه أو تمايز في مجموع هذه الرسائل الموحدية حيث نجد هذه الكتابات تتبع طريقة واحدة - في غالبيتها - تحدد العناصر التالية:

1- من ...

(1) شهاب الدين الحلبي: حسن التوسل في صناعة الترسل، تحقيق ودراسة: أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد، بغداد، العراق، 1980، ص 156-157.
(2) أمينة الدهري: الترسل الأدبي بالمغرب (النص والخطاب) منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية المحمدية، جامعة الحسن الثاني، المغرب، الرباط، ط1، 2003، ص 33.

- 2- إلى ...
- 3- سلام...
- 4- أما بعد
- 5- الحمدلة...
- 6- التصلية على الرسول صلى الله عليه وسلم - وآله وصحبه.
(التحمد مجدداً، ويظهر في بعض الرسائل).
- 7- الترضية على الإمام المعصوم المهدي المعلوم.
(الترضية عن خليفته - عبد المؤمن بن علي).
- 8- كتبناه أو كتابنا.
- 9- مكان الإصدار.

وقد سار على هذا النوع من البناء الكاتب أبو جعفر بن عطية، وأخوه عقيل وأبو الحسن بن عياش، وأبو القاسم القالمي، الذين يشتركون في الغالب في سمات عامة تتعلق ببناء الرسائل، دون إغفال الاختلافات الموجودة، والتي تؤثر على الإطار العام إن وجدت ونجد اختلافاً في بنية الرسائل عند الكاتب أبو الحسن بن عياش حيث نجد طريفته تتمثل في العناصر التالية:

- 1- البسمة.
- 2- التصلية.
- 3- العلامة السلطانية
- 4- من
- 5- إلى
- 6- سلام
- 7- البعدية
- 8- التحميد
- 9- الشكر
- 10- التصلية على الرسول صلى الله عليه وسلم
- 11- الترضية عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم

12- الدعاء لأمير المؤمنين خليفة المهدي

13- إنا كتبناه

14- مكان الإصدار

15- التوصية بالتقوى

وهذا الاختلاف الطارئ على بناء الرسائل الموحدية بالنسبة إلى ما كان عليه يمثل مرحلة تطور وتحول تدريجي ينسجم مع طبيعة الأمور وسنن التغيير، والتطور . فهذه السمات التي ينتمي إليها أبو جعفر بن عطية وما أضيف إليها من تطوير يمر عبر تراكم الخبرات، وتظافر الجهود، وتعاون القدرات جعلت الكتابة الديوانية تتطور وفق سنن الفن في التطور، وسيخطو هذا التطور خطوات على أيدي كتاب الفترة الموالية، وعلى رأسهم أبو عبد الله بن عياش الذي تلبس بالكتابة الديوانية لفترة ليست بالقصيرة، واتصلت نباهته، وحظوته أزيد من ثلاثين سنة.⁽¹⁾ ولقد أعطانا المراكشي صورة مجملية عن الكتابة في عهد الموحدين، وأبرز لنا مكانة أبي عبد الله محمد (ت 618 أو 619هـ) بين كتاب ذلك العهد فيقول: « ولم يكن لهم - الموحدين - منذ قام أمرهم - أعني من كتبة الإنشاء - من عرف طريقتهم وصب في قلوبهم، وجرى على مهيعهم، وأصاب ما في أنفسهم كأبي عبد الله بن عياش هذا؛ فإن القوم لهم طريقة تخالف طريقة الكتاب؛ ثم جرى الكتاب بعده على أسلوبه وسلوكه مسلكه لما رأوا من استحسانهم لتلك الطريقة».⁽²⁾ ونستخلص طريقته فيما يلي:

- 1- ذكر المرسل (الذي صدر عنه الخطاب، والدعاء له بما يليق به).
- 2- ذكر المرسل إليه، والجهة التي يوجد بها (والدعاء له بما يناسبه)
- 3- ذكر السلام
- 4- ذكر التحميد مباشرة، دون ذكر البعدية.
- 5- ذكر التصليية على الرسول صلى الله عليه وسلم - وآله وصحبه.
- 6- الترضي عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم (بالتتصيص على ذلك)
- 7- الترضي عن صاحب المهدي وخليفته (عبد المؤمن بن علي).
- 8- الترضي عن أمير المؤمنين (الخليفة الحاكم)

(1) ابن الأبار: إعتاب الكتاب، تح: صالح الأشر، مطبوعات مجمع اللغة العربية بدمشق، سوريا، ط1، 1961، ص230.

(2) عبد الواحد بن علي المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 187.

9- ذكر مكان الإصدار بعد كلمة "إنا كتبناه" أو بعد كلمة "كتابتنا"

10- التوصية بتقوى الله، والعمل على طاعته والاستعانة به، والتوكل عليه.

11- ذكر الموضوع (الإيتاء بالمقصود)

12- ذكر السلام

13- ذكر التاريخ

الأحظ تداخلا بين الطرائق السابقة من حيث اعتمادها على عناصر أساسية ثابتة من جهة ومحاولة أصحابها التغيير وفق ما تقتضيه سنن التطور في هذا الفن من جهة أخرى كما كان للخبرة أهميتها في بلورة سمات هذه الطرائق وتحديد أطرها العامة بما أضفت عليها من السمات الفردية، كما نجد بعض النصوص حذفت منها الفقرات التمهيدية، وربما يعود هذا إلى المؤرخين، وكتاب المصادر الذين يجمعون مثل هذه النصوص، فيكتفون باختصارات تتمثل في صلب الموضوع والاكتفاء بالهدف والمغزى المترجى منه، دون إيرادها كاملة، كما اختلفت بنية الرسائل واختلفت الطرائق التي عرفتھا الفترة الأخيرة من حكم الموحدين حيث بدأ حكمهم يتلاشى ومع هذه الظروف السياسية المضطربة، فإنها قد وفرت للكتابة دافعا قويا لنشاطها وتنوعها. ونجد هذا مطبوعا في كتابات أبو المطرف بن عميرة المخزومي (ت 658هـ)، وأبو الحسن الرعيني (ت 666هـ) وغيرهم حيث أسهموا في الكتابة الفنية، ولا سيما الذاتية منها بنصيب وافر تعبيرا عن أحاسيسهم، ومشاعرهم، وعبروا عن انشغالاتهم المتعددة. ولاسيما ما يتعلق بمصير بلادهم الأندلس، وما أصاب أهلها من محن وما نالهم من نكبات بعد ضياع الأرض نتيجة تخاذل حكام الموحدين الأواخر.

5- أدب الرسائل في عهد الدولة الموحدية:

نهض الأدب المغربي نهضة عظيمة ساعد عليها الرقي السياسي، والتفوق الاجتماعي كما اهتم الخلفاء بالكتابة الفنية، وأولوا عناية خاصة بأهلها، حيث أن الكتابة الموحدية كانت في عصرها الذهبي في عهد عبد المؤمن بن علي،⁽¹⁾ بعدما كانت في عهد المرابطين مصطبغة بالصبغة الأندلسية لأنهم كانوا يغزونهم بنتاج أفكارهم، غير أن مجرى السفينة الأدبية قد تحول مجراها في عهد الموحدين إلى أدباء المغرب،

(1) عبد الله علي علام: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، ص 322.

فسيطروا عليها مضمونا وعبارة وخيالاً، كما امتاز الأدب آنذاك ببساطته وخلوه من الزخرف والصنعة، وخلوه من السفاسف الشائعة في الأدب العربي لذلك العهد، كما امتاز بتأثره بالطابع الديني،⁽¹⁾ وبهذا لم تكن الآداب المغربية صورة للآداب الأندلسية كما يظن بعض الأدباء، بل كانت قائمة بنفسها، لها كيانها، وشخصيتها. فالكتابة هي ترجمان لصور المجتمع الكثيرة، والمتعددة، وأهميتها لا تختلف بل ولا تقل أهمية عن مكانة الشعر لأن دولة الموحدين كانت في حاجة ماسة إلى كتاب الرسائل والشعراء لتثبيت دعائم ملكها، وإذاعة دعوتها في الأقاليم المفتوحة، ولهذا استقطبت هذه الدولة طائفة من الشعراء اختصوا بمذاهب خلفاء الموحدين وكان أشهرهم أبو بكر بن مجبر⁽²⁾ الذي أصدر شعرا رسميا كثيرا يشتمل على أكثر من تسعة آلاف وأربعمائة بيت ذكرها (المقري)، وأكثر مدائحه في الخليفة أبي يعقوب المنصور، وكان هؤلاء الشعراء يقيمون في البلاط بمراكش، ويؤجرون مثلهم مثل كل الموظفين في الدولة، وكانوا يسجلون بشعرهم ما يجري من أحداث مما جعل هذا الشعر يؤدي مهمة الكتابة الرسمية، حتى أن مهمة الشعراء كانت اشبه بمهمة كتاب الرسائل الرسمية، أو مكملة لها، كما كانت الكتابة هي العمود الفقري للنثر الفني، وهي الوسيلة التي استعملها حكام دول المغرب لنشر سياستهم، وتنظيم شؤون دولتهم، وتبليغ أخبارها لكل الناس، وتحسيس الرعية بكل ما يطرأ عليها من أحداث، ولهذا اعتنى حكامها بإنشاء الدواوين، واختيار أعلام الكتابة حسب درجاتهم في الدولة، ومدى معرفتهم العلمية، وقد كان الكاتب يحتل مكانة مرموقة، وبهذا فإن الكتابة الفنية في بلاد المغرب سارت في طريق أزمانه التي عاشها وعانى منها، فهي نقل لصورة المجتمع وتجسيدها في أحسن صورة إبداعية للوصول بها إلى أبعد غاية.

وقد تنوعت مواضيع الكتابة لدى الموحدين، فعالجوا جميع القضايا وخاصة الاجتماعية منها رغم أن مواضيع السياسة والحكم غلبت على الكتابة الفنية في هذا العهد، لأن الدولة بطبيعتها كانت تدرك أن الاهتمام بتأمين الجانب السياسي سيؤدي إلى الاهتمام بالمجتمع الذي يدخل في العناية بسلامته نظامها لأنه هو قوام دولتهم وبه

(1) محمد بن تاروت ومحمد الصادق عفيفي : الأدب المغربي، ص 139.

(2) ابن مجبر أبو بكر يحيى بن عبد الجليل بن عبد الرحمن بن مجبر الفهري، كان في وقته شاعر المغرب ويشهد له بأقوة العارضة وسلامة طبع قصائده، وشعره كثير بلغ تسعة آلاف وأربعمائة بيت اتصل بالأمير أبي عبد الله بن سعد ابن مردنيش، وله فيه مدائح. المقري: فح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، م3، ص 277-278.

الفصل الثاني الرسائل

تتماسك، كما كان الصراع السياسي بين الدولتين الموحدية والمرابطية هو الذي بعث روح الكتابة خاصة في المجال السياسي لتحفيز النفوس على القتال، والجهاد من أجل رفع راية الإسلام لأنهم حسب رأي زعيم دولتهم المهدي بن تومرت أن المرابطين عثوا في الأرض فسادا، ولهوا، وابتعدوا عن الدين الإسلامي ابتعادا كبيرا ورهيبا وأن الأوان لهذه الدولة أن تزول، وتحل محلها دولة الدين والعدل والحق وهي الدولة الموحدية التي ذاع صيتها إلى أبعد حد، مما ساعد على انتشار الحضارة في جميع وجوه المعيشة، وبهذا كثرت أغراض الكتابة وتوعدت أساليبها وسنتناول جانب من الكتابة الديوانية وجانب آخر من الكتابة الأدبية.

أ- الرسائل الديوانية (السلطانيات)

حفظت لنا كتب الأدب، مجموعة من النصوص النثرية التي تدخل ضمن وجه وجوه العلاقات السلطانية بين ملوك الموحدين في البلاد المغربية وملوك المشرق، أو الرسائل الديوانية بين الملوك إلى الولاة في الأمصار أو إلى طائفة معينة من بلادهم، وقد كانت تتمحور في جلها في المبادلات السياسية لأنها ركن ذو أهمية بالغة في كل علاقة تقام بين حاكمين، كما كان للظروف التي أحاطت بميلاد هذه الدولة وما كان بينها من صراع محتدم بين عدوتها الدولة المرابطية يغذيه طموح كل حاكم منها في السيطرة على بلاد المغرب، والجزيرة الخضراء لتوسيع حدود مملكته كما سجلت الرسائل الديوانية في هذا العصر الأحداث التاريخية التي كانت تقع آنذاك من غزوات الفتح، وحملات عسكرية للجهاد أو القضاء على الفتن الداخلية وما يميز هذه الرسائل هو وحدة الموضوع التي غلبت عليها، لكنها لا تشمل إلا رسائل الفتوح، والغزوات، ورسائل الردود من الملوك، غير أننا لا نجد في بعض الرسائل الوحدة الموضوعية مما يؤثر سلبا على فنياتها ولكن بشكل نسبي فقط، وكانت الرسائل الموحدية الأولى تدور حول الموضوعات الدينية كالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وتمثلها رسالة المهدي بن تومرت لإصلاح المجتمع الذي بدأ في الانحلال والابتعاد عن الدين وتتضمن رسالته بعض آرائه في أمراء المرابطين، وفقهائهم.

بسم الله الرحمن الرحيم صلى الله على محمد وآله وسلم

إلى جماعة أهل التوحيد وفقهم الله لما يحبه ويرضاه.

؟

الفصل الثاني الرسائل

سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد فإننا نحمد إِيَكُم اللهُ الذي لا إله إلا هو، ونشكره على آلائه ونعمه، ونصلي على محمد نبيه ورسوله.

والذي نوصيكم به تقوى الله، والعمل بطاعته، والاستعانة به، والتوكل عليه، كتبنا إليكم هذا الكتاب بعدما اتصلت بنا أخباركم، وقيامكم في نصرة الحق، واجتهادكم على إحياء السنة، وتآلفكم وتعاونكم على إظهار الحق، واجتماعكم على اخماد الباطل والظلال، وجهاد المجسمين والمفسدين، فحمدنا الله تعالى على ذلك، وشكرناه إذ منّ علينا بالإخوان على إظهار الدين، وإحياء السنة، امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرَكُمُ﴾ (1)

فنبه على أن كثرة الإخوان والأنصار منة منه عظيمة، لأن بانصار الحق يظهر نور الحق، وجمال الدين، وبه يهدم الباطل والظلال حتى تتمحي آثاره ورسومه، وتبقى بعده أنوار الحق مشرقة، وأعلامه واضحة فلما كان الحق لا ينصر، والدين لا يظهر إلا أنصار الحق، والمجاهدين عليه، عظم الله أمر المجاهدين، وبين فضلهم، وأخبر أن الجهاد بالأموال والأنفس تجارة تتجى من عذاب أليم، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (2) فسماه تجارة لما فيه من الأجر الدائم، والثواب الباقي استعارة وتقريباً للافهام، ليفهموا فيه، ويرغبوا فيما ذكر من درجات المجاهدين، وما أعد الله لهم، فسمى الجهاد تجارة لما فيه من البيع والشراء، لأن المجاهد باع نفسه، وماله من ربه، فاشترى منه ربه ماله ونفسه بالثمن الباقي الدائم الذي لا زوال له، وهو الجنة، ونعيمها فأخبرنا بذلك ليرغب فيه الراغبون، ويسعى فيه العاملون ولعلمهم، وتصديقهم بالوفاء، والوعد من الله، فلما آمنوا به، وصدقوه وعلموه يقيناً، وحققوه باعوا أنفسهم من الله، إذ لا شيء أعز عندهم منها فلما علم صدقهم، وإيمانهم اشترى منهم ما باعوا بالجنة التي فيها ما لا عين رأت، ولا أذن سمعت، ولا يبلغه الواصفون، ولا يحيط به العقل، قال الله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلُونَ وَيُقَاتِلُونَ وَعَدَا عَلَيْهِ حَقًّا

(1) الأعراف : 86.

(2) الصف : 10-11-12.

الفصل الثاني الرسالة

فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ⁽¹⁾. ولهذا عظم الله الشهادة، وجعل القتل في سبيل الله حياة، لئلا يظن الظان أنه ميت، فقال تعالى في كتابه: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ⁽²⁾﴾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ⁽³⁾﴾، فلما علم رسول الله صلى الله عليه وسلم فضل الشهادة أمر بذلك أصحابه، وتمنى القتل في سبيل الله، فقال صلى الله عليه وسلم: "وددت أني أقاتل في سبيل الله فأقتل، ثم أحيأ فأقتل، ثم أحيأ فأقتل، ثم أحيأ فأقتل"⁽⁴⁾ فكرر ذلك تعظيماً لأمر الشهادة، فمن قتل من المجسمين والمفسدين فهو في النار ومن قتل في الموحدين المجاهدين فهو شهيد، فحسنوا نياتكم واخلصوها، وقوا أنفسكم، واعلموا أن الله لا يخلف وعده، ولا بد أن ينصر الحق كما وعد، ويبطل الباطل كما وعد، فخذوا بحضكم من الجهاد على الحق، ونصره، فحزب الله هم الغالبون، والعاقبة للمتقين واصبروا على دينكم في البأساء والضراء، فإنكم على الحق مبين، عنه تدافعون وعليه تقاتلون، فأيقنوا بثواب الله، وصدقوا بما ورد في الجهاد، واعتصموا بالله، هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير، جعلنا الله وإياكم من عباده المخلصين ومن حزبه المفلحين"⁽⁵⁾.

ليس هناك شك في نسبة هذا الخطاب إلى ابن تومرت إذ نص عبد المؤمن بن علي على أنها له كما نص أبو بكر الصنهاجي على أن ابن تومرت كتب هذه الرسالة إلى أهل كزولة، وتكمن أهمية الرسالة في تلك الصورة الأيديولوجية من حركة الموحدين التي كانت قائمة على فكرة الجهاد التي صورها ابن تومرت في رسالته السياسية التي استطاع أن يفتح أتباعه وأنصاره بأنهم الطائفة المنصورة التي تقيم أمر الله وتجاهد في سبيله، وشحن بذلك النفوس، واقنع العقول، وأخذ خطوة أخرى لتعزيز مكانته، وقد حبكها بأسلوب رائع يمتاز باختيار العبارات التي تخدم الموضوع كما أن اتجاهه مباشر، ولا يتبع السبل الملتوية للوصول إلى هدفه كما أنه شديد التحريض على عدوه، ولا يطيل في المقدمات

(1) التوبة : 111.

(2) آل عمران : 169-170.

(3) البقرة : 154.

(4) ابن ماجة (أبو عبد الله محمد بن يزيد القزويني): سنن ابن ماجة، ضبط نصها أحمد شمس الدين منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2002، ص 447.

(5) محمد بن تومرت: أعز ما يطلب، ص 257-258-259.

الفصل الثاني الرسائل

للتمهيد للموضوع، وإنما ينتقل إلى النتائج مباشرة عارف لما يريد، ورغم طول النص إلا أننا اقتصرنا على ما يخدم موضوعنا، أما عن هيكل الرسالة فلا يختلف عن الرسائل المشرقية أما عن هيكل هذه الرسالة فيتمثل فيما يلي:

- 1- البسمة.
- 2- التصلية
- 3- من (المهدي بن تومرت) المرسل
- 4- إلى (جماعة أهل التوحيد) المرسل إليه
- 5- سلام
- 6- البعدية
- 7- التحميد
- 8- الشكر
- 9- التصلية على الرسول صلى الله عليه وسلم
- 10- التوصية
- 11- إنا كتبناه

هذا البناء هو الذي سارت عليه رسائل العصور السابقة كما عرف استعمالها جدلاً بين القبول، والرفض، وعرف موقعها انتقالاً بين الاستفتاح، والتخلص، ففي موضع الاستفتاح نجدها متضمنة للبسمة فقولنا "أما بعد، فقد كان كذا وكذا معناه أما بعد قولنا بسم الله".⁽¹⁾

أما موضع التخلص فيقوم بفصل الخطاب بين الابتداء والموضوع، كما أن الديباجة المتقدمة عليها عادة تلغى لتعقب:

- 1- بالموضوع مباشرة: فالرسم أن يؤتى بالمقصود تلواها.
- 2- بالحمد لله: فيقال أما بعد فالحمد لله الذي ... + الموضوع.
- 3- بالدعاء: أما بعد: أطال الله بقاءك ... + الموضوع.

وعموماً فالبعدية وانطلاقاً من موقعها فإنها تكون نتيجة انعكاس لتوجيه الكلام الملقى وربطاً للحظة الواصلة بين المرسل والمرسل إليه، وما يلاحظ في هذه الرسالة هو أن

(1) أبو بكر الصولي: أدب الكاتب، تحقيق محمد بهجة الثري، المطبعة السلفية، مصر، القاهرة، 1341هـ، ص 38.

الفصل الثاني الرسالة

البعدي لن تطل بل دخل ابن تومرت مباشرة في الموضوع، وقد تناول موضوع الجهاد ودعى إليه، ولهذا صنف كرسالة سياسية، وخطابه كله حماسة ورغبة في الجهاد لتحقيق هدفهم، وهو توحيد الألوهية، وتوحيد الأمة، ولعل هذا ما منع ابن تومرت من أن يطيل في الاستفتاحية، أما عن صدر الرسالة فكله أدلة وبراهين استخدمها لإقناع أصحابه، فأوصاهم في بداية خطابه بتقوى الله، والتمسك بالدين الإسلامي، وعبادة الله تعالى، وبالوحدة وعدم الفرقة لأن في الاتحاد قوة، وفي الفرقة تخاذل، وهوان، وقد نعت أعداءه بألفاظ قبيحة، وبعبارات ثورية ملتهبة لتحديد صفات الخصم الذي سيعلن عليه ثورته مثل (المجسمين المفسدين)، وقد غلب على النص الأسلوب الخبري الذي يقر بالحقائق الواقعية، مع مزيج من الأسلوب الإنشائي في آخر الرسالة ويتمثل في الأمر كقوله: (فحسنوا نياتكم واخلصوها، وقووا أنفسكم، واعلموا أن الله لا يخلف وعده، خذوا بحظكم... اصبروا على دينكم...، أيقنوا بثواب الله، صدقوا بما ورد في الجهاد، اعتصموا بالله) كما جاءت جمل الرسالة قصيرة، وألفاظها فصيحة سهلة لا غموض فيها ونلمس في النص بعض المحسنات البديعية مع أن ابن تومرت قليل الاستعمال لها في خطابه تجنبا للتكلف ومع هذا فإننا نلمسها في النص كالسجع الذي يظهر في الكلمات التالية: (اتصلت بنا أخباركم)، (قيامكم في نصره الحق)، (اجتهادكم على أحياء السنة)، (تألفكم وتعاونكم على اظهار الحق)، (أنصار الحق)، (نور الحق)، أما عن الطباق فيظهر فيما يلي: (البيع # الشراء)، (باع # اشترى)، (أشداء # رحماء)، (البأساء # الضراء)، أما عن اللغة المستعملة فيها فقد غلبت عليها اللغة الدينية، وهناك ترادف لفظي في هذه الرسالة (الاستعانة به = التوكل عليه)، (تألفكم = تعاونكم)، (آثاره = رسومه)، (الأجر = الثواب) ولم يقصد التتميق والتزيين في خطابه بقدر ما كان يقصد التأثير على صحابته أكثر من اقناعهم، وربما يرجع هذا إلى كون أغلبية صحابته أميين تعوزهم حجة الإقناع، وصورة البيان كما تهزهم العبارات الدينية، وهذا طبيعي على شخص بليغ في كتاباته وترسله، الذي يغلب عليه الطابع السياسي، ونلمس في هذا الخطاب اقتباسا دينيا تمثل في قوله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾⁽²⁾ حيث شبه صحابته بجيش رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم غزوة بدر الكبرى حيث كان قليل العدد مقارنة مع جيش المشركين الذي كان

(1) الأعراف : 86.

(2) التوبة: 111.

الفصل الثاني الرسالة

كثير العدد، وكانت الغلبة لجيش المسلمين، وإنما ساق لهم هذا المثال لأنهم في بدايات دعوتهم، ولا قبل لهم على مجابهة جيوش المرابطين الجرارة، فاستشهد لهم بهذه الآية لبت الحماسة في نفوسهم وقوله تعالى أيضا: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ، وَيُدْخِلُكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴾⁽¹⁾ فقد شبه الجهاد لأصحابه بأنه تجارة، وقد سماه تجارة لما فيه من الأجر والثواب، فزاد هذا في حماسة أصحابه حيث دفعهم إلى الجهاد والقتال في سبيل الله، وصور لهم ذلك الأجر الذي سينالونه يوم القيامة، وما ينتظرهم من النعيم فيها وصور لهم فضل الشهادة، وصاغ لهم الأدلة والبراهين كقوله تعالى: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا، بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ ﴾⁽²⁾، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم: "وددت أني أقاتل في سبيل الله فأقتل، ثم أحيا فأقتل ثم أحيا فأقتل" وقد صاغ لهم على هذا مثل رسول الله صلى الله عليه وسلم في حبه الجهاد في سبيل الله لأنه أعظم درجة عند الله وأرفع مكانة في الجنة.

وإذا كان هذا المبدأ قد سار عليه المهدي، فإن خلفاءه من بعده ساروا عليه فعندما تولى عبد المؤمن بن علي أمر الموحدين نشطت الكتابة نشاطا كبيرا، وهذا للحاجة الكبيرة لها إما لتوطيد العلاقات بين الدول، أو لدعوة الولاة والأمراء للدخول في دعوة الموحدين، خاصة من الأندلس، وهذا خطابه إلى الشيخ محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش (صاحب شرق الأندلس) يدعو للدخول في دعوتهم، وهي من إنشاء الوزير أبي جعفر بن عطية وهذا نصها « من أمير المؤمنين أيده الله بنصره، وأمده بمعونته، إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن سعد وفقه الله، ويسره لما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته. أما بعد فالحمد لله الذي له الاقتدار والاختيار، ومنه العون لأوليائه والإقتدار وإليه يرجع الأمر كله فلا يمنع منه الاستبداد والاستتثار، والصلاة والسلام على محمد نبيه الذي ابتعث بمبعثه الأضواء والأنوار، وعمرت بدعوته الأنجاد والأغوار، وخصم بدعوته الكفر والكفار، وعلى آله وصحبه الذين هم الكرام الأبرار، والمهاجرون والأنصار والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله حين غيرته الأغيار، وانعدم الانتعاض له

(1) البقرة: 154.

(2) ابن ماجه : سنن ابن ماجه، ص 447.

الفصل الثاني الرسالة

والانتصار، وهذا - كتابنا كتب الله لكم نظرا يريكم المنهج، ويلقيكم الأبهج⁽¹⁾ فالأبهج، وأتاكم الله من نعمة الإيمان، وعصمة الإنقياد له، والإذعان ما تجدون به اليقين، والتلج - من حضرة مراكش حرسها الله تعالى، ولا استظهار إلا بقوته وحوله، ولا استنثار إلا من احسانه وطوله.

ولما جعل الله هذا الأمر العظيم رحمة لخلقه، ومطية لرقيه وقرارة لإقامة حقه وحمل حملته الدعاء إليه، والدلالة به عليه، والترغيب في عظيم ما عنده ونعيم ما لديه، وجعل الإنذار، والإعذار من فصوله المستوعبة، وإحكامه المرتبة، ومنتجاته المخلصة من الخطوب المهلكة والأحوال المعطية - رأينا أن نخاطبكم بكتابنا هذا أخذا بأمر الله تعالى لرسوله في المضاء إلى سبيله، والتحريض على اغتنام النجاء وتحصيله، وإقامة الحجة في تبليغ القول وتفضيله، فأجيبوا - رفعكم الله - داعي الله تسعدوا وتمسكوا بأمر المهدي - رضي الله عنه - في اتباع سبيله تهتدوا، واصرفوا أعنة العناية إلى النظر في المثال والتفكر في نواشئ التغيير والزوال، وتدبروا جري هذه الأمور، وتصرف هذه الأحوال، واعلموا أنه لا عزة إلا بإعزاز الله تعالى فهو ذو العزة والجلال، ولا يغرركم بالله الغرور،⁽²⁾ فالدنيا دار الغرور، وسوق المحال⁽³⁾، وليس لكم في قبول النصيحة، وابتداء التوبة الصحيحة والعمل بثبوت الإيمان في هذه العاجلة الفسيحة، إلا ما تحبونه في ذات الله تعالى من الأمانة⁽⁴⁾ والدعة، والكرامة المتسعة والمكانة المرفعة، والتنعم بنعيم الراحة المتصلة والنفس الممتنعة، فنحن لا نريد لكم، ولسائر من نرجو إنابته، ونستدعي قبوله، وإجابته إلا الصلاح الأعم،⁽⁵⁾ والنجاح الأتم،⁽⁶⁾ وتأملوا سدكم الله من كان بتلك⁽⁷⁾ الجزيرة حرسها الله من أعيانها وزعماء شأنها، هل تخلص منهم إلى ما يوده، وفاز بما يدخره ويعده إلا بمن تمسك بهذه العروة الوثقى، واستبقى لنفسه من هذا الخير الأدموم⁽⁸⁾، الأبقى وتنعم بما لقي من هذا النعيم المقيم، ويلقى، وأما من أخذ إلى الأرض، واتبع هواه، ورغب بنفسه عن هذا الأمر العزيز إلى ما سواه، فقد علم بضرورة المشاهدة والاستفاضة

(1) كل شيء حسن وجميل، ونظر.

(2) ماله ظاهر محبوب وباطن مكروه ولذلك سميت الدنيا بمتاع الغرور.

(3) صوغ من الذهب صبغ مفعرا أي على شكل الفقار.

(4) يقصد به الأمان أو الأمن.

(5) العام.

(6) التام.

(7) يقصد بها الجزيرة الخضراء وهي الأندلس.

(8) الدائم.

الفصل الثاني الرسالة

سوء منقلبه، وخسارة مذهبه ومطلبه، وتنتقل منه حادث الانتقام أخسر ما تنقل به، وحق عليكم وفقكم الله وسيركم لما يرضاه- أن تحسنوا الاختيار، وتصلوا الاذكار، والاعتبار، وتبتدروا⁽¹⁾ الابتدار، وما حق من انقطع إلى هذا الأمر الموصول الواصل، وأزمع⁽²⁾ ما يناله من خيره المحوز⁽³⁾ الحاصل أن يناله منكم شاغل يشغله عن مقصوده، ويحيط به ما يصرفه عن محبوه ومودوده.⁽⁴⁾ فقد كان منكم في أمر أهل بلنسية.⁽⁵⁾ حين إعلانهم بكلمة التوحيد، وتعلقهم بهذا الأمر السعيد، ما كان ثم كان منكم في عقب ذلك ما اعتمدتموه في أمر أهل -لورقة-⁽⁶⁾ وفقهم الله، حين ظهر اختصاصهم وبان إخلاصهم، وليس لذلك وأمثاله عاقبة تحمد، فالخير خير ما يقصد والنجاة فيما ينزح عن الشر، ويبعد، وإنا لنرجو أن يكفكم عن ذلك وأشباهه نظر موفق، ومتاع محقق، ويجذبكم إلى موالاته هذه الطائفة⁽⁷⁾ المباركة جاذب يسعد، وسائق يرشد، والله يمن عليكم ينجيكم، ويمكن لكم في طاعته أسباب تأمينكم وترجيكم بمنه والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته.⁽⁸⁾

الرسالة فيها دعوة موجهة إلى صاحب شرق الأندلس يدعو للدخول في دولتهم، والسير على نهجهم وخطاهم، وقد أحسن أبو جعفر بن عطية⁽⁹⁾ في صياغتها بأسلوب رائع، وغاية في الإبداع، لأن تجربته السابقة هي أداته ومعينه على هذا فهو كاتب (المخضرم) الذي عاش في العهد الجديد عهد الموحدين وفي السنة نفسها التي سقطت فيها عاصمة المرابطين مراكش على أيدي الموحدين (سنة 541هـ) فنال هذه المكانة الرفيعة بسبب كتاباته الإبداعية، وهو ما جعل الخليفة عبد المؤمن بن علي يقربه ويستوزره، وهذا ما جعل الكتاب الذين تولوا مهنة الكتابة من بعده ينهجون نهجه، ويسيروا على منوال

(1) تكونوا السابقين في هذا الأمر.

(2) ثبن عزمه على امضائه

(3) المحتاج.

(4) من المودة وهي المحبة.

(5) مدينة في غاية الخصب واعتدال الهوار، وسميت هكذا لكثرة أشجارها وطيب ريحها، وبينها وبين البحر الرومي أربعة أميال كان يسميها أهل الأندلس مطيب الأندلس، والمطيب عندهم حزمة من أنواع الرياحين يجعلون فيها النرجس والأس وغير لك من أنواع المشومات، عبد الواحد بن علي المراكشي: العجب أخبار المغرب، ص 267.

(6) تقع غربي قرطاجنة.

(7) يقصد بهم الموحدين.

(8) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص411، 412، 413.

(9) أحمد بن أبي جعفر بن محمد بن عطية القضاعي من أهل مراكش، وأصله من طرطوشة، يكنى أبا جعفر ولد عام 517هـ كان كاتباً بلغياً، سهل المأخذ، منقاداً لقرينة، سبيل الطبع كتب لعلي بن يوسف بن تاشفين أمير لمتونة وعنى ابنته تاشفين واسحاق من حكام المرابطين، ونظراً لمكانته العلمية عينه عبد المؤمن وزيراً له، وكاتباً له، فأحيكت له المؤامرات من قبل رفاقه فسجنه عبد المؤمن وقتله مع أخيه عقيل سنة 553هـ، بعد أن كليهما واصطحبهما معه إلى زيارة قبر المهدي في تينمل. المقرئ: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج5، ص 183-184.

الفصل الثاني الرسائل

رسائله، التي أصبحت نموذجا يحتذى به كل من احترف الصنعة من بعده،⁽¹⁾ أما عن هيكل هذه الرسالة ف جاء كما يلي:

- 1- المرسل = من عبد المؤمن بن علي (أمير المؤمنين)
- 2- المرسل إليه = إلى الشيخ محمد بن سعد (صاحب شرق الأندلس).
- 3- سلام عليكم ورحمة الله وبركاته.
- 4- أما بعد
- 5- الحمد لله
- 6- التصليية على الرسول صلى الله عليه وسلم، وآله وصحبه
- 7- الترضية عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم (محمد بن تومرت)
- 8- كتابنا
- 9- مكان الاصدار = مراکش
- 10- الموضوع
- 11- السلام.

ما ألاحظه على بناء هذه الرسالة هو أنها مختلفة عن بناء الرسالة التي سبقتها في بعض العناصر فلم تبدأ بالبسملة كما ذكرت الترضية على الامام المهدي وذكر مكان الاصدار، وعموما فإن أبو جعفر بن عطية لم يخرج كثيرا عن هذا البناء، وأما عن مضمون هذه الرسالة فقد بدأت بديباجة طويلة ثم تحدث عن أمر الموحدين وما هم عليه من قوة تمسكهم بالدين الإسلامي، والمنزلة التي يحتلها أصحابه من المحيدين، ودعوته إلى التمسك بأمر إمامهم المهدي بن تومرت لأنه على حق، ورصد لهم ما سيلاقونه من الأجر نتيجة تتبعهم لهذا الأمر والسير عليه، ثم واصل في دعوته أهل الأندلس وعدم بقاءهم على أمر أعيانها وولاية أمرها، ورغبته في الانتماء لهذه الدولة. ولكن الرسالة لا تخلص كلها لهذا الوعظ الصالح، وهذا الإغراء الملح بالانحياز إلى جانب العقل والصواب، وهذا الكلام يدخل البهجة على النفس حين يصدر عن أمير حاكم وعادل، ولكنه كلام فحسب، لا يكفي الحقائق الحق، وإقامة العدل ولأن مخاطبة القادة، وولاية المقاطعات على سبيل انتدابهم لأمر معين، وتكليفهم بمهمة محددة يقتضي

(1) محمود محمد خياري: أدب الرسائل الديوانية في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، السنة الجامعية 1990-1991 ص 183.

استخدام أساليب المراسلة الجماعية، فإنه استخدم ضمير المخاطب بلسان الجمع والذي يظهر في قوله: (رأينا أن نخاطبكم بكتابتنا هذا... فأجيبوا رفعكم الله)، وألفاظ الرسالة واضحة سهلة لا غموض فيها، وقد وضفت لخدمة الموضوع، كما أن جملها قصيرة ومتقطعة لكنها لا تخل بالموضوع، وأفكارها مترابطة منسجمة الاتساق، ومن حيث تراكيب النص فإنها مركبة تركيباً مزجياً وهي خليط من الإنشاء والإخبار، لأن الحقائق التي أقرها واقعية، وعمد الكاتب إلى السجع، وهو ما يميز كتاباته فيظهر في (الحمد لله الذي له الاقتدار والاختيار)، (منه العون لأوليائه والأقدار)، (عمرت بدعوته الأنجاد والأغوار)، (خصم بدعوته الكفر والكفار)، (الإمام المعصوم)، (المهدي المعلوم)، (حين غيرته الأغيار)، (الانتعاض له والانتصار)، (يريك المنهج)، (يلقيكم الأبهج)، (الأمنة والدعة)، (الكرامة المتسعة)، (المكانة المرفعة)، (الراحة المتصلة) والطباق في قوله: (لا تمسكوا # اصرفوا)، (الوصل # القطع)، وأساليبه يغلب عليها الأمر المتمثل في (فاجيبوا، تمسكوا...، تبتدروا جري الأمور، اعلموا أنه لا عزة...). والشيء الذي نلاحظه هو عدم الاستشهاد بالقرآن الكريم والسنة مع أن أسلوب أبو جعفر كثير يتميز بكثرة الاقتباس من القرآن الكريم مع أن هذا لا يظهر في خطابه هذا ويدل على براعة الكاتب وأسلوبه القريب من الناس فهو قصد التقرب منهم لكسر ذلك الحاجز بينهم وبين سلطانهم، ودلت هذه الصور الفنية إضافة إلى الرصانة والجزالة، وهو ما يدل على أصالته في الأسلوب، وموهبته الفنية الفذة في القدرة على الترسل، لأن دولة الموحدين الناشئة والفنية والتي تلقى معارضة من نظام المرابطين، ومن التأثيرين عليها تحتاج إلى كل قلم يزين لهم أعمالهم، ويبشر بدعوتهم الجديدة، وسياستهم المتبعة، وأبو جعفر قدوة جاهزة، وكفاءة متمكنة فائقة في ميدان الكتابة والترسل، وإن كان لم يعمر طويلاً في هذا المجال.

هذه النماذج من الكتابة الرسمية تدل على اهتمام دولة الموحدين، وعنايتها البالغة بتسجيل الأحداث التاريخية، والوقائع المهمة والحاسمة في تاريخ دولتهم، ولا سيما التي كانت لهم فيها الغلبة على أعدائهم من المتمردين والخارجين عن سلطان طاعتهم كما كانوا يركزون على قمع هذه الثورات بإخماد نارها. وأنهم لم يطرحوا الأمر على أنه صراع سياسي يستهدف الاحاطة بحكمهم وإنما المحافظة على مبادئ الدين

الإسلامي والعمل بما جاء فيه، والحرص على تطبيقه في أنظمتهم، لأن حكمهم اصطبغ بالصبغة الدينية، وقد بالغوا في ذلك كثيرا حتى كادوا لا يفرقون بين الإمامة الدينية، والملك الدنيوي،⁽¹⁾ ولهذا جاء أسلوب كتاباتهم الرسمية متضمنا لأحداث تاريخية متعلقة بالتمردات الداخلية، والفتنة الناشئة في بعض الجهات، من إمارات الموحدين، والثورات القائمة بها⁽²⁾، متميزا بخصائص فنية كالإقتباس القرآني، والإطناب مراعاة لمقتضى الحال، كما جاءت العبارات سهلة المأخذ حسنة السبك وجيدة التنسيق، وهذا ما جعل القصد واضحا والمعاني جليلة، ورسالة سليمان الموحيدي⁽³⁾ خرجت عن الرسائل الموحدية في بنيتها وقوة إبداعها الأدبي وقد أرسلها إلى ملك السودان ينكر عليه تعويق التجار، وهي من إنشائه ولم يصلنا منها غير هذه الفقرة وجاء فيها: «نحن نتجاوز بالإحسان، وإن تخالفنا في الأديان ونتفق على السيرة⁽⁴⁾ المرضية، ونتألف على الرفق بالرعية، ومعلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة، والجور⁽⁵⁾ لا تعانیه إلا النفوس الشريرة الجاهلة، وقد بلغنا احتباس وتردد الجلابة⁽⁶⁾ إلى البلد مفيد لسكانها، ومعين على التمكين من استيطانها، ولو شئنا لاحتبسنا من في جهتنا من أهل تلك الناحية لكننا لا نستصوب فعله، ولا ينبغي أن ننهي عن خلق ونأتي مثله، والسلام»⁽⁷⁾.

من هذا القليل الذي احتفظت به الكتب الأدبية رسالة سليمان الموحيدي التي يبدوها بوصف الحال مع جاره ملك السودان وكيف كان هذا الجوار، ثم لام عليه احتباسه للتجار، والاعتراض على هذا الأمر، وعدم قبوله، واستنكاره عليه، ورد عليه بأنه قادر على عمل ما فعله مع تجاره. فهو لم يحتج إلى مقدمات وممهّدات وإنما دخل في الموضوع مباشرة، والغالب عليها هو تلك الفصاحة التي كتبت بها وقد أحسن اختيار

(1) عدم تفريقهم هذا أدى إلى التباس الأمر بين مفهومي التوحيد الديني والسياسي، واختلط عليهم مفهوم الردة "فأصبح عندهم كل خارج عن دعوتهم مرتدا" ولو كان إسلامه صحيحا من الوجهة الشرعية ولكن مادام التوحيد هو أساس الدين، ودعوة المهدي بن تومرت من الدين وقائمة عليه، وكانت إمامته ركنا من أركانه، فلا دين لمن لا يؤمن بذلك، ولا أمان لمن خرج عن الطاعة وشق عصا الجماعة.

(2) هو ذلك التمرد الذي قام به أخوي بن تومرت (عيسى وعبد العزيز) على عبد المؤمن والذي كاد أن يصدع صرح دولة الموحدين لأنهما رأيا أنها أحق بالخلافة من عبد المؤمن، فالتف حولهما نفر من أهل "هرغة" قبيلة ابن تومرت ففرقت فقتل خلالها والي المدينة "عمر بن تفرجين" وعلم عبد المؤمن بهذا فأرسل وزيره أبو جعفر بن عطية لآخمد هذه الفتنة انظر قصتهما في كتاب عبد الواحد علي المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 164-165.

(3) أبو الربيع الموحيدي سليمان بن عبد المؤمن الكومي، نشأ في بيت ملكي، وانكب على طلب العلم والأدب عينه ابن عمه الخليفة يعقوب المنصور واليا على بجاية، شارك في بعض الأعمال الحربية ضد "بني غانية" بتونس وقال الشقندي فيه إنه من مفاخر بني عبد المؤمن، كان قادرا على النظم حافظا للأدب له مجموعة رسائل وديوان شعر كبير، المقري: نوح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج3، ص105.

(4) يقصد بها سيرة الرسول المصطفى صلى الله عليه وسلم.

(5) الظلم وارتكاب الجرائم والفواحش.

(6) وهم التجار الذين يجلبون السلع إلى البلاد.

(7) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص 424، 425.

الفصل الثاني الرسائل

ألفاظ رسالته رغم قصرها إلا أنها هادفة في مضمونها، ومغزاها ونلمح جانبا من التزيين والتميق يظهر فيما يلي: (نتجاوز بالإحسان)، (تخالفنا في الأديان)، (السيرة المرضية)، (الرفق بالرعية)، (وتردد الجلابة إلى البلد مفيد لسكانها)، (معين على التمكين من استيطانها) وهو السجع، وعباراته قوية مشحونة بذلك التهديد الموجه إلى ملك السودان الذي حبس التجار، وقد ذكره ونصحه بوجوب معاملة الناس بالحسنى لكي تدب المحبة والتراحم بين الرعية، وجملها قصيرة مفيدة وقد كانت الرسائل الموحدية في غالبيتها تبدأ في الاستفتاحية بالترضي على الإمام المعصوم المهدي بن تومرت وظل هذا قائما في رسائل ملوك الموحدين، حتى قام الأمر للمأمون الإدريس فأعلن خروجه وخرج خروجا تاما عن مذهب الموحدين الفكري والعقائدي، وقد ذهب إلى أبعد من هذا حيث أنه ألغى رسوم المهدي الصارمة، وكافة شعائر الموحدين وهذا مقطف من رسالته الغريبة التي وصلتنا وهي من إنشائه حيث يقول: «من عبد الله ادريس أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين إلى الطلبة والأعيان والكافة، ومن معهم من المؤمنين، والمسلمين أوزعهم⁽¹⁾ الله شكر نعمه الجسام، ولا أعدمهم طلاقة أوجه الأيام الوسام⁽²⁾ وإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم عملا منقادا. وسعدا وقادا، وخاطرا سليما لا يزال على الطاعة مقيما من مراکش كالأها الله تعالى، وللحق لسان ساطع، وحكم قاطع وقضاء لا يرد، وباب لا يسد، وظلال على الأفاق تمحو النفاق،⁽³⁾ والذي نوصيكم به تقوى الله والاستعانة به، والتوكل عليه، وتعلموا أننا نبذنا الباطل، وأظهرنا الحق، وأن لا مهدي إلا عيسى بن مريم، الناطق بالصدق،⁽⁴⁾ وتلك بدعة قد أزلناها والله يعيننا على القلادة⁽⁵⁾ التي تقلدناها، كما أزلنا لفظ العصمة⁽⁶⁾، وعن لا تثبت له عصمة، واسقطنا عنه وصفه ورسومه،⁽⁷⁾ وقد كان سيدنا المنصور رضي الله عنه،⁽⁸⁾ هم أن يصدع بما به الآن صدعنا، وأن يرفع للأمة الخرق⁽⁹⁾ الذي رقعنا

(1) الهمم

(2) الحسان أو الجميلة.

(3) الذي يظهر غير ما يبطن.

(4) يقصد أنه تكلم في المهدي.

(5) تولى حكم الموحدين والقيام بجميع أمور رعاياه.

(6) يقصد به لفظ المعصوم المعلوم الذي كان يتصدر في افتتاحيات الرسائل الموحدية.

(7) أزال اسمه من الرسائل وخطب يوم الجمعة، ومحي صورته من السكة (النقود)

(8) يعني والده المنصور الموحد.

(9) الثوب البالي الممزق.

الفصل الثاني الرسائل

فلم يساعده لذلك أملة ولا أجله (1) إليه أجله، فقدم إلى ربه بصدق نية وخالص طوية، وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة، فما الظن بمن لا يدري بأي يد يأخذ كتابه أف لهم قد ظلوا، وأظلوا، وسقطوا في ذلك وزلوا، اللهم أشهد أننا تبرأنا منهم تبرأ أهل الجنة من أهل النار، ونعوذ بك من أمرهم الرثيب، (2)، وفعلهم الخبيث، لأنهم في المعتقد كفار، والسلام على من اتبع الهدى، واستقام» (3).

ما يميز هذه الرسالة هو قصرها، حتى أنها أخذت شكل بعض المناشير السياسية العامة، قصد الترويح، وتعميم الخطاب، بعيدا عن أساليب الإطناب والحشو، والتفخيم والتتميق، وتشقيق ضروب الكلام، كما مر معنا في الرسائل السابقة، فقد كان بناءها كما يلي:

- 1- المرسل
- 2- المرسل إليه
- 3- إنا كتبناه
- 4- مكان الإصدار
- 5- التوصية بالتقوى
- 6- الدعاء
- 7- السلام

فقد خرج خروجاً تاماً عن الديباجة المعروفة في الرسائل التي سبقت كما محى اسم المعصوم المهدي بن تومرت والترضية عليه في رسالته، وموضوعها يدور حول محاولة استدراج المأمون أولئك الشيوخ وقتلهم، واستئصال شأفتهم وتتبع بقايا أتباعهم في القبائل، بل ذهب أبعد من ذلك حيث قرر أن يمحو أي أثر لهم، بالقتل والإبادة، وبتحطيم سلطتهم الروحية والمعنوية الكبيرة التي مارسوها طيلة حكم الموحدين، خاصة بعد إصدار قرار إلغاء كافة الرسوم المهديّة وجميع الشعارات الموحديّة، وخطابه هذا فيه شيء من الاجحاف بحق مؤسس دولتهم المهدي بن تومرت حيث طعنه في قيمه ومبادئه، وشوه صورته لدى أهله من بعده وقد غلب عليها السجع كثيراً

(1) عجل في موته وجعله قريباً.

(2) الهين والسخبف.

(3) عبد الله كنون: النبوع المغربي في الأدب العربي، ج2، ص 421، 422.

الفصل الثاني الرسائل

وهذا من عادة رسائل هذا العصر ويظهر في قوله: (من معهم من المؤمنين)، (المسلمين أوزغهم الله)، (شكر نعمه الجسام)، (أعدمهم طلاقه أوجه الأيام الوسام)، (كتب الله لكم عملا منقادا)، (وسعدا وقادا)، (خطرا سليما)، (لا يزال على الطاعة مقيما)، (للحق لسان ساطع) (حكم قاطع)، (قضاء لا يرد)، (باب لا يسد)، والطباق يظهر في قوله: (أوزعهم # أعدمهم)، (الباطل # الحق)، (الجنة # النار) والنص خال من التناص القرآني والحديث النبوي، لأن الكاتب بصدد إخبار أهله بقراره الذي اتخذته وليس لإقناعهم، أو بث الحماسة في نفوسهم أثناء حروبهم، ولغته فصيحة لا غموض فيها ولا اشتباه وقد غلب على النص الأسلوب الخبري مع مزيج من الأسلوب الإنشائي القليل الذي يظهر فيمايلي: (نوصيكم به... تعلموا أننا...، أف لهم...)

ب- الرسائل الأدبية:

من البديهي أن أنواع العلاقات الإنسانية بين أفراد المجتمع تتطلب مجالات، ومبادلات مختلفة، وذلك حسب ما اقتضته المناسبات، فكان لكل مناسبة منها صيغ وعبارات تلائمها دون غيرها، وتختلف بشكل خاص، حسب نوعية الصلة التي تربط بين الأفراد حيث كانت تدور في الغالب حول تلك الرسائل التي تكتب بين الإخوان والأصدقاء، وتشمل رسائل التهئة، والإستعطاف أو الشفاعة والتوصية بالإخوان، وقد كانت لها قيمة إنسانية كبيرة في هذا الفن الأدبي، وخاصة عند اضطراب أحوال الناس، ونشوب الفتن، ورثوب الطامعين المتربصين على الحكم، وما يتبع ذلك من أهوال، وارجاف كما حصل ذلك في العهد الأخير من حكم الموحدين الذي تميز بالضعف، والفوضى وتناثر أشلاء امبراطوريتهم العظيمة حيث تمكن نصارى الأندلس من استرجاع كثير من المدن الأندلسية، وإجلاء المسلمين عنها، في اتجاه بعض الدول الناشئة التي استأثرت بالحكم في شمال إفريقيا، وفي هذه اللحظات العصيبة جرد الكتاب أقلامهم لتخليصهم من محنهم وفك أسرهم، وطلب الشفاعة لهم عند أصحاب الأمر في البلاد فإذا كان هذا الأمر بكل دقة أثناء حديثنا عن نثر المبادلات الاجتماعية، والمجاملات الإخوانية، فإنه يمكن حصر المضامين التي نتناولها في المحاور التالية:

1- في التهاني

2- في الاستعطاف

?

3- في الاعتذار

4- في الصداقة والأصدقاء.

1- في التهاني:

التهنئة مظهر من المظاهر الاجتماعية الموهلة في تاريخ الإنسانية، لأنها تعبير مباشر وصريح عن عواطف المجتمع البشري التي اقتضت منه التعبير بأحسن ما يسر به صديقه، أو قريبه... "وكتب التهاني من الكتب التي تظهر فيها مقادير أفهام الكتاب، ومنازلهم من الصناعة، ومواقعهم من البلاغة، وهي من ضروب الكتابة الجليلة النفسية، لما في التهنئة البليغة من الإفصاح بقدر النعمة، والإبانة عن موقع الموهبة، وتضاعف السرور بالعطية"⁽¹⁾ ولا تكتمل سعادة الإنسان بحادث سار طراً عليه إلا إذا وجد من يقاسمه هذه السعادة من جموع الإخوان والأصدقاء المقربين ومن الرسائل الإخوانية التي عالجت موضوع التهنئة، ما أورده المقري عن أبي المطرف بن عميرة الذي كتب عن أهل شاطبة أيام كان قاضياً بها، ومهنئاً أمير المسلمين ابن هود المستولي على الأندلس آخر دولة الموحيين بوصول العباسي الكريم إليه من بغداد بولاية الأندلس، إذ كان ابن هود⁽²⁾ حين ثار على الموحيين يدعو إلى الخليفة العباسي الذي كان أكثر الملوك في ذلك الزمان يدينون بطاعته بما نصه بعد الصدر " أما بعد، فكتب العبيد - كتب الله تعالى للمقام العلي المجاهدي المتوكلي سعادة لا تبلغ أمداً إلا تخطته؛ ويدا علوها أثبتته أيدي الأقدار وخطته - من شاطبة⁽³⁾، وبركات الأمر المجاهدي المتوكلي؛ والعهد الوائقي المعتممي، تتسكب كالمطر، وتتسحب على البشر، وتقضي بعادة النصر، والظفر، وسعادة الورد والصدر، والحمد لله، وعند العبيد من أداء فروض الخدم، والقيام بحقوق النعم، ما عقدت عليه ضمائرهم، وسمت إليه نواظرهم واشترك فيه باديهم، وحاضرهم، فجناب أملهم فسيح، ومتجر خدمتهم ربيح، وحديث طاعتهم حسن صحيح، وبسنا النظر العلي اهتداؤهم، وفي الباب الكريم رجاؤهم، وبصدق العبودية اعترازهم وإليها اعتزاهم، والله تعالى ينهضهم بوظائف المثابة العلية، ويحملهم على المناهج السوية، ووصل الكتاب الكريم متحلياً برواء

(1) الفلقشندي: صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، ج9، ص 5.

(2) محمد بن يوسف بن هود مؤسس دولة بني الأحمر في مرسية بالأندلس، وهم آخر ملوك العرب في الأندلس كان حكمهم بين (635-798هـ).

(3) مدينة بالأندلس تقع قرب بلنسية.

الفصل الثاني الرسائل

الحق، ناطقا بلسان الصدق واصفا من التشريف والفتار⁽¹⁾ المنيف، ما صدر عن إمام الخلق، فلا بيان أعجب من ذلك البيان ولا يوم كذلك اليوم تبدى نظره للعيان، أو تأدى خبره في أخبار الزمان، نثرت فيه الخلع العباسية في أعلى الصور، وبرز منها للعيون ما يعثر البليغ عند وصفه في ذيل الحصر،⁽²⁾ ويهدي سواده سواد القلب والبصر، فيما لمشهدا ما أعجب ما كان، ومرآها الذي راع الكفر وراق الإيمان، وأشبهه يومه بالأندلس يوم خرجت الرايات السود من خرسان وكفى بهذا فخارا لا يحتاج ثابته مثبتا، أن باشرت بردا باشر البدن الذي طاب حيا وميتا، فهو علو في الإسناد ولا نظير له في العوالي، وفخار ظلت عن مثله العصور الخوالي، وجلت بهجته أن يخلق جدتها الأيام والليالي، ودل الكتاب العزيز على التسمية المشتقة من الجهاد، والسعة من سيف أمير المؤمنين بما لا يدخل في جنس نوات الأغمد⁽³⁾، وخير الأوصاف ما صدقه الموصوف، وللكريم النسب نسبة يباهي بها الدين وتزهى السيوف:

فَإِنْ نَحْنُ سَمِينَاكَ خَلْنَا سِيُوفَنَا مِنْ التِّيهِ فِي أَعْمَادِهَا تَتَّبَسَّمُ

ومما أفاده الكتاب المبهج بطيب أنابئه، نص علامة سيدنا صلوات الله عليه وعلى آباءه فإنها تضمنت صفة الله، عز وجل، من صفات الكمال، ودلت على مذهب أهل السنة في خلق الله، عز وجل، الأعمال، وأشعرتنا معشر العبيد بعناية سبقت بالمقام المجاهدي المتوكلي - أحسن الله تعالى إليه - حين تولى خلافة أمير المؤمنين صلوات الله عليه، فإنه لما شايعه بعزيمة مساعدة، ونية في مشارعه الصفاء والإخلاص واردة، ألهم زيادة في العلامة شاركت الإمامة في صفة واحدة، فهذه كرامة في العلامة، هي علامة الكرامة وهبة من مواهب الكشف يجدها من امتثل قوله: ﴿فَاسْتَقَمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾⁽⁴⁾ فكان من أهل الاستقامة، وتضمن الكتاب الكريم بيعة أهل جيان⁽⁵⁾ وما معها، وإن هذه البوشائر وما تبعها، الفروع عن هذا الأصل الصحيح، وأقيسه عن هذا النص الصريح، فأدلة الخلافة قد استقلت، وشبهة الخلاف قد بطلت واضمحلت،⁽⁶⁾ والحمد لله على أن منح جزيل النعماء⁽⁷⁾ وشرح باليقين صدور الأولياء، وشرف هذه الأمة بإمامة

(1) الافتخار.

(2) الضيق.

(3) ما يوضع فيه السيف.

(4) هود: 112.

(5) مدينة أندلسية تقع قرب غرناطة.

(6) زالت وتلاشت.

(7) النعم.

الفصل الثاني الرسائل

نجل الأئمة الخلفاء، وابن عم سيد الرسل وخاتم الأنبياء، والعبيد يهنئون بهذه النعم، التي لا يسقل بذكرها قلم ولا يقطع علم من وصفها إلا بدا علم، وبهم من الأشواق إلى مشاهدة المعالم السنية ولثم اليمين الطاهرة العلية، ما أكده نور الدار، وجدده ما تجدد للمقام العالي المتوكلي من نعم الله تعالى الجليلة المقدار، والشاهدة له بإسعاد الأيام وإسعاف الأقدار، فلو أمكنهم الإقدام لقدموا، ولو وجدوا رخصة في المسير لعزموا، وهم يستلمون البساط الأشرفي توهما ومن أملهم أنهم في الحقيقة قد استلموا⁽¹⁾.

هذه الرسالة تحمل عبارات جليلة المعنى في الدلالة على حسنه في اختيار الألفاظ التي تخدم موضوع التهئة فقد بدأها بألفاظ التعظيم لأنه يخاطب رجل ذا مكانة عالية ومرموقة كقوله (المقام العلي، المجاهدي، المتوكلي) ثم ينشد بعظمة أهل الأندلس، والمكانة التي يحتلونها، وما هم عليه من الرفعة والسمو، وذكره لأعمالهم الجليلة الشاهدة عليهم، ثم يصف العباسيين وكيف كانت حالتهم في بداية دعوتهم، وذكر لنسبهم الشريف الذين يعتزون به، ووصف لتلك العلاقة القوية بين أهل الأندلس والعباسيين، وفي الأخير يعظم ويرفع من شأن هذه الطائفة التي لعبت دورها في الدولة الإسلامية، وألفاظ الرسالة واضحة سهلة لا غموض فيها فصيحة في معظمها، أما عن هيكل الرسالة وطريقة بنائها فجاء كما يلي:

- 1- المرسل
- 2- المرسل إليه
- 3- البعدية
- 4- مكان الإصدار
- 5- الحمدلة
- 6- الموضوع.

نلاحظ اختلافا واضحا في بناء هذه الرسالة فهو يختلف عن ما عهدته الرسائل السابقة وما نلاحظه هو ذلك التتميق والتزيين الذي عمد إليه أبو المطرف بن عميرة⁽²⁾ خاصة

(1) المقرئ: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1، ص319-320-321.
(2) أبو المطرف أحمد بن عبد الله بن الحسين بن عميرة المخزومي، أصله من جزيرة شقر من أعمال بلنسية ولد عام 582هـ، وسكن بها أخذ العلم على أهل المشرق والمغرب، قال فيه بعض علماء المغرب قدوة البلغاء، وعمدة العلماء، وصدر الجلة الفضلاء، لا ينطق عن تلاوة اللسان بل عن قريحة صحيحة أخذ العلم على أهل المشرق والمغرب، وهو فارس الكتابة له وعظ على طريقة ابن الجوزي ورسائل خاطب بها الملوك توفي سنة (658هـ)، انظر: المقرئ: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1، ص313-314.

التجنيس وهو من أهم الصناعات اللفظية التي سادت في عصره والتي يسعى من خلالها إلى تحقيق قيم التناسب والجمال في كتاباته، ويظهر في قوله: (كتب الله تعالى للمقام العلي)، (المجاهدي المتوكلي)، (سعادة لا تبلغ أمدًا إلا تخطته)، (ويدا علوها أثبتته أيدي الأقدار وخطته)، (الأمر المجاهدي المتوكلي)، (العهد الوثاقي المعنصي)، (تنسكب كالمطر)، (تنسحب على البشر)، (فروض الخدم) (حقوق النعم)، (عقدت عليه ضمائرهم) (سمت إليه نواظرهم)، والطباق في قوله: (باديهم # حاضرهم)، (الكفر # الايمان)، (حيا # ميتا) وقد جاءت الرسالة في قالب بين من المدح والإطراء، وحشد النعوت والأوصاف التي توهم أم الممدوح ملك عظيم أوبطل له في كل أفق موقعه وتجسده هذه العبارات (سعادة لا تبلغ أمدًا إلا تخطته، يدا علوها أثبتته أيدي الأقدار وخطته، تقضي بعادة النصر والظفر، وسعادة الورد والصدر)، وقد استعمل الكاتب الأسلوب الخبري المقر للحقائق مع بعض المبالغة التي ترفع ممدوحه كقوله: (علو في الإسناد، لا نظير له في العوالي، فخار ظلت عن مثله العصور الخوالي، جلت بهجته أن تخلق جدتها الأيام والليالي) فهي تدل على علو ورفعة مكانة العباسيين، وجاءت جمل النص قصيرة رغم طوله.

ولغة النص فصيحة كما نلمس في النص نصا شعريا، وهذا جيد في رسائل الموحدين ولكنه كثير في الرسائل الأدبية، وأحسن في تصوير ممدوحه بأحسن صورة في هذا البيت وهناك تناص ديني يظهر في قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقْمْ كَمَا أَمَرْتُ﴾⁽¹⁾، وقد صاغ هذا المثال لما كان عليه ممدوحه من الامتثال لقوله تعالى وما جاء في القرآن الكريم، وحسن سيرته وسلوكه، وسمعته الطيبة بين أهله، وقد غلبت الصيغة الدينية على النص وجاء ذلك فيما يلي: (أداء فروض الخدم، القيام، بحقوق النعم حديث طاعتهم حسن فسيح، بصدق العبودية اعتزازهم وإليها اعتزازهم، والله تعالى ينهض بوظائف المثابة العلية، ناطقا بلسان الصدق، إمام الخلق، أعجب من ذلك البيان، مذهب أهل السنة، إمامة نخل الأئمة الخلفاء، سيد الرسل وخاتم الأنبياء).

(1) هود: 112.

ب - في الاستعطاف:

الإنسان بطبيعته صاحب كرامة وعزة نفس كبيرة، ولو انقلبت عليه الأيام، ودارت عليه الدنيا بجلوها ومرها، وجد نفسه أسير هذه الحياة الشائكة، وربما تنزل عليه المصائب والنواكد فلا يجد بدا من الفرار منها أو اللجوء إلى من يساعده عليها، وإذا لزم عليه الأمر أن يستعطف أحدا لمساعدته، فإنه لا يتوجه إلا من يرى أنه أهل لهذا، وأنه يملك إمكانية العطف عليه وعادة ما يكون هؤلاء المستعطفين، والمتودد إليهم من الفئات النافذة في المجتمع، وأصحاب الهيبة والسلطان، وهذا الإستعطاف لا يخرج في حقيقته عن معنى من معاني المدح والثناء وسنورد نموذجا لرسالة أبي جعفر بن عطية التي خاطب بها عبد المؤمن بن علي مستعظفا إياه لفك أسره حيث يقول فيها:

«عَطْفًا عَلَيْنَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ
قَدْ أَغْرَقْتَنَا ذُنُوبٌ كُلُّهَا لُجْجٌ
وَصَادَفْتَنَا سِهَامُ الْبَيْنِ عَنِ عَرْضِ
هَيْهَاتَ لِلْخَطْبِ أَنْ تَسْطُو حَوَادِثُهُ
مَنْ جَاءَ عِنْدَكُمْ يَسْعَى عَلَى ثِقَةٍ
فَالثُوبُ يَطْهَرُ بَعْدَ الْغُسْلِ مِنْ دَرَنِ
أَنْتُمْ بَدَلْتُمْ حَيَاةَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ
وَنَحْنُ مِنْ بَعْضِ مَنْ أَحْبَبْتَ مَكَارِمَكُمْ
وَصَيِّبَةَ كَفْرِ أَخِ الْوُورِقِ مِنْ صِغْرِ
قَدْ أَوْجَدْتَهُمْ أَيَادٍ مِنْكَ سَالِفَةَ

تا الله لو أحاطت بي كل خطيئة، ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطيئة، حتى سخرت بمن في الوجود، وأنفت لأدم من السجود، وقلت: إن الله تعالى لم يوح، في الفلك لنوح، وبريت لقدار⁽¹⁾ ثمود نبلا، وأبرمت لحطب نار الخليل⁽²⁾ حبلا، وحططت عن يونس شجرة اليقطين، وأوقدت مع هامان⁽³⁾ على الطين، وقبضت قبضة من أثر الرسول فنبتتها،

(1) هو عاقر ناقة صالح عليه السلام.

(2) إبراهيم أبو الأنبياء عليه السلام.

(3) وزير فرعون ومستشاره.

الفصل الثاني الرسائل

وافترت على العذراء البتول⁽¹⁾ ففدفتها، وكتبت صحيفة⁽²⁾ القطيعة بدار الندوة، وظهرت الأحزاب بالقصوى، من العدو، ودمت كل قرشي، وأكرمت لأجل وحشي⁽³⁾ كل حبشي، وقلت: إن بيعة السقيفة، لا توجب إمامة خليفة، وشحذت شفرة غلام المغيرة⁽⁴⁾ بن شعبة، واعتقلت من حصار الدار، وقتل أشمطها⁽⁵⁾ بشعبة، وقلت: تقاتلوا رغبة في الأبيض والأصفر⁽⁶⁾ وسفكوا الدماء على الثريد⁽⁷⁾ الأعفر، وغادرت الوجه من الهامة خضيبا⁽⁸⁾، وناولت من قرع سن الحسين⁽⁹⁾ قضيبا، ثم أتيت حضرة المعلوم لأئذا، وبقبر الإمام المهدي⁽¹⁰⁾ عائذا، لقد آن لمقالتني أن تسمع، وتغفر لي

هذه الخطيئات أجمع، مع أي مقترف، وبالذنب معترف

فَعَفُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَنْ لَنَا بِرِدِّ قُلُوبٍ هَذَا خَفَّانُ

والسلام على المقام الكريم ورحمة الله وبركاته⁽¹¹⁾.

تظهر في هذه الرسالة نفس شاعر مرهف الحس، وهو يذوب حسرة لما يلقاه في سجنه من ألم وهوان ولأن النص لم يصلنا كاملا فإننا لا نستطيع أن نرسم ذلك الإطار العام الذي يبدأ به هذا النوع من الرسائل التي يتحدث فيها عن المدح والثناء والتودد كأن يقول فيها: "يا مولاي وسيدي الذي ودادي له، واعتمادي عليه..." غير أن هذا ليس إلا واسطة تتيح له مخاطبة الأمير في الشأن الذي يزعجه ويسد عليه أفاق الأمل إنه السجن ذلك المكان الذي يكابد فيه المحن وأبو جعفر صاحب أسلوب متمكن في طرح قضيته، ويتلخص في الشكوى من عدم التفات عبد المؤمن إليه، وعدم الإسراع إلى فك قيوده، وقد بدأها بالقسم (تا الله)، كما عمد إلى السجع، وهو من عاداته في خطاباته ويظهر في (أحاطت بي كل خطيئة)، (لم تنفك نفسي عن الخيرات بطيئة)، (حتى سخرت بمن في الوجود)، (وأنفت لأدم من السجود)، (إن الله تعالى لم يوح)، (في

(1) هي مريم ابنة عمران وهي أم عيسى عليه السلام.

(2) هي الصحيفة التي كتبها قريش وعلقها في الكعبة لمقاطعة بني هاشم رهط النبي صلى الله عليه وسلم.

(3) قاتل حمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم في غزوة أحد، وكان مولى حبشيا لجبير بن مطعم. وقد أسلم فيما بعد، وهو قاتل مسيلمة الكذاب.

(4) هو أبو لؤلؤة قاتل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(5) أراد بأشمط الدار عثمان بن عفان رضي الله عنه.

(6) المقصود بهما الفضة والذهب.

(7) طعام يصنع من الخبز المقتت ثم يبلل بالمرق في وسط الصحيفة ويجعل له قبة مزينة باللحم.

(8) المقصود به علي كرم الله وجهه.

(9) سبط رسول الله من ابنته فاطمة الزهراء رضي الله عنها.

(10) هو أمير الدولة الموحدية المهدي محمد بن تومرت.

(11) عبد الله كنون النبوغ المغربي في الأدب العربي، ص 476-477.

الفصل الثاني الرسائل

الفلك لنوح)، (وبريت لقدار ثمود نبلا)، (وأبرمت لحطب نار الخليل حبلا)، (وحططت عن يونس شجرة اليقطين)، (وأوقدت مع هامان على الطين)، (وقبضت قبضة من أثر الرسول)، (افتريت على العذراء البتول) كما أن لغته فصيحة سليمة، كما عمد إلى الإطناب في جملة، وقد فاقت أدبيته معاصريه، ونظر صيغ التوسل والرجاء في قوله: (لقد آن لمقالتني أن تسمع، وتغفر لي هذه الخطيئات أجمع، مع أنني مقترف، وبالذنب معترف، فعفوا أمير المؤمنين) فهذه الصيغ قد عبرت عن نفس الكاتب الجريحة وقهره، ومعاناته في سجنه، وقد عبرت هذه الرسالة عن المظهر الذي حاول الكاتب تصويره من واقعه المعاش، وهي نقل لتجربة السجن المرة والقاسية، كما أن مبعثها في نفس الكاتب الأسير الذي لا يدري أي ذنب ارتكبه حتى يعاقب بالسجن وكيف انقلب عليه الأمير الذي قربه منه ذات يوم، وجعله وزيرا لدولته، كما يظهر النفس الشعري في رسالته التي ختمتها ببيت شعري جعل منه نصا واضح المعالم في هذا الفن النثري وهو لا يحتاج إلى مزيد من التعليق.

3- في الصداقة:

كما هو معروف أن الصداقة علاقة إنسانية مقعدة تثير في النفس مختلف المشاعر وتؤدي إلى انفعالات يختلف الناس اختلافا كبيرا في الإبانة عنها، ولذلك فإننا سنتعرض لغرض واحد يساعدنا على تصور عام لبعض مظاهرها الأساسية، ولعل رسالة أبي الحسن علي بن مروان الرباطي، إلى صديقه ابن الربيب المؤرخ، يطلب منه أن يعبره نسخة جلييلة من تاريخ غريب فكتب إليه قائلا: «يا أخي سدد الله أراءك، وجعل عقلك أمامك لا وراءك، ما يلزمني من كونك مضيعا أن أكون كذلك؛ والنسخة التي رمت إعانتها⁽¹⁾ هي مؤنسي إذا أوحشي الناس، وكاتم سري⁽²⁾ إذا خانوني، فما أعيرها إلا بشيء اعلم أنك تتأذى بفقده إذا فقد جزء من النسخة وأنا الذي أقول:

أُوسُ أَخِي الْفَضْلُ كِتَابٌ أُنِيقُ أَوْ صَاحِبٌ يُعْنَى بَوْدٍ وَثِيقُ
فَإِنْ تُعْرَهُ دُونَ رَهْنٍ بِهِ تَخْسَرُهُ أَوْ تَخْسَرُ وَدَادَ الصَّدِيقُ
وَرَبَّمَا تَخْسَرُ هَذَا وَذَا فَاسْمَعْ رَعَاكَ اللَّهُ نَصْحَ الشَّقِيقِ⁽³⁾

(1) طلبت مني أن أعيرك إياها.

(2) حافظ سري.

(3) عيد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي: ج2، ص460-461.

في هذه الرقعة من معاني الصداقة الأخوية ما يدل على قوة هذه الصداقة، ومكانتها رغم قلة عباراتها التي تدل على المواقف العاطفية التي تملئها المناسبات التي يغيب فيها أولئك الأصدقاء، لشأن من شؤون الحياة الكثيرة والمتنوعة، وألفاظها تدل على حقيقة مشاعر الكاتب وصدقه، وهي بعيدة عن الصنعة اللفظية التي لا تعبر عن عاطفة الصداقة الحقيقية، ولا تبني عن أحاسيس الناس ومشاعرهم الدفينة وهناك كلام يؤثر في القلب لأنه صادر عن القلب على الرغم مما فيه من تأنيق لفظي متمثلاً في (أوحشني الناس، كاتم سري إذا خانوني، صاحب يعنى بود وثيق، تخسر و داد الصديق، اسمع رعاك الله نصح الشقيق)، وهناك طباق في النص يتمثل في قوله: (أمامك #وراءك)، (مؤنسي # أوحشني) والجناس في قوله: (سدد الله أراءك)، (جعل عقلك أمامك لا وراءك)، (ما يلزمني من كونك) (أن أكون كذلك)، (النسخة التي رمت إعانتها هي مؤنسي)، (إذا أوحشني الناس) (كاتم سري إذا خانوني)، (كتاب أنيق)، (ود وثيق)، (فإن تعره)، (تخسره)، ولا نكاد نلمح في ما كتبه الكاتب لصديقه صدقا، وإنما هي مراسيم المجاملة بين الإخوان قضاها بهذه الرسالة القصيرة، أما المشاعر الحقيقية فلا وجود لها وليست مبالغة التعبير فيها، قادرة على أن توهمنا بخلاف ذلك وتختتم بأبيات من الشعر من إنشاء الكاتب، مما يدل على ذلك المزج بين النثر والشعر، حيث أن هذه الأبيات من نظم الكاتب نفسه، وبما أن استعارة الكتب النفيسة لا تتم بسهولة خشية ضياعها وإتلافها فإن الرباطي يحرص حرصا شديدا على نسخته وهذا واضح في رقعته، التي امتازت بأسلوبها الصريح والسهل لأن الأمر يتطلب ذلك، ولكن هذا لم يفقد النص رونقه الأدبي.

4- في الاعتذار:

يعتبر الاعتذار ضربا من ضروب النثر الأدبي، الذي يشمل العفو، والاستعطاف وقد يكون الاعتذار إما عن منصب كبير في الدولة، أو عن حضور مجلس سمر أو أنس ويتفنن الكاتب في اختيار أحسن العبارات التي تخدم الموضوع والتي تؤثر في النفوس، ومنها رسالة أبي جعفر بن سعيد في الاعتذار عن الحضور لمجلس أنس حيث يقول فيها: «سيدي ساعدك سواك لما وصل إلى أخيك المعتد رسولك، قابله بما يحب من القبول، وأبدى له من الشغل ما منع من الوصول:

وَمَنْ ذَا الَّذِي يَدْعِي لِعَدْنٍ فَلَا يَرَى
عَلَى الرَّأْسِ إِجْلَالًا إِلَيْهَا يُبَادِرُ
ولكن الاضطراب، لا يكون معه اختيار، وإني لأشوق الناس إلى مشاهدة تلك المكارم
وأحبهم في محاضرة تلك الآداب المترادفة ترادف الغنائم، ولكن شغلني عارض قاطع،
وبرغمي أني لدعوتك عاص وله طائع، وأنني بعد ذلك لحامل عن تلك السجينة الكريمة
في الغفران مستجير بالخلاص الذي أعهد من خرق فلان، ومكر فلان، فإني متى غبت
لا أعدم مترصدا فرحة يقع عليها ذبابة، ومستجمعا إذا أبصر فرصة سل عليها ذبابة:
وَلَكِنِّي أَدْرِي بِأَنِّي نَازِحٌ وَدَانَ سَوَاءٌ عِنْدَ مَنْ يَحْفَظُ الْعَهْدَا
وإني لأقول وقد غبت عن تلك الحضرة العلية، وجانبت ذلك الجنب السامي والمثابة
السنية:

لئن غبتُ عن من نُورُهُ نُورٌ نَاطِرِي فَحَسْبِي لَدَيْهِ أَنْ أُغْيَبَ
عِقَابًا
وَسَوْفَ أَوْافِيهِ مُقْرًا بَزَلْتِي وَفِي حِلْمِهِ أَنْ لَا يَطِيلَ
حَسَابًا». (1)

والملاحظ على هذه الرسالة من الوهلة الأولى أنها وجهت إلى شخصية كبيرة أعلى
منزلة من الكاتب لما فيها من ذكر الصيغ التي تعبر عن رفعة السمو (الحضرة العلية،
الجنب السامي، المثابة السنية) ويعالج فيها اعتذاره الشديد عن قبول دعوته التي شرفته
لانشغاله بأمر ما، وقد تفنن في اختيار الألفاظ الاعتذار التي خاطب بها سيده (إني لأشوق
الناس إلى مشاهدة....، إني لدعوتك عاص، وله طائع)، وهذه الرسالة بسيطة حتى أننا
نلمس في بعض مقاطعها كأنها ضرب من ضروب التراسل الشائع بين الأدباء، والكاتب
في رسالته لا يقصد تقدير البراهين على الطاعة التامة والولاء الكامل، وإنما يصور نفسه
القاهرة التي استدعتها الظروف لهذا وأجبرتها على عدم تلبية هذه الدعوة، وسواء كان
الباعث على هذا الأسلوب الاعتذاري هو الوفاء لولي النعمة والإخلاص لصاحب الفضل
الأول أو مجرد سياسة يأمن بها الكاتب على نفسه مكيدة واحد من صحابته، كما أنها
مزيج بين نصين أدبيين الشعر والنثر، وقد نمقها بالسجع في قوله: (سيدي ساعدك
سواك)، (وصل إلى أخيك المعتد بك رسولك)، (يحب من القبول)، (ما منع من الوصول)

(1) حكمت علي الأوسي: الأدب الأندلسي في عصر الموحدين، ص 182-183.

الفصل الثاني الرسائل

،(مشاهدة تلك المكارم)،(المتراذفة ترادف الغنائم)،(شغلني عارض قاطع)،(إني لدعوتك عاص وله طائع)،(الحضرة العلية)،(المثابة السنية) وجمل النص قصيرة، ولكنها معبرة، وأسلوب النص خبري قصد منه الإخبار بحاله، ووصفها لسيدته لإقناعه بسبب عدم تأييده لدعوته.

ما ألمسه من الكتابة الفنية في عصر الموحدين هو تلك المكانة المرموقة التي وصل إليها كتاب الدولة الموحدية حيث أنهم وضعوا كل ما جادت به أناملهم في هذه الرسائل بنوعيتها الرسمية والأدبية، حتى أنهم تسابقوا في احتلال المراكز المرموقة والكبرى في الدولة، وذاع صيتهم في المغرب والمشرق، كما تنوعت أساليبها الفنية حيث أن الكتابة الرسمية تنوعت أساليبها بتنوع مقاماتها والجهة التي تصدر عنها هذه (ديوان خليفي، أو أميري أو كتابة موجهة إلى الحضرة الإمامية أو إلى جهة أخرى) وكل واحدة منها لها أسلوبها الذي يناسب إصدارها كما عمد كتابها إلى إبراز القدرات ولا سيما في مجال عرض المعلومات والمعارف بحسب الموضوعات تناسباً مع المضامين، مع النزوع إلى الصنعة في الأسلوب، ولا سيما السجع مراعاة لطبيعة المتلقي، ونلمس الثقافة الدينية ولا سيما القرآنية منها فنجد هذا في رسائل المهدي التي تتعلق بدعوة الموحدين التي يغلب عليها الاستشهاد بالقرآن الكريم، وفيها الأسلوب القصصي والرواية التي كتبها في التبشير بالدعوة، وجاء الاعتماد على الأسلوب القرآني، أو الاستشهاد بالقرآن لنقوية المضمون وتعزيز الحجة والتأثير في نفوس المتلقين لها، بوصف القرآن الكريم بأنه الحجة الدامغة التي لها وقعها في عقول الناس، وقد عرفت الرسائل الأدبية تطوراً ملحوظاً وامتاز كل واحد من كتابها بخصائص أسلوبه فهذا أبو جعفر بن عطية الكاتب (المخضرم) صاحب الأسلوب المتميز، والعبارات المؤثرة التي لمسناها في رسالته الاستعطافية إلى عبد المؤمن بن علي وتلك المزاجية بين الشعر والنثر، وأسلوبه الرائع الذي عمد فيه على المحسنات البديعية.

إن هذا الأسلوب يوحى لنا بأن مدرسة التصنيع اللفظي التي عهدناها في المشرق عند أعلام الكتابة الفنية في القرن الرابع الهجري أمثال (ابن العميد) و (أبي اسحاق الصابي) لها أنصارها وتلامذتها في المغرب كأبي المطرف بن عميرة الذي يتبع أسلوباً واحداً في رسائله، رغم اختلاف أغراضها الأخوانية، وإنما ينوع أساليب هذه الرسائل،

؟

الفصل الثاني الرسائل

وذلك مراعاة للأحوال، والمقامات وبهذا جاءت مستويات الكتابة متفاوتة في السهولة والصعوبة بحسب تفاوت درجات المخاطبين في هذه الرسائل، فهو يعقد حين يكون الخطاب موجها إلى أديب من منزلته الأدبية والعلمية أو يقترب منها ويبسط حين يكون الخطاب موجها إلى سلطان أو إلى من هو أدنى مرتبة منه في الحكم أو في الأدب، والملاحظ على هذه الرسائل التي تعرضنا لها بالدراسة والتحليل هو اصطباغها بالصبغة المشرقية، كما اختلفت في موضوعاتها المعالجة وهذا دليل على ذلك التفوق الأدبي الذي وصل إليه الموحدون، نتيجة ذلك الاهتمام الذي أولاه ملوكهم إلى الأدب والأدباء، حيث تبنت مشروع الكتابة والكتاب وأولته العناية الفائقة التي لا مزيد عليها، حتى أنها أمرت بقراءة الرسائل الموحدية في محافلها، والتبرك بها وإظهار البهجة ببشارتها، بل حتى بحفظها تعظيما لشأنها، وتقديرا لها، فلا يسعنا إلا أن ندهش لهذا التوازي العجيب بين مشروع الموحدين الحضاري وكتابة كتابهم التي عبرت عن الفرح والضييق في نفس الوقت.

تعد المناظرة من الفنون الأدبية التي لم تلق اهتماماً من الباحثين، مع أنه فن قديم النشأة، والمتصفح لكتب الأدب، والتراجم يلاحظ وجود مناظرات كثيرة بين النحاة اللغويين والشعراء، وأصحاب المذاهب ورجال الدين كانت تقام بمساجد المدن الكبرى في الحلقات العلمية، وفي الأسواق، وفي مجالس الملوك والأمراء، وتراثنا العربي بمصادره الأدبية زاخر بهذا الفن، ولعل أبرزها تلك المناظرات الواردة في كتاب الإمتاع والمؤانسة لصاحبه أبي حيان التوحيدي.

1- المناظرة لغة:

المناظرة: أن تتناظر أخاك في أمر إذا نظرتما فيه معا تأنياناً، والمنظر، والمنظرة: ما نظرت إليه فأعجبك أو ساءك، والمناظر: أشرف الأرض لأنه منها، وتناظرت الداران، تقابلتا، ونظر إليك الجبل قبلك، وإذا أخذت في طريق كذا فنظر إليك الجبل فخذ عنه يمينه أو يساره، وقوله تعالى: ﴿وَتَرَاهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ، وَهُمْ لَا يُبْصِرُونَ﴾⁽¹⁾، وذهب أبو عبيدة إلى أنه أراد الأصنام أي تقابلتك، وليس هناك نظر لكن لما كان النظر لا يكون إلا بمقابلة حسن وقال: وتراهم، وإن كانت لا تعقل لأنهم يضعونها موضع من يعقل⁽²⁾، والتناظر توقع ما تنظره، والنظيرة بكسر الظاء: التأخير في الأمر، وفي التزليل العزيز ﴿فَنَظْرَةٌ إِلَى مَيْسَرَةٍ﴾⁽³⁾، وقرأ بعضهم: فناظرة كقوله عز وجل: ﴿لَيْسَ لَوْعَتِهَا كاذِبَةٌ﴾⁽⁴⁾ أي تكذيب، والتناظر: التفاوض في الأمر، ونظيرك الذي يفاوضك وتناظره وناظره من المناظرة والنظير المثل، وقيل: المثل في كل شيء، وفلان نظيرك أي: مثلك لأنه إذا نظر إليهما الناظر رآهما سواء.⁽⁵⁾

قال الجوهري: ونظير الشيء مثله، وحكى أبو عبيدة، النظر والنظير بمعنى مثل الند والنديد.⁽⁶⁾ وقال الفراء: يقال نظيره قومه. نظورة قومه الذي ينظر إليه منهم، ويجمعان على نظائر، وجمع النظير نظراء، والأنثى نظيرة، والجمع النظائر في الكلام والأشياء كلها.⁽⁷⁾

(1) الأعراف: 198.

(2) ابن منظور: لسان العرب، م، 5، مادة نظر.

(3) البقرة: 280.

(4) الواقعة: 2.

(5) ابن منظور: لسان العرب، م، 5، مادة نظر.

(6) المرجع نفسه: مادة نظر.

(7) المرجع نفسه: مادة نظر.

وقال عدي: لم تخطيء نظارتي أي: لم تخطأ فراستي، والنظائر: جمع نظيرة، وهي المثل، والشبه في الأشكال، والأخلاق والأفعال، والأقوال، ويقال: لا تناظر بكتاب الله، ولا بكلام رسول الله وفي رواية، ولا بسنة رسول الله.⁽¹⁾

فتدعهما وتأخذ به؛ يقول لا تتبع قول قائل من كان وتدعهما له، ويجوز أيضا في وجه آخر أين يجعلهما مثلا للشيء، ويقال: ناظرن فلانا أي صرت نظيرا له في المخاطبة، وناظرن فلانا بفلان أي جعلته نظيرا له، ويقال للسلطان إذا بعث أمينا يستبيري أمر جماعة قوية، بعث ناظرا.⁽²⁾

أما صاحب أساس البلاغة فيعرفها كما يلي: نظر فلان ونظرت إليه نظرة حلو، ونظرات ونظرت في المنظر وهو المرأة، ونظرته وتنتظرته وانتظرته وأنظرته: أنسأته، واستنتظرته، ورجل منظور: معين، وبه نظرة، ونظر الدهر إليهم أهلكتهم، ونظر: متجاوزون ينظر بعضهم بعضهم إلى بعض، وبيننا نظر أي قدر في القرب، ونظر إليك الجبل أي قابلك ودورهم تتناظر، وهو نظيره بمعنى مناظره أي مقابله وممثاله، وهم نظراؤه وهي نظيرتها، وهن نضائر: أشباه.⁽³⁾

وقال الزهري: لا تناظر بكلام الله ولا بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي لا تقابل به، ولا تجعل مثلا له وما كان نظيرا لهذا، ولقد أنظرته، وما كان خطيرا، ولقد أخطرت وأنا أنظر إلى الله ثم إليك معناه أتوقع فضل الله ثم فضلك، وناظرته في أمر كذا إذا نظر، ونظرت كيف تأتيه، وفلان شديد الناظر إذا كان بريء الساحة مما قرف به وضربناه من نظر وبنظر أي أبصرناه، ورجل نظور: لا يغفل عن النظر فيما أهمه.⁽⁴⁾

وهي عند صاحب المحيط: تناظر تقابلا، وناظره صار نظيرا له، وفلانا بفلان جعله، نظيره ومهنة قول الزهيري: لا تناظر بكتاب الله، ولا بكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم، أي لا تجعل شيئا نظيرا لهما أو معناه، لا تجعلهما مثلا لشيء لغرض لقول القائل جئت على قدر يا موسى، المسمى بموسى جاء على وقت مطلوب.⁽⁵⁾

(1) ابن منظور: لسان العرب، م5، مادة نظر.

(2) المرجع نفسه: مادة نظر.

(3) الزمخشري: أساس البلاغة، مادة نظر.

(4) المرجع نفسه: مادة نظر.

(5) الفيروز أبادي: القاموس المحيط، مادة نظر.

يفهم من المعنى اللغوي للمناظرة أنها تتجلى في اشتراك شخصين في جدال حول موضوع معين بحجة اثبات وجهة نظر إي منهما.

* كما تعني أيضا مقابلة شخصين أو شيئين وتماتلها أمام بعضهما للتفاخر فيما بينهما في وقت واحد.

* تعني أيضا تنافس شيئين فيما بينهما.

* تعني أيضا اشتراك شخصين في الأشكال والأفعال والأقوال والأخلاق.

2- المناظرة اصطلاحاً:

المناظرة «هي النظر من جانبين في مسألة من المسائل قصد اظهار الصواب فيها»⁽¹⁾. ويقصد بها «النظر بالبصيرة من الجانبين في النسبة بين الشئيين اظهارا للصواب»⁽²⁾ وهي فن من فنون النثر التي أبداع فيها أدباء العرب، سواءً كان ذلك بأقلامهم أو بأقوالهم، وأكثروا القول فيها، فيهدف الكاتب من ورائه إلى إظهار قدرته البيانية، وبراعته الفنية، من ناحية اختياره للأسلوب الراقى، أو الموضوع الذي يكتب فيه، ومن المناظرات ما يأتي على صورة رسالة يدور فيها الحوار بين شيئين أو أكثر، أو بين شخصين حول موضوع معين، ومنها ما يأتي على صورة أشبه بالمقابلة الحديثة، و على التفاخر، والمباهاة بشيء ما، بقصد الإشادة به، وبيان فضائله ومناقبه⁽³⁾ وهي بهذا تمثل تلك المحاوراة القائمة بين شخصين في مسألة ما كل واحد يرى فيها رأيه، ويكون الغرض منها الوصول إلى الصواب في الموضوع الذي اختلفت فيه أنظار المتناقشين، ويمكن أن تنقلب المناظرة جدلاً، إذا احتد الصراع الكلامي بين المتناظرين، كما يمكن أن تشمل المناقشة على جدل، ومناظرة معاً، كأكثر المحاورات السقراطية التي كانت تقام في اليونان قديماً حيث كان سقراط يبتدئ بمجادلة خصمه فيما يدعيه، حتى ينهزم، فيقتنع بجهله، ثم يناقشه حتى يأخذ بيده إلى الحق»⁽⁴⁾.

ولقد عني العلماء عناية بعلم الجدل والمناظرة عناية شديدة، خاصة بعد أن نشب الخلاف بين علماء اللغة، ورجال الفكر حول قضايا فكرية ولغوية، وعلمية وأدبية،

(1) طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الرباط، ط2، 2000، ص 46 .

(2) محمد المنوني: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ص 119.

(3) عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص 469.

(4) الإمام محمد أبو زهرة: تاريخ الجدل، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1934، ص6.

ونتيجة هذا الصراع القائم بين هاتين الطائفتين فقد اجتهدوا في وضع قواعد لتنظيم الجدل والمناظرة لكي يكونا في دائرة المنطق والفكر المستقيم، وأسموها علم الجدل، أو علم أدب البحث والمناظرة، وقد قال ابن خلدون رأيه في هذا: «أما الجدل وهو معرفة آداب المناظرة التي تجري بين أهل المذاهب الفقهية، وغيرهم، فإنه لما كان باب المناظرة في الرد والقبول متسعا، وكل واحد من المتناظرين في الاستدلال والجواب يرسل عنانه في الإحتجاج، ومنه ما يكون صوابا ومنه ما يكون خطأ فاحتاج الأئمة إلى أن يضعوا آدابا، وأحكاما يقف المتناظران عند حدودها في الرد والقبول وكيف يكون مخصوصا منقطعا، ومحل اعتراضه أو معارضته وأين يجب عليه السكوت لخصمه في الكلام والإستدلال، ولذلك قيل فيه أنه معرفة بالقواعد من الحدود والآداب في الإستدلال التي يتوصل بها إلى حفظ رأي أو هدمه، سواء كان ذلك الرأي من الفقه أو غيره»⁽¹⁾.

وبما أن المناظرة والجدل علمان مقترنان ببعضهما مع أنهما علمان كل قائم بذاته، فيمكن أن يكون الجدل بهذا المصطلح في اللغة، ولكن يراد منه المناظرة كقوله تعالى: ﴿وَجَادِلْهُمْ بَالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾⁽²⁾، وقوله أيضا: ﴿وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا الَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾⁽³⁾.

واضح أن الجدل في الآية الأولى يرفض كل ما من شأنه أن يحول دون إظهار الحقيقة، وإدراكها مع تجنب الإفتراء الملق، كل المحاولات التي من شأنها أن تعمل على إخفاء الحق وطمسه، بالخصومات الصاخبة، والمغالطات المفتعلة، والمناورات المدبرة.

أما في الآية الثانية فإن الجدل يستلزم من صاحبه آدابا عالية، فقد طرح موضوع الجدل على أنه مخاطبة صاحبه برفق، والتدرج به لإدراك ما فيه من إيجابيات، وسلبات برفق ولين، والنظر إليه بعدسات فاحصة، مع التأمل في أصوله، وجزئياته بتبصر وتدقق والقرآن الكريم بمطالبته بالجدال بالتي هي أحسن قد زود الأمة بالمنهج

(1) عبد الرحمن بن خلدون: المقدمة، ص 439.

(2) النحل: 125.

(3) العنكبوت: 46

الأقوم الذي يجب على المسلمين سلوكه في كل زمان ومكان في كمل موضوع يطرح، وفي كل حادثة تجد، مع أي فريق داخليا أو خارجيا.

ولو رجعنا إلى المعنى اللغوي لمصطلح الجدل في المعاجم العربية، فإننا سندرك المعنى الذي تحمله هذه الكلمة.

الجدل: مقابلة الحجة بالحجة، والمجادلة: المناظرة والمخاصمة، والمراد بها في الحديث الجدل على الباطل، وطلب المغالبة به لإظهار الحق، فإن ذلك محمود، ويقال: إنه لجدل إذا كان شديد الخصام، وإنه لمجدول وقد جادل قال تعالى: ﴿وَقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا، وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ﴾⁽¹⁾ وهما يتجادلان في ذلك الأمر⁽²⁾. وقوله تعالى: ﴿وَلَا جِدَالَ فِي الْحَجِّ﴾⁽³⁾.

فالجدل يعني تلك المنازعة الكلامية، لأن كل واحد من المتجادلين يكشف وجهة نظره في استجماع قواه العقلية بإبراز المؤيدات وإظهار الشواهد والبراهين لبيان وجهة ما ذهب إليه من رأي وما اعتنقه من مبدأ، وإحقاق الهزيمة بمخالفة، والجدل في الاصطلاح هو «قول يقصد به إقامة الحجة فيما اختلف فيه اعتقاد المتجادلين»⁽⁴⁾. من خلال ما سبق نفهم أن المناظرة أو الجدل تنتمي إلى الخطاب الاحتجاجي، الذي لقي عناية كبيرة من الدارسين المحدثين والنقاد، والأدباء ولوعدنا إلى كتب الأدب، خاصة في القرنين الثالث والرابع، فإننا نجد أنها قلما تخلو من مناظرة أو من إشارة إليها، ولكي تقوم المناظرة على أحسن صورة وجب لها وجود أخلاقيات يتحلى بها كل من المتناظرين، وتكمن في شروط تتمثل فيما يلي:

2- أخلاقيات المناظرة:

2/1- أن يكون المتناظرين متقاربين معرفة ومكانة، حتى لا يؤدي استعظام أحدهما الآخر أو استحقاره له، حتى يضعف عن القيام بحجته، أو التهاون فيها.

2/2- أن يمهل المناظر خصمه حتى يستوفي مسألته كلها، كي لا يفسد عليه ترتيب أفكاره وتشتتها وحتى يفهم مراده من حجته، كي لا يقوله ما يقل.

(1) المجادلة: 1.

(2) ابن منظور: لسان العرب، م 11، مادة جدل.

(3) البقرة: 197.

(4) قدامة بن جعفر: نقد النثر، ص 117.

2/3 أن يتجنب المناظر الإساءة إلى خصمه بالقول أو الفعل بغية إضعافه عن القيام بحجته، بعدم الإصغاء إليه، والسخرية منه، وتخجيله بفضح عيوبه، والتطاول عليه بالتقصيص والشتيم.

2/4- أن يقصد المناظر الإشتراك مع خصمه في إظهار الحق، والإعتراف به، حتى لا يتباهى به إذا ظهر على يده، ولا يعاند فيه إذا ظهر على يد خصمه.

2/5- أن يتجنب المناظر محاورة من ليس مذهبه إلا المضادة، لأن من كان هذا مسلكه لا ينفع معه الإقناع.⁽¹⁾

وبهذا فالمناظرة بنية نصية واحدة تحتوي خطابين متباينين يتبادلان الأدوار الكلامية، ينتمي كل منهما إلى أحد الطرفين المتناظرين.⁽²⁾

والجدل ينقسم إلى قسمين «أحدهما محمود، والآخر مذموم، فأما المحمود فهو الذي يقصد به الحق ويستعمل به الصدق، وأما المذموم فما أريد به المهارة والغلبة، وطلب به الرياء والسمعة».⁽³⁾

والجدل الممدوح هو ما اتبعه الأنبياء الكرام مع أقوامهم من طرق بيانية في سبيل نشر ما كلفوا به من دعوات من الله سبحانه وتعالى، فكانوا يقومون بمناظرات، ومحاورات، ومناقشات يعرضون فيها ما تيسر لهم من بينات وحجج، وما توفر لديهم من مؤيدات، وبراهين، يردون بها على ما يلاقونه من مواجهات مع أقوامهم، من أجل إظهار الحق ورفع راية الدين الإسلامي الذين ينادون باتباعه، وإزهاق الباطل الذي يطالبون بتجنبه وفق المبدأ الذي يدعو إليه القرآن قال تعالى: ﴿بَلْ نَقْذِفَ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ، فَيُدْمِغُهُ، فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ﴾⁽⁴⁾

أما الجدل المذموم فيمكن أن ننسبه إلى الكفار لأنه جدال باطل يعمد إلى تغطية الحق وطمسه بدل إظهاره، والدفاع عنه قال تعالى: ﴿وَيَجَادِلُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ﴾⁽⁵⁾.

(1) طه عبد الرحمن: في أصول الحوار وتحديد علم الكلام، ص 74-75.

(2) عبد الله العشي: زحام الخطابات، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، المدينة الجديدة، تيزي وزو 2005، ص 36.

(3) قدامة بن جعفر: نقد النثر، ص 117.

(4) الأنبياء: 18.

(5) الكهف: 56.

3- تطور أدب المناظرات:

تعتبر المناظرات من العلوم الكلامية القديمة التي ظهرت مع ظهور الإنسان حتى أنها مقترنة به، لأن الإنسان في هذه الدنيا معرض للنزاعات والمشاجرات والخصومات التي من شأنها أن تتضمن له البقاء، والترفع عن ما من شأنه أن يحط من كرامته، وتعود أول مناظرة جرت في التاريخ بين الملائكة صلوات الله عليهم أجمعين وبين إبليس لعنة الله عليه عند ما طرده الله عز وجل عن بابه عندما أمره مع جملة من الملائكة بالسجود لآدم فسجد الملائكة لهم إلا إبليس، الذي جمع ثلاث قواعد، وعمل بها ضد بني آدم فقاعدتين لأهل العصيان والمخالفات وقاعدة لأهل الكفر والظلال⁽¹⁾ قال تعالى: ﴿إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ، وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾⁽²⁾

فالإيذاء والإستكبار في الآية هما قاعدتان لأهل العصيان، وقد اتبع فيهما هواه بغير هداية ورفض أمر الله سبحانه وتعالى حيث قام هنا مقام الإعتراض مجاهرا بذلك، ولم يَأْب لقول الله تعالى، وهناك مثال آخر لمناظرة نوح عليه السلام مع قومه الكافرين، حيث أقام مع أمته الفاسقة ألف سنة إلا خمسين عاما يدعوهم إلى المعرفة بحدوث العالم (الكون)، وصفة الخالق، يناظرهم عليها، ويجادلهم في تصحيحها إلى أن قالوا: ﴿يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا، فَاكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتَنَا بِمَا تَعَدْنَا إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادِقِينَ﴾⁽³⁾

هذا مثال على وجود المناظرة منذ القديم خاصة أنها كانت تشمل على نص صغير أو كبير يشمل حوارا بين شخصين، وأحيانا أكثر، فكل من الإثنين يخالف الآخر في الموضوع المطروح للمناقشة ويتبنى فرضية تخالف فرضية الخصم، ويحاول دعمها بالحجج والبراهين، أما في العصر الجاهلي فنلاحظ ذلك الصراع القائم بين الديانات الثلاث (الوثنية واليهودية والنصرانية) هو ناتج عن نزعاتهم الفكرية، واتجاهاتهم العقلية، وفيهم يقول رينان (RINAN): « إن الأمم السامية كلها على اختلاف نزعاتها أمم قصيرة الخيال، جافة التصور، تدرك الأشياء إدراكا أوليا، ولا تتعمق في بحثها؛ ولا تسترسل في كشف الحقائق ومعرفتها، وتحكم على الأشياء لأول وهلة، حكم المعتقد الجازم بصحة الشيء الذي أقنعته التجارب والبراهين القطعية، خيالاتها

(1) أبو علي عمر السكوني، عيون المناظرات، تح: سعد غراب، منشورات الجامعة التونسية، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، 1976، ص15.

(2) البقرة:32.

(3) هود:32.

محدودة وإدراكاتها محدودة، ونظمها الاجتماعية معروفة محدودة، لا تعرف الانتقال، غير قابلة للمرونة، وغير أهل للتقدم، ليس في نظم حكومتها ما يدل على سعة الإدراك، ولا على أثر التفكير، وليس لها في علم الأدب والفنون، أثر يذكر لما تركته الأمم الأخرى مما يدل على مجدها، ومظاهر الرقي في الاجتماع، وفي باب الفنون»⁽¹⁾، وقال أيضا: «إن الأمم السامية لا فلسفة لها، ولا أثر للقوانين والنظم فيها، وإن الشرائع التي أرشدت العالم ومحت منه ظلمات الجهالة لا وجود لها عند الأمم السامية، ويرى هذا في بلاغتهم، لأن الشعر العربي يعوزه الاختلاف، والتنوع، فموضوعات الشعر محدودة قليلة العدد جدا عند الساميين»⁽²⁾.

يظهر من هذا الكلام أن رينان يصف العرب بالقصور الفكري، ويعتبر ذلك طبعاً فيهم، ولازمة من لوازمهم التي لا تفترق عنهم، والحقيقة أننا نراه قد أنكر على العرب بلاغتهم في كلامهم وخيالهم الشعري الواسع، فقد اعتبر عدم تنوع شعرهم دليلاً على نقص تفكيرهم بالطبيعة والسليقة، مع أن التاريخ الأدبي العربي وصفهم بأنهم أقوى الأمم أدبا، وأكثرها إنتاجا، ولا ينكر عليهم أي نتاج أدبي، وقد برعوا في الشعر والنثر براعة كبيرة، غير أن هذا النقص في بعض الأمم العربية يعود إلى واقع البيئة الفكرية حيث أن الأمم الأخرى ظهر فيها الشعر القصصي، والشعر التمثيلي، وهذان النوعان الأدبيان لا يسودان إلا في أمة لها علوم وتسود فيها الكتابة، والتدوين، وبلاد العرب كانت أمة أمية، علومها تجارب من الحياة ودراستها تلقين منها، ومعارفها تؤخذ باللسان والمشاهدة، والتمرس بالحياة، وأحوالها. ولقد كان لذلك التجاور بين الفرس والرومان، واختلاطهم بهم في التجارة أقوى عامل على نشاط علم المناظرات، نتيجة تلك المحاورات التي كانت تقام بينها من أجل نشر ديانتها حيث أخذ أصحاب هذه الديانات يتنازعون من أجل أن يجذب إليهم أكبر فئة من الناس تتبعهم، وقد كان للنصارى أثر في بلاد العرب، حيث دخل كثير من العرب في النصرانية فانتقلت إليهم بعض الثقافات التي كانت عند النصارى، كما كانوا متأثرين بفلسفة اليونان، فلا غرابة من أن تصل آثار هذه الثقافات إلى النفوس العربية، وتؤثر في عقولها، وقد أثار

(1) محمد أبو زهرة: تاريخ الجدل، ص 12-13.

(2) المرجع نفسه: ص 13.

النصارى حركة جدال ونقاش قوية، كما لعبت المجوسية دورها حيث سرت في كثير من أفكارهم إلى بعض الذين دخلوا في الإسلام وبقيت مسيطرة على أفكارهم ومستولية على شعورهم، مع أنهم ارتضوا الإسلام ديناً لهم، ومنهم من دخلوا في الإسلام ظاهراً، وأضرموا تلك النحل باطناً، ومهما كان السبب، ومهما تعددت الديانات واختلفت العقائد، فإن الصراع سيبقى قائماً، والحقيقة من شأنها أن تخلق اضطراباً كبيراً، في أوساط المجتمعات، مهما كان هناك خلاف قائم، وماداموا لم يجتمعوا على رأي واحد، ولم ينتهوا معه إلى قول يطمئن إليه القلب، وطبيعي أنه إذا اجتمع أهل ديانة مختلفة على مسرح الأحداث، فلا بد أن هذا الاحتكاك سيشتد بينهما حتى يأخذ صورة الجدل، فتتقارع السيوف بدل مقارعة الحجج.

والتاريخ يروي أن البلاد العربية قد شهدت هذا النوع من الاحتكاك، حيث كانت القبائل العربية مجاورة للقبائل النصرانية، حيث كان القساوسة والرهبان يردون الأسواق العربية ويعظون، ويبشرون ويذكرون بالبعث والجنة والنار، وقد رفض العقل العربي كل هذا، لذلك تصدى للنصارى، وأبطل إدعائهم وقد روى لنا التاريخ مناظرة تصور ذلك الالتحام حيث «أراد الأساقفة أن ينصروا المنذر الثالث ملك الحيرة حوالي عام 513م، وأن المنذر كان يصغي إليهم فدخل عليه قائد من قواده، فأسر إليه بضع كلمات، ولم يكذب ينتهي منها حتى بدت على أسارير الملك أمرات الحزن العميق، فتقدم إليه قسيس من القساوسة، يسأله عما أشجاه فأجابه الملك: يا له من خبر سيء، لقد علمت أن رئيس الملائكة قد مات، فوحسرتاه عليه، فقال القسيس: هذا محال، وقد غشك من أخبرك، فإن الملائكة خالدون يستحيل عليهم الفناء فأجابه الملك: أحق ما تقوله؟ وتريد أن تقنعني بأن الله ذاته يموت»⁽¹⁾.

إن الشيء الملاحظ على هذه المناقشة أنها تلمح بقوة العقل، التي ترد أعقد المسائل إلى أقرب البديهيات عند الإنسان، ليدركها النظر السليم، وتفحم المجادل العنيد، حيث أن سذاجة العربي، وفطرته القوية غلبت على التفكير المعقد للنصارى، وحلت عقده، وبينت له ما ينبغي أن يدركه الفكر القويم، والنصارى مقتنعون بحجتهم، وملحون عليها،

(1) محمد أبو زهرة: تاريخ الجدل، ص35.

من أجل تحطيم عقدة العرب في عبادة الأوثان، وإنكار البعث، وغيرها من العقائد العربية.

وكذلك جدل العرب مع اليهود حيث كانوا ينظرون إلى العرب على أنهم دونهم وأنهم تافهون لا قيمة لهم في هذه الحياة، وأنهم شعب الله المختار، فاشتد الصراع بينهم، وساءت معاملتهم معهم، لذلك كثرت المجادلات والمخاصمات، وقد أشار القرآن الكريم إلى هذا حيث قال تعالى في شأنهم: ﴿وَلَمَّا جَاءَهُمْ كِتَابٌ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا مَعَهُمْ، وَكَانُوا مِنْ قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى الَّذِينَ كَفَرُوا فَلَمَّا جَاءَهُمْ مَا عَرَفُوا كَفَرُوا بِهِ﴾ (1).

هذه صورة مصغرة لجدل المشركين مع تلك الطوائف الدينية التي تسعى إلى نشر عقيدتها بين الناس، ولكن هذا الدين كان مرفوضا عند البعض، ومقبولا عند البعض، فنتج عن ذلك منافسات، ومنازعات، لم تتوحد فيها مشاعر الناس، ولم تجمع بينهم عادات وتقاليد، فنفروا من دعوتهم، ورفضوا كل ما يدعون إليه، وبمجيء الإسلام اشتدت صورة الجدل خاصة أن الرسول صلى الله عليه وسلم جاء بدين جديد غير بعض عاداتهم وتقاليدهم السيئة، وأكمل ما جاءت به الديانات التي كانت في البلاد العربية، حيث جاءهم بعبادة إله واحد ونهى عن عبادة هذه الأوثان التي يصنعونها، فدعا إلى الإيمان بحياة أخرى، فيها يجزى الإنسان بالخير أو الشر، حسب ما عملت يداه، وبذلك خالف ما كان عليه بعض المشركين من إنكار البعث والنشور، فأحدثت دعوته حركة فكرية جدلية واسعة النطاق، وقد انحصر جدله صلى الله عليه وسلم في ثلاث نواح هي:

أ- جدل النبي صلى الله عليه وسلم مع المشركين.

ب- جدل النبي صلى الله عليه وسلم مع اليهود والنصارى.

ج- جدل العرب والروم والحبشة مع بعض القرشيين.

وقد اتبع رسول الله في مناظراته مع هذه الطوائف الدينية المعاملة الحسنة، والرفق بهم، كما كان عطوفا عليهم، رحيفا بهم، يلزمهم بما عندهم، يستند بالقرآن حجة وبرهانا ويعمل به فيدخل إلى القلوب المتحجرة، فتطمئن له النفوس وتخضع له القلوب، لسحر القرآن، وصورته التي تجسدت في آياته الكريمة التي كانت أسمى من خطابة العرب وشعرهم الفصيح، حيث أن أسلوب القرآن طريق للاقناع والتأثير، واستخدام القصص

(1) البقرة: 89.

القرآني كأدلة على بطلان ما يعتقدوه المشركين، ووجه نظر المجادل أو القارئ إلى الحقائق دون إلزامه بذلك فهذه العبارات التي تخاطب الوجدان، وتمس مواطن الإحساس، مهما تنوعت المناهج، وتكررت المعاني فيها دون فقدتها لجديتها، وأفصاحتها قد وصلت إلى صورة الاستدلال الذي يرد كثير من المسائل الغامضة فيه إلى أمور بديهية معروفة، أو إلى حقائق مشهورة ومألوفة.

وفي العصر الأموي انقسمت الأمة العربية إلى طائفتين خاصة بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم، إما كان السبب في ذلك الخلافة وطلب الملك، أو إحياء للعقائد الدينية القديمة التي أسقطها الإسلام، ورجوع العصبية القبلية واستيقاظ نار الفتن على الوحدة الإسلامية حيث ظهر ذلك في حروب الردة، وما خمدت في عصر الخلفاء، اسقطت الفتن الإسلامية التي كانت نيرانها تشتعل ولهيبها يتأجج في عهد الأمراء الأمويين، وخروج طوائف عديدة وفرق كثيرة عن بني أمية فاختلوا على الإمامة، وما من شأنه أن يخلف البلاد، فاختلف المسلمون فيما بينهم وتعددت آراؤهم، وتخللتها مناقشات ونزاعات، واستمر الجدل في شأن الخلافة زمنا طويلا حتى كان التحكيم، فانشقت الوحدة العربية وفي وسط ذلك الاضطراب السياسي ظهر اضطراب فكري، لا يقل عنفا عن هذا الاضطراب، وكان يستمد منه القوة والحياة، وكثرت المسائل التي كانت موضع تنازع، واختلاف انبعثت من السياسة واضطراب الناس في أمره، فالفرق التي ابتدأت سياسية ثم خلطت بسياسة غيرها من الأمور الدينية نمت وترعرعت في ظل ذلك الاضطراب، فالخوارج والشيعية والمرجئة وغيرها نما غرسهم، واستغلظ سوق نبتهم في ظل التنافس السياسي والتقاتل على السلطان.⁽¹⁾

وفي العصر العباسي أجد أن مؤرخي الأدب العباسي قلما تحدثوا عن المناظرات التي احتدمت بين المتكلمين، والفقهاء مع أنها من أهم الفنون النثرية التي شغلت طبقات المجتمع العباسي على اختلافها، وقد كانت المساجد ومجالس الأمراء تكتظ بها وكانت المعتزلة أهم طوائف المتناظرين حينئذ، فقد وقفوا أنفسهم على جدال طوائف المتكلمين من مخالفيهم في أصولهم.⁽²⁾

(1) محمد أبو زهرة: تاريخ الجدل، ص 115.
(2) شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، ص 457.

ومن أشهرهم في الجدل والمناظرة أبو الهذيل العلاف (ت230هـ)⁽¹⁾، حيث كان من أحسن الناس جدلاً وأقواهم حجة، وإذا كان العصر العباسي هو مسرح الأحداث الذي يصور اندلاع المناظرات بين المعتزلة وطوائف المتكلمين، فنشطت المناظرات نشاطاً كبيراً، حتى أنها كانت لغة العصر الفكرية، وكانت لمناظراتهم موضوعات تتحاور فيها، وهي مختلفة من الموضوع العلمي إلى الفلسفي إلى الأدبي، وقد ينتصر المناظر تارة، وتارة ينهزم في تلك الساحة الفكرية الكبيرة التي كانت تقام في بغداد وبهذا اشتدت حركة الجدل، ونمت وازدهرت، وقوى أمره حتى صار موضوع مباراة بين العلماء، ومسابقة بين الأدباء، ومنازلة من الكتاب، وصارت الحواضر الإسلامية مزدحمة بأهل هذه الفرق واختلفت فيها الأجناس من اليهودي والنصراني إلى المجوسي وغيرهم، فاجتمعوا في ظل الإسلام، وبهذا انتشرت الحرية الفكرية، وجعلتهم يتناقشون في كل أمور الدنيا والدين، وقد كان لذلك الامتزاج الحضاري الذي حدث بين الدولة العباسية، والدول المجاورة لها الأثر الكبير في ذلك الجدل القائم بين أهل هذه الديانات فقد كانت تسعى كل طائفة من هذه الطوائف، وكل زعيم من زعماء الأديان في الدفاع عن أديانها ومهاجمة بعض المبادئ الإسلامية في حرص، وحذر، وانتاد.⁽²⁾

وقد عمل الخلفاء على تشجيع المناظرة، بتشجيعهم للحركة العلمية، وتقريبهم للعلماء وبهذا عقدت لها مجالس في قصور الخلفاء والأمراء، وفي المساجد والنوادي، وقد كان المأمون شغوفاً بالجدل والمناظرة حيث كان يعقد لها المجالس رجاء حسم خلاف وفض نزاع، أو هداية شاك طالب لليقين،⁽³⁾ نتيجة لهذه العوامل، قويت المناظرات وحلت محل الخطابة عندما ضعفت، وكسدت بضاعتها، وكان المجادلون فيها يحرصون على بلاغة الكلام، وإفصاح البيان بالعبارة الفصيحة، والتأثير بالإقناع الذي لا بديل له لتأكيد حججهم.

ما أستطيع أن أقوله هو أن المناظرة تزدهر، وتنشط نتيجة تأثير البيئات الثقافية، وتعدد الديانات السماوية، وظهور الفرق الكلامية التي لعبت الدور الكبير في ازدهارها.

(1) شوقي ضيف: العصر العباسي الأول، ص 457..

(2) محمد أبو زهرة: تاريخ الجدل، ص 235.

(3) المرجع نفسه: ص 240.

5- المناظرة في بلاد المغرب:

عرفت البلاد المغربية مناظرات كثيرة بين النحاة، واللغويين، والشعراء والأدباء ورجال الدين، وكانت تقام بمساجد المدن المغربية وأسواقها، وبمجالس الأمراء على غرار البلاد المشرقية، غير أنها اتمت ببساطة لغتها، وقلة مواضيعها، حيث اقتصر على العلوم الدينية، لأن بلاد المغرب في بداياتها الأولى لتعلم الدين الإسلامي ومبادئه، وقد كانت بعيدة عن الصراعات الحادة التي عرفتها الفرق المذهبية في العصر الأموي والعباسي، وبتطور الحياة في بلاد المغرب تطورت معها نظرة أدبائها وعلمائها، وأصبحت المناظرة فناً من فنون النثر الأدبي، وانتشر هذا الفن في مجالس ملوك المغرب، وتنافس الكتاب والشعراء فيها بابرارهم لبراعتهم اللغوية، وصقلها بالحجج والبراهين، كما اعتمدوا في هذا على القرآن الكريم، والسنة النبوية الشريفة، لأن البيئة الدينية التي عاشوا فيها تفرض عليهم هذا النوع من الأدب واشتغل المغاربة بهذا العلم خاصة في عهد الموحدين الذي توافرت أسباب شيوعه بما حمل عليه الموحدون من القول، والعمل بالمهدوية، وما يتبع ذلك، ولقد ألزمهم باعترافهم للمذهب الظاهري⁽¹⁾ ورفضهم للمذهب المالكي⁽²⁾ وقد عرفت البلاد المغربية في هذا العهد ظهور بعض المذاهب الجديدة خاصة في التصوف الديني، وبهذا ظهرت حركة جدلية كبيرة، من أصحاب هذه المذاهب فقد ألف أبو محمد عبد الله بن محمد زغبوش المكناسي كتاباً في اثبات الهداية الموحدية استخرجه بالاستقراء من الكتاب العزيز، وعبد الملك بن أياس أبو الحسن القرطبي الذي وضع كتاباً يطعن فيه على حكومة الموحدين، والمبادئ التي تقوم عليها.⁽³⁾

(1) يقصد به المذهب الذي يقوم على حمل الناس على العمل بظاهر القرآن والحديث والابتعاد عن مذهب مالك وعدم العمل به، وقد كان محبوباً من طرف الخلفاء الموحدين حيث أن ابن تومرت كان ينكر كتب الرأي والتقليد، وقد أمر صحابته وأهل دعوته بانكار الرأي في الفروع الفقهية، والعمل شرعاً على محض الظاهرية، ومما يبين هذا الاهتمام به هو ما قام به يعقوب بن عبد المؤمن الذي انقطع علم الفروع في أيامه، وخافه الفقهاء وأمر بإحراق كتب المذهب المالكي بعد أن جرد ما فيها من حديث رسول الله والقرآن، ومن بعض المغاربة الذين اعتنقوا هذا المذهب، أبو الحسن علي بن محمد بن خيار البلنسي (ت605هـ)، ابن الكمام (ت663هـ)، أبو الخطاب بن دحية الكلبي السبتي (ت633هـ) وأخوه أبو عمر (ت634هـ)، انظر: محمد المنوني: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ص52-53-54.

(2) يقصد به مذهب مالك بن أنس (ت179هـ) صاحب كتاب الموطأ أول كتاب ألف في الحديث والفقه، ويتلخص مذهبه في الاعتماد على النصوص من الكتاب والسنة، واستخدام الرأي لاستنباط الأحكام الشرعية منها أي يمتاز بالتمسك بالقرآن والحديث، والابتعاد عن التأويل، والاقتصاد في القياس ما أمكن، وقد أدخله إلى إفريقية علي بن زياد، وعبد الله بن فروخ (فقيه أهل المغرب)، وبهذا انتشر المذهب المالكي بشمال إفريقيا، واكتمل نضجه على يد الإمام سحنون صاحب المدونة، وقد اعتنقه فقهاء الموحدين ودافعوا عنه ومنهم: أبو محمد يشكر بن موسى، الجوراني الففجوني (ت598هـ) وأبو الحسن علي بن سعيد الرجرجي قاضي فاس وسبتة (ت609هـ)، ابن زانيف (ت612هـ)، أبو محمد صالح الفاسي (ت631هـ)، المرجع نفسه: ص55.

(3) المرجع نفسه: ص155.

وقد قام الموحدون بعقد مجادلات، ومناظرات لترجيح المذهب الظاهري على المذهب المالكي لاتباعها المذهب الأول والعمل بما جاء فيه ومن هذا المناظرة التي جرت بين يوسف بن عبد المؤمن،⁽¹⁾ والحافظ أبي بكر بن الجد حيث قال: «لما دخلت على أمير المؤمنين أبي يعقوب أول دخلة دخلتها عليه وجدت بين يديه كتاب ابن يونس، فقال لي: يا أبا بك، أنا أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله! أرأيت يا أبا بكر، المسألة فيها أربعة أقوال أو خمسة أقوال أو أكثر من هذا! فأأي هذه الأقوال هو الحق؟ وأيها يجب أن يأخذ به المقلد؟ فافتتحت أبين له ما أشكل⁽²⁾ عليه من ذلك فقال لي وقطع كلامي: يا أبا بكر، ليس إلا هذا، وأشار إلى المصحف، أو هذا؛ وأشار إلى كتاب سنن أبي داود، وكان عن يمينه؛ أو السيف!». ⁽³⁾

تعتبر هذه المحاوراة عن دعوة أمير المؤمنين يوسف بن عبد المؤمن إلى الأخذ بكتاب الله والسنة وعدم الأخذ عن علماء الحديث الآخرين، والفقهاء، وهذا ما يفسر احراقه «لمدونة الإمام سحنون، وكتاب ابن يونس، ونوادير بن أبي زيد، ومختصره، وكتاب التهذيب للبرادعي، وواضحة ابن حبيب، وما جانس هذه الكتب ونحا نحوها»⁽⁴⁾ وأمر بجمع أحاديث المصنفات العشرة (الصحيحين، الترميذي، الموطأ، سنن أبي داود، سنن النسائي، سنن البزار، مسند ابن أبي شيبة، سنن الدارقضي، سنن البيهقي)⁽⁵⁾، وقد حضي علماء الحديث بعناية خاصة لاهتمامهم بهم، والدعوة إلى العمل بما جاؤوا به، ورغم أسلوبه البسيط الذي نلمسه في هذه المحاوراة إلا أنه ارتقى بها إلى جودة الأدب خاصة في استعماله للأسلوب الإنشائي الذي كان الغرض منه التعجب (أنظر في هذه الآراء المتشعبة التي أحدثت في دين الله! أربعة أقوال أو خمسة أقوال؟ أو أكثر من هذا! أو السيف!) والاستفهام (أي هذه الأقوال هو الحق؟ أيها يجب أن يأخذ به المقلد) والنداء (يا أبا بكر) وقد كررها عدة مرات لتأكيد رأيها، واقناع مناظره بحجته، كما نلمس قليلا من السجع ويظهر في (المسألة فيها أربعة)، (أو خمسة أقوال أو أكثر)، (أشار إلى المصحف)، (أو السيف) وألفاظها سهلة واضحة لا غموض فيها، وهذه المحاوراة دينية

(1) أنظر ترجمته في هذا البحث: ص14.

(2) ما أبيهم عليه، وغمض وصعب فهمه.

(3) عبد الواحد بن علي المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 199.

(4) المصدر نفسه: ص198.

(5) المصدر نفسه: ص 198

لأنها عالجت قضية دينية تمثلت في ترجيح وتفضيل المذهب الظاهري على المذهب المالكي، فمبدأ المفاضلة هذا أكد ليوسف من مكانة علمية كبيرة، وثقافة واسعة، وتمكنه من الأداء. وتفانيه في الدفاع عن معتقده، وإزالة ما علق به من شوائب.

وهذا مثال آخر لمناظرة جرت بين المهدي بن تومرت، و علماء مراكش بحضرة علي بن يوسف بن تاشفين،⁽¹⁾ وقد رواها "ابن أبي زرع" حيث قال: «دخل المهدي بن تومرت وأصحابه إلى مراكش يمشي في أسواق المدينة، وشوارعها يأمر بالمعروف، وينهى عن المنكر، ويريق الحمر، ويكسر آلات الطرب من غير إذن أمير المسلمين، ولا بإمرة أحد من القضاة، والوزراء، فاتصل خبره بأمير المسلمين علي بن يوسف، فأمر باحضاره، فلما مثل بين يديه نظر إلى تقشفه، وراثته حاله، فاستحقره، وهان عليه أمره.

وقال له : ما هذا الذي بلغنا عنك؟

قال: وما بلغك أيها الأمير؟ إنما أنا رجل فقير طالب الآخرة، ولست بطالب دنيا، ولا حاجة لي بها، غير أنني أمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر، وأنت أولى من يفعل ذلك، فإنك المسؤول عنه، وقد وجب عليك إحياء السنة، وإمامة البدعة.

وقد ظهرت بملكك المنكرات وفشت البدع، وقد أمرك الله بتغييرها، واحياء السنة بها! إذ لك القدرة على ذلك، وأنت المأخوذ به، والمسؤول عنه، وقد عاب الله تعالى قوما ما تركوا النهي عن المنكر فقال تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَنْ مَنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾⁽²⁾ فلما سمع ذلك أمير المسلمين علي بن يوسف من مقالته هابه، وأطرق برأسه إلى الأرض مليا يفكر في أمره، ومقالته، وينظر في حاله ثم رفع رأسه إلى وزرائه، فأمرهم باحضار الفقهاء إلى مناظرتهم، واختباره فحضر فقهاء مراكش، وطلبتها، وأشياخ لمتونة،⁽³⁾ والمرابطين حتى امتلأ المجلس وغص بالناس، فعرفهم أمير المسلمين بأمر المهدي، ومقالته.

وقال لهم: إنما بعثت لكم لتختبروا أمره، فإن كان عالما اتبعناه، وإن كان جاهلا أدبناه، فأكثروا الكلام وأخذوا في الملام، وكان المهدي عالما بالجدال فقال لهم: قدموا من

(1) الأمير علي بن يوسف بن تاشفين ولد سنة 477هـ، من أم رومية بسبته، بويع له بالخلافة، وله ثلاث وعشرون سنة على المرابطين، ملك جميع بلاد المغرب، أقام العدل، وضبط الثغور، وسرح السجون، وفرق الأموال، وملك بلاد الأندلس شرقا، وغربا وسلك طريق والده في جميع أموره، واهتدى بهديه توفي سنة 533هـ، بعد أن أخذ البيعة لولده تاشفين، أنظر: ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب، وتاريخ مدينة فاس، ص 165-166.

(2) المائدة: 79.

(3) قبيلة بربرية من قبائل المصامدة بالمغرب الأقصى.

تقوم به حجتكم، وتأدبوا بأدب أهل العلم، وسلموا عند شروط المناظرة، واتركوا اللجاج، وقدموا أحدكم ممن تتقون بمعرفته وتقدمه، وكان جل من حضر ذلك المجلس من الفقهاء أصحاب حديث وفروع، وليس فيهم من له معرفة بالأصول والجدل، فكان أول ما سألهم عنه أن قال للذي تقدم للكلام: أيها الفقيه أنت لسان الجماعة المتقدم للكلام، فاخبرني هل تنحصر طرق العلم أم لا تنحصر؟

فأجابه: هي تنحصر في الكتاب والسنة، والمعاني التي بنيت عليهما. فقال له المهدي: إنما سألتك عن طرق العلم هل تنحصر أم لا، فلما تذكر إلا واحدة منها، ومن شرط الجواب أن يكون مطابقاً للسؤال فلم يفهم مقالته وعجز عن الجواب، ثم سأله عن أصول الحق والباطل ما هي؟

فعاد إلى جوابه الأول، فلما رأى عجزه، وعجز أصحابه عن فهم السؤال، وفحوى الخطاب، ولم تكن لهم معرفة بالجواب شرع لهم في تبيين أصول الحق، الباطل فقال لهم: أما أصول الحق والباطل فهي أربعة: العلم والجهل والشك والظن فالعلم أصل للهدى، والشك والجهل والظن أصل للضلال، ثم أخذ في تبيين طرق العلم، فبهرهم بطريق أنوار العلم، وغلقت دونهم أبواب الفهم، وعجزوا عن جوابه ولم يفهموا له معنى خطابه، فلما رأوا باهر علمه، وإصابة معرفته أخذتهم فضيحة العجز، وركنوا إلى ظلمة الجحد والإنكار، فلبسوا عليه.

وقال أمير المسلمين علي بن يوسف: هذا رجل خارجي مسعور أحقق صاحب جدال، ولسان يضل جهال الناس، وإن بقي بالمدينة يفسد عقائد أهلها، وينشر ذلك عند الناس حتى يرسخ ذلك في قلوب أكثر العامة، فأمره أمير المسلمين علي بالخروج من المدينة⁽¹⁾ فخرج منها فبنى خيمة بالجبانة بين القبور بقرب المدينة وقعد بها، فكان يأتيه بعض الطلبة فيقرؤون عليه، ويأخذون عنه حتى كثر عليه الجمع واجتمع عليه أتباعه وتلاميذه وتكاثرت عليه الناس، وامتلات قلوبهم له محبة ومهابة وتعظيماً، فاعلم الخاصة منهم بالذي قصده وبما يريد، وأخذ يطعن على المرابطين ويقول: هم كفره مجسمون، وغزوهم واجب على كل من يعلم أن الله تعالى واحد في ملكه أوجب من غزو الروم والمجوس، وتابعه على ذلك ما يزيد

(1) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص 174-175.

عن ألف وخمسمئة فرجع خبره إلى المسلمين علي بن يوسف، وعرف أنه يطعن في دولته ويكفرهم، وأنه قد كثر أتباعه على مذهبه، فبعث إليه.

فقال له: أيها الرجل اتق الله في نفسك، ألم أنهك عن عقد الجموع والأحزاب، وأمرتك بالخروج عن المدينة.

فقال: قد امتثلت أمرك وخرجت عن المدينة إلى الجبانة، فبنيت خيمة بين الموتى واشتغلت بطلب الآخرة، فلا تسمع لأقوال المضلين، فاغظ له أمير المسلمين بالقول وتوعده بالنكال وهم بالمقبض عليه، فعصمه الله منه، ليقضي الله أمرا كان مفعولا. فأمره بالانصراف، فانصرف يريد خيمته.⁽¹⁾

الملاحظ على هذه المناظرة أن المهدي بن تومرت صاحب لسن فصيح، متمكنا من فرض رأيه على الذين يحاولون مغالطته، ونلاحظ هذا في مناظرته التي يقر فيها بحقيقة دعوته التي تنص على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد أعجز خصمه بالحجة المقنعة التي جعلت منه فارس هذه المناظرة، والغالب على معانيها أنها مستوحاة من واقع الحال في بلاد المغرب في عصر المرابطين فهذه المناظرة كلها نصح ووعظ وإرشاد، فقد تناظر المهدي بن تومرت مع علي بن يوسف بن تاشفين في مسألة تغيير الأوضاع الفاسدة في مجتمع المرابطين، ورجح العمل بما جاء في القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة والعمل بما جاء فيها، وتوجيه اللوم الكبير إلى أمير المرابطين لأنه صاحب الأمر في البلاد لأنه الأقدر على حمايتها من كل ما يترصدها من الأخطار الداخلة والخارجية، ولأن حجة المهدي بن تومرت واضحة جلية ومقنعة فقد تأثر بها أمير المرابطين، مما استدعى منه أن يحضر علماء وفقهاء مدينته مراكش ليحاروا هذا الرجل لأنهم على علم كبير بهذه الأمور، ولكن فصاحة ابن تومرت وبراعته ومعرفته بعلم الجدل أعجزتهم على مجابته لقوته البيانية التي فاقت الفقهاء والعلماء في هذه المدينة ولعدم قدرتهم على محاورته، كادوا له عند الأمير فطرده من مجلسه، وأسلوبها فصيح وهو مزيج بين الخبر والإنشاء أما الخبري منه فهو الخاص بإدراك الحقائق التي عمد إليها المهدي بن تومرت حيث جعل محاوريه يتفاعلون معه (يأمر بالمعروف، ينهى عن المنكر، يريق الخمر، يكسر آلات الطرب) والإنشائي المتمثل في الاستفهام (ما هذا الذي بلغنا عنك؟)، وما بلغك أيها الأمير؟ أيها الفقيه... هل

(1) ابن أبي زرع: الأئیس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس: ص 175 - 176.

تتخصص طرق العلم أم لا تتخصص؟ سأله عن أصول الحق والباطل ما هي؟، ونلمس بعض التتميق والتزيين في النص يتمثل في الطباق ويظهر (يأمر # ينهى)، (المعروف # المنكر)، (الآخرة # الدنيا)، (إحياء # إماتة)، (السنة # البدعة)، (عالما # جاهلا)، (سلموا # اتركوا)، (الحق # الباطل)، (العلم # الجهل)، (الهدى # الضلال)، (الجواب # السؤال)، والسجع في قوله:

(أمر باحضاره)، (مثل بين يديه)، (نظر إلى تقشفه)، (رثاثة حاله)، (فاستحقره وهان عليه أمره)، (ظهرت بملكك المنكرات)، (أمرك الله بتغييرها)، (سمع مقالته هابه)، (أطرق برأسه إلى الأرض يفكر في أمره ومقالته)، (ينظر في حاله ثم رفع رأسه إلى وزرائه)، (أمرهم باحضار الفقهاء إلى مناظرتهم واختبارهم)، (امتلاً المجلس)، (و غض بالناس)، (إن كان عالماً اتبعناه)، (إن كان جاهلاً أدبناه)، (أكثرُوا الكلام)، (أخذوا في الملام).

والمقابلة في قوله: (يأمر بالمعروف = ينهى عن المنكر)، (طالب الآخرة = لست بطالب الدنيا)، (إحياء السنة = إماتة البدعة) وهذه المناظرة دينية أكثر منها سياسية ولغتها سهلة فصيحة، والذي منح المناظرة هذا الطابع الجدلي، وأضفى عليه صبغة المنازعة إنما هو فصاحة المهدي بن تومرت التي لا تكاد تتناول موضوعاً من موضوعات العلم، إلا وأبدعت فيه هذا مظهر من مظاهر المحاورات التي نشأت بين رجال الفكر والعلم والأدب حول موضوعات أدبية، وسياسية، ورغم هذا المقتطف الصغير من هذه المناظرة التي وصلتنا إلا أننا تمكنا من معرفة الوضع الذي ساد في مجالس الخلفاء والأمراء الذي يغلب عليه الأسلوب الراقى الذي يتسم بالدقة في اختيار الكلمات، ووضعها في مكانها الأكثر ملاءمة لها، واختيارهم التراكيب الجيدة، واهتمامهم بجودة التعبير.

وقد حفظ لنا "ابن الأثير"⁽¹⁾ مناظرة جرت بين المهدي بن تومرت وفقهاء أبو الحسن علي بن يوسف بن تاشفين، ولعلها تكملة للمناظرة التي رواها "ابن زرع" وما يؤكد صحة كلامنا هو أن "عبد الله كنون" رواها أيضاً في كتابه النبوغ المغربي في الأدب العربي وهذا ما جاء فيها "دخل المهدي بن تومرت وأصحابه إلى مراکش، وقد جاهر بدعوته واستعلن أمره، فذهب إلى المسجد الجامع ولقي هناك أمير المسلمين علي بن يوسف فوعظه، واغظ له القول،

(1) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج 10، ص 569-570.

وكان علي جالسا والوزراء واقفون حوله. فقال الوزراء لابن تومرت سلم سلام الخلافة على الأمير

فقال ابن تومرت وأي أمير؟ إنما أرى جوارى منقبات⁽¹⁾

فلما سمع ذلك علي بن يوسف أزال النقاب⁽²⁾ عن وجهه وقال: صدق.

فلما رآه ابن تومرت قال له: الخلافة لله لا لك يا علي.

وتمادى في وعظه وإرشاده، وجادل العلماء والحاضرين جميعا.

وقيل إنه كان سائرا في الطريق، فرأى أخت علي بن يوسف حاسرة على عادة قومها، فوبخها توبيخا وعنفها.

فدخلت على أخيها تذرف الدموع مما لحقها من إهانة ابن تومرت، وتقريعه وأصبح العلماء والعامّة لا يتكلمون في مراكش إلا بأمره، فجمع له علي بن يوسف مجلسا من علماء المغرب والأندلس يرأسهم وزيره العلامة مالك بن وهيب فلما إلتأم المجلس للمجادلة تولى الكلام قاضي المرية⁽³⁾ محمد بن أسود وقال: ما هذه الأقوال التي تنقل عنك في حق الملك العادل المنقاد إلى الحق، والمؤثر لطاعة الله على هواه؟

قال ابن تومرت: إن ما نقل عني قد قلته حقا ولي من ورائه أقوال أخرى، أما قولك إن ملككم عادل منقاد للحق مؤثر طاعة الله على هواه؛ فهذه أقوال تقولونها وتتصرفون بها مع علمكم بأن الحجة متوجهة عليه، فهل بلغك يا قاضي أن الخمر تباع في هذه الديار جهارا، وأن الخنازير تمشي بين المسلمين، وأن أموال اليتامى تؤكل ظلما وعدوانا؟ وعدد من ذلك جميع المنكرات التي رآها، فلما سمع الملك كلامه ذرفت عيناه، وأطرق حياء فسكت علماء السوء ولم يتكلم منهم أحد، فقال مالك بن وهيب، وقد فهم نفسية ابن تومرت، وأدرك غايته، نصيحتي لك أيها الملك أن تأمر بسجن هذا الرجل⁽⁴⁾ وأتباعه، وتنفق عليهم كل يوم ديناراً لتكفي شرمهم، وإلا أنفقت عليهم خزانتك، ولا يجديك ذلك نفعا، اجعل عليه كبلا⁽⁵⁾ قبل أن تسمع له طبلا، فوافقه الملك على ذلك، لكن الوزير (بينتان بن عمر) تدارك الأمر وقال: يقبح

(1) يقصد بهم النساء اللواتي يضعن على وجوههن لثاما، لأن المرابطين كانوا يتسمون بالملثمين، لوضعهم اللثام على وجوههم، وقد شبههم بالنساء اللواتي يغطين وجوههن استحياء من الناس، ولرد الفتنة.

(2) اللثام وهو قطعة قماش يغطي بها الوجه، ويلبسه عادة أهل الصحراء لكي يحميهم من الزوابع الرملية.

(3) مدينة أندلسية تقع على ساحل البحر المتوسط تضرب أمواج البحر في سورها وهي مشهورة.

(4) يقصد المهدي محمد بن تومرت.

(5) الكبل هو ما يضع في يد السجين أو رجله، ويكون عادة عبارة عن حبال أو سلاسل من حديد يربط بها السجين كي يمنع من الفرار.

بك أيها الملك أن تبكي من موعظة رجل، ثم تسجنه في مجلس واحد، فأصغى الملك لرأيه
وصرف ابن تومرت وسأله الدعاء⁽¹⁾

الملاحظ هو وجود اختلاف بين الروايتين والشيء المهم هو أن هناك مناظرة جرت
بين محمد بن تومرت وأمير المرابطين علي بن يوسف بن تاشفين بحضرة فقهاء مراكش
وطلبتها وقد ذكر السبب الذي قامت من أجله هذه المناظرة حيث أن أخت أمير المرابطين
كانت طرفا فيها لأنها محور النقاش وقد روى ابن الأثير قصتها مع ابن تومرت حيث قال:
بينما هو -ابن تومرت- في بعض الأيام في طريقه، إذ رأى أخت أمير المسلمين⁽²⁾ في
موكبها، ومعها من الجواري الحسان⁽³⁾ عدة كثيرة، وهن مسفات⁽⁴⁾ وكانت هذه عادة
الملثمين يسفر نساءهم عن وجوههن، ويتلثم الرجال، فحين رأى النساء كذلك، أنكر عليهن،
وأمرهن بستر وجوههن، وضرب هو، وأصحابه دوابهن، فسقطت أخت أمير المسلمين عن
دابتها، فرفع أمره إلى أمير المسلمين علي بن يوسف، فأحضره، وأحضر الفقهاء
لينظروه⁽⁵⁾

وقد تميز أسلوب ابن تومرت في هذه المناظرة بالسبك الجيد لألفاظها، وبأسلوب
الإقناع الذي اتبعه، فقد أقنع مناظره لدرجة أنه تأثر بكلامه وتعبر عنه، مظاهر الحسرة
والندة المتمثلة في (ذرفت عيناه، أطرق حياء) فهذا دليل على اقتناعه بوجهة نظر ابن
تومرت التي كانت صائبة في معظمها، وخدشت مشاعره، وحركت عواطفه، كما نقل له
صورة المجتمع الذي عاث فسادا وصور له المنكرات التي تحدث فيه (كشرب الخمر علنا،
وبيعها جهارا، وأكل مال اليتيم ظلما وعدوانا)، ورغم المضمون الوعظي والنصيحي لهذه
المناظرة إلا أن لغتها جمعت بين الفصاحة، والسلاسة مما يجعلها بحق نصا أدبيا جيدا، وأما
أسلوبها القائم على البديع المتنوع بين الطباق والسجع الذي غالبا ما يكون خاليا من
النصوص الأدبية التي تحمل هذا النوع من المواضيع الوعظية فالطباق نجده في (جالسا #
واقفا) والسجع في قوله: (حاسرة على عادة قومها)، (وبخها توبيخا، وعنفها) (أطرق
حياء)، (سكت علماء السوء) (انفقت عليهم خزانتك)، (لا يجديك ذلك نفعا)، (واقفه الملك على

(1) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص 390-391.

(2) يقصد به علي بن يوسف بن تاشفين.

(3) يقصد بها الجواري الجميلات اللواتي يتمتعن بحسن وجمال باهر وأخاذ.

(4) كاشفات على وجوههن، لأن من عادة النساء تغطية الوجه استحياءا من الرجال.

(5) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ج10، ص 570-571.

ذلك). وأفكار النص مرتبة ترتيباً منطقياً حيث بدأت بوعظ ابن تومرت لعلي بن يوسف بن تاشفين ونصحه، في مجلس مع وزرائه وعلماؤه وفقهائه، وكيف رد عليه أهل مجلسه وطلبوا منه أن يسلم على الأمير، فرد ابن تومرت مستهزئاً به أنه كان يغطي وجهه، فرأى علي بن يوسف أنه على حق ولم يلمه على ما قاله، ثم كيف بدأ بمناظرته للفقهاء والعلماء الذين استحضرهم الأمير لمناظرته وكيف تفوق عليهم برجاحة عقله، واستخدامه للحجة المقنعة بعد أن ذكر المناكر السائدة في مراكش وختمت بمشورة وزير الأمير علي بن يوسف بن تاشفين الذي أشار عليه بإطلاق سراحه ففعل الأمير ذلك.

إن هذا الترابط والإنسجام جعل من النص بنية متكاملة و متماسكة، وقد غلبت الجمل الفعلية على الإسمية في النص منها: (دخل المهدي ابن تومرت)، (جاهر بدعوته)، (استعلن أمره)، (ذهب إلى المسجد)، (لقي هناك أمير المسلمين)، (أرى جوارى منقبات)، (سمع ذلك علي)، (أزال النقاب)، (صدق تمادى في وعظه)، (جادل العلماء الحاضرين جميعاً)، (رأى أخت علي، وبخها، عنفها)، (دخلت على أخيها)، (تذرف الدموع)، (أصبح العلماء والعامّة)، (يتكلمون في مراكش)، وقد كشفت هذه المناظرة عن ذلك الصراع بين دولتين عظيمتين في بلاد المغرب كما كشف عن عوامل الهدم التي يبدي أصحابها نفاق التشبث بالإسلام، لتطو لهم سبل النيل من العقيدة الإسلامية.

وهناك نوع من المناظرات عرف بها أهل الأندلس وهي المناظرات الحقيقية وهو الذي يدور حول الإشادة والفخر بمناب الأندلس، وتفضيلها على ما عداها في كل شيء، ومنها ما تجري المناظرة فيه بين مدن الأندلس حيث تفخر كل مدينة بما خصها الله به من مزايا ومحاسن لا توجد في غيرها.⁽¹⁾

ومن ذلك مناظرة أديب الأندلس أبي بحرین إدريس⁽²⁾ إلى الأمير عبد الرحمن بن السلطان يوسف بن عبد المؤمن بن علي⁽³⁾ بين مدن الأندلس تقول كل مدينة فيها أنا أحق

(1) عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص 473.

(2) صفوان بن إدريس بن إبراهيم بن عبد الرحمن بن عيسى بن إدريس التجيبي المرسي أبو بحر، ولد سنة 561هـ أو 560هـ كان أدبياً حسيباً ممتعاً من الطرف ريان من الأدب، حافظاً سريع الذاكرة، ترف النشأة، على تصاون وعفاف جميلاً سريراً ممن تساوى حظه في النظم والنثر، روى عن أبيه وخاله ابن عم أبيه القاضي أبي القاسم بن إدريس، وأبي بكر بن مغاور له مؤلفات أدبية منها: زاد المسافر، كتاب الرحلة، كتاب العجالة، سفران يتضمنان من نظمه ونثره أدباً لا كفاءة له وانفرد من تأبين الحسين وبكاء أهل البيت بما ظهرت عليه بركنه من حكايات كثيرة توفي سنة 598هـ. انظر: ابن عبد الملك المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، ص 4، ص 140.

(3) انظر: ترجمته في هذا البحث: ص 3.

بالأمير وأولى، وقد جاءت على شكل رسالة ونصها "مولاي، أمتع ببقائك الزمان وأبناءه، كما ضم على حبك أحناءهم⁽¹⁾ وأحناءه، وأوصل لك ما شئت من المن، والأمان. كما نظم قلائد فخرك على لبة الدهر الجمان، ألبست الرعية برود التأمين، فتنافست فيك من نفيس ثمين، فكم للناس، من أي أمن بك وإيناس، وللأيام من لوعة فيك وهيام، وللأقطار من لبنات لديك وأوطار، وللبلاد من قراع على تملكك لها وجلاد، ولما تخاصمت فيك من الأندلس الأمصار، وطال بها الوقوف على حبك والإقتصار، كلها يفصح قولاً ويقول: أنا أحق وأولى، ويصبح إلى إجابة دعوته ويصغي، وينتو إذا بشر بك: ذلك ما كنا نبغي، تميزت حمص غيضا،⁽²⁾ وكادت تفيظ فيظاً⁽³⁾، وقالت: مالهم يزيدون، وينقصون ويطمعون ويحرصون؟ إن يتبعون إلا الظن وإن هم لا يحرصون،⁽⁴⁾ ألهم السهم الأسد⁽⁵⁾ والساعد الأشد، والنهر الذي يتعاقب عليه الجزر والمد؟ أنا مصر الأندلس والنيل نهري، وسمائي التأنس والنجوم زهري، إن تجاريتم في ذلك الشرف، فحسبي أن أبيض في ذلك الشرف،⁽⁶⁾ وإن تبجحتم بأشرف اللبوس، فأى إزار اشتملتموه كشتنبوس لي ما شئت من أبنية رحاب، وروض يستغنى بنظرته عن السحاب، قد ملأت زهراتي وهادا ونجادا، وتوشح سيف⁽⁷⁾ نهري بحدائقي نجادا، فأنا أولاكم بسيدنا الهمام وأحق الآن حصص الحق.

فنظرتها قرطبة شزرا،⁽⁸⁾ وقالت: لقد كثرت نذرا وبذرت في الصخر الأصم بزرا،⁽⁹⁾ كلام العدى ضرب من الهذيان، وأني للإيضاح والبيان؟ متى استحال المستقبح مستحسنا؟ ومن أودع أجفان المهجور وسنا؟ إن ادعيتم سبقا، فما عند الله خير وأبقى، لي البيت المطهر الشريف والاسم الذي ضرب عليه رواقه التعريف، في بقيعي محل الرجال الأفاضل، فلرغم أنف المناضل وفي جامعي مشاهد ليلة القدر، فحسبي من نباهة القدر، فما لأحد أن يستأثر علي بهذا السيد الأعلى، ولا أرضى له أن يوطئ غير ترابي نعلا، فأقروا

(1) الأحناء: الصدور ومفردها حنو.

(2) تميزت غيضا: تمزقت بسبب غيظها أي شدة غضبها.

(3) كادت تفيظ فيظاً: كادت تموت موتاً.

(4) يحرصون: يكذبون.

(5) الأسد: هو السهم الذي يصيب الهدف مباشرة بعد تسديده نحوه.

(6) الشرف الأول: رفعة القدر وعلو المنزلة، والشرف الثاني: بلد مجاور لاشبيلية يحتوي على قرى كثيرة عليه أشجار الزيتون، وإذا أراد أهل

إشبيلية الافتخار قالوا: الشرف تاجها، لكثرة خيرها.

(7) سيف النهر بكسر السين، ساحله وشاطئه.

(8) نظرتها شزرا: أي نظرتها بأعراض كنضر المعادي المبعوض، وأكثر ما يكون النظر الشرز في حال الغضب.

(9) النزر: الفقة، والمعنى صيرت القليل كثيراً.

لي بالأبوة، وانقادوا على حكم النبوة، ولا تكونوا كالتى نقضت غزلها من بعد قوة، وكفو عن تباريكن، ذلكم خير لكم عند باريكم".⁽¹⁾

تعتبر هذه المناظرة نموذجاً من النصوص التي دخل النثر الأندلسي في عصر الموحدين بواسطتها ميداناً جديداً يتمثل في انطاق المدن بما يجعلها تذكر محاسنها، وتفضل نفسها على أصناف أخرى من المدن، وقد أجاد الكاتب في صياغة هذا الحوار الذي جرى بين مدن الأندلس حتى استع، وصار ميداناً يتسابق فيه الكتاب، ويعارض فيه بعضهم بعضاً حتى أنه تجاوز المدن إلى معالم أخرى من الفن والجمال توفر ظروف الراحة والرفاهية أو إلى ما يحمل دلالات تاريخية، ورموزاً اجتماعية يستخدمها الناس في حياتهم اليومية فيتفصح هذه الديار عن فضائلها، وتتجاوز فيما بينها، وتتباهى بمناقبها، كما يتجاوز البشر، ويتباهون، فهي نقل لصورة تلك الكائنات الجامدة إلى واقع الإنسان، ونرى في مناظرة أبي بحر بن إدريس أنه استهلها بدعاء للأمير مسجوع في معظمه يقول فيه: (أمتع الله ببقائك الزمان وأبناءه)، (ضم على حبك أحناءهم)، (أوصل لك ما شئت من المن والأمان)، (نظم قلائد فخرك على لبة الدهر نظم الجمان)، (ألبيت فيك الرعية برود التأمين)، (نافست فيك من نفسي ثمين)، (فكم للناس)، (من أمن بك وإيناس)، (وللأيام)، (من لوعة فيك وهيام)، (وللأقطار)، (من لبنات لديك وأوطار)، (وللبلاد)، (من قراع على تملكك لها وجلاد)، (تخاصمت فيك من الأندلس الأمصار)، (طال بها الوقوف على حبك والاقتصار)، (يصيغ إلى إجابة دعوته ويصغي)، (ذلك ما كنا نبغي)، (تميزت حمص غيظاً)، (كادت تقيظ فيظاً).

ثم يبدأ بسرد مفاخرة اشبيلية التي أخذت تعدد محاسنها، وتتباهى بها، وتتفاخر بتكبر على نظيرتها ومن ألفاظ الفخر والتكبر (أنا مصر الأندلس)، (سمائي التانس)، (النجوم زهري) (لي ما شئت من أبنية رحاب)، (روض يستغنى بنضرته عن السحاب)، (قد ملئت زهراتي وهادا)، (توشح بسيف نهري)، (توشح بسيف نهري)، (أنا أولاكم بسيدنا الهمام وأحق)، (وتقوم قرطبة بالرد عليها، والاستهزاء بها في مطلع مناظرتها، ثم أخذت تعدد محاسنها هي الأخرى ومن ألفاظ السخرية والاستهزاء قولها: (كثرن نزرا)، (بذرت في الصخر الأصم)، (كلام العدى ضرب في الهذيان)، (ومن ألفاظها في الفخر، والمباهاة بما

⁽¹⁾ عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص 474-475.

لها (لي البيت المطهر الشريف) (في بقية محل الرجال الأفاضل)، (في جامعي مشاهد ليلة القدر)، (أن يوطئ غير تراي نعل)، (فأقروا لي بالأبوة)، (انقادوا لي على حكم البنوة)، ومن أنواع البديع فيها السجع المتمثل فيما يلي (مالهم يزيدون، وينقصون)، (ويطمعون، ويحرصون)، (إن يتبعون إلا الظن)، (إن هم لا يحرصون)، (ألمهم السهم الأسود)، (الساعد الأشد)، (النهر الذي يتعاقب عليه الجزر والمد)، (أنا مصر الأندلس)، (والنيل نهري)، (سمائي التأس)، (النجوم زهري)، (تجاريتم في ذلك الشرف)، (حسبي أن أفيض في ذلك الشرف)، (تبجتم بأشرف اللبوس)، (أي أزار اشتمتموه كشتنبوس)، (لي ما شئت من أبنية رحاب)، (روض يستغنى بنضرته عن السحاب)، (ملأت زهراتي وهادا ونجادا)، (توشح سيف نهري بحدائق نجادا)، (كثرت نذرا)، (بذرت في الصخر الأصم بزرا)، (ضرب من الهذيان)، (إني للايضاح والبيان)، (استحال المستقبح مستحسننا)، (أودع أجنان المهجوز وسنا)، (البيت المطهر الشريف)، (ضرب عليه رواقه التعريف).

ألفاظ النص سهلة واضحة لا غموض فيها، كما أن المعاني التي تضمنها النص، تشير إلى عبر كثيرة، وعظات حسنة، والنص غني بصور البديع كالكناية في قوله: "أبست الرعية برود التأمين" كناية على الإطمئنان الذي ينعم به الرعية والهدوء والأمان، "تميزت حمص غيظا" كناية على شدة الغضب واشتعال نيرانه، "سمائي التأس والنجوم زهري" كناية على ذلك الترف والعز والجمال الذي تتمتع به اشبيلية، وذلك الاهتمام الذي أولاه بها الأمير.

"بذرت في الصخر الأصم بزرا"، كناية على أن أرضها غير صالحة للزراعة لشدة قساوتها التي شبهها بالصخر، كما جاءت جمل النص قصيرة، خدمة للموضوع المعالج، والغالب على النص الأسلوب الإنشائي، وإذا كان موضوع النص هو الافتخار بين مدن الأندلس، فإن هذا الموضوع حمل في طياته عالما جماليا فسيحا له مقوماته ودعائمه الفنية جمع بين العقل والعاطفة والجمال معا.

من خلال هذه المجموعة من المناظرات التي وقفت عندها تبين لنا مدى اهتمام الموحدين بأدب المناظرات وما كان لها من ازدهار حينئذ وربما يرجع هذا إلى استعمالهم للمناظرة في دورسهم التعليمية لتسهيل الأمر عليهم، وكيف أولى خلفاء الموحدين عناية كبيرة بها نتيجة براعة إمامهم المهدي بن تومرت في هذا الفن الأدبي، الذي لا يجاريه فيه

أحد، مع أنه لم يصلنا من هذا الأدب إلا نصوص قليلة، وربما يعود هذا إلى ضياع معظمها، أو أنها لم تدون وقد برز أدياء آخرون في هذا الفن النثري نذكر منهم أبو زيد عبد الرحمان بن زكريا بن محمد الرجراجي (ت605هـ)، وأبو الحجاج يوسف بن عبد الصمد الفاسي المعروف بابن نموي (ت614هـ) والحرالي المراكشي (ت637هـ) وأبو الحسن نجبة بن يحيى الرعيني الإشبيلي (ت591هـ) وأبو بكر محمد بن طاهر الليثي الإشبيلي (ت603هـ) كما كان عبد المؤمن بن علي عالما بالأصول وبارعا بالجدل والحديث⁽¹⁾ هذا ما استطعنا جمعه مما وقعت عليه أيدينا من الأدياء الذي نوضر لهم، وقد تميز العصر الموحدى بأسلوبه الراقي الذي يتسم بالدقة في اختيار الكلمات، ووضعها في مكانها الملائم لها، وكما اتسمت مناظراتهم بغزارة المعاني، وعمقها، والتفنن فيها، وما ساعدهم على هذا هو ثقافتهم اللغوية الواسعة، ومعرفتهم الكبيرة بأصول الدين وفروعهم، إضافة إلى طاقتهم البيانية الكبيرة، وإلمامهم بعلوم البلاغة، وقد ساعد على هذا الازدهار والرقي الذي وصلت إليه المناظرات في هذا العصر ذلك الصراع المذهبي القائم بين المذهب الظاهري، والمذهب المالكي ويلييه ذلك الصراع الذي جمعها مع دولة المرابطين، كما نلمس عدم نوضيفهم للأدلة النقلية التي تتعلق بالافتباس، والاستشهاد من الكتاب والسنة، إلا نادرا كما حدث مع المهدي بن تومرت في مناظرته مع علي بن يوسف بن تاشفين حيث استشهد بأية من القرآن الكريم، وقد بدى هذا الفن ضيق الأنحاء ومحصور الأغراض الذي لم يزد عن الإستجابة لدواعي الدولة ومذهبها، ومسايرة ضرورات الدعوة الموحدية، إضافة إلى الوضع السياسي الي كان حافلا بالنشاط السياسي، والفكري، المصبوغ بصبغة الصراع الديني والسياسي.

(1) أحمد بن خالد الناصري: كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ج3، ص95.

توطئة

إن البحث عن الخصائص الفنية في النثر الأدبي، المغربي امتداد للدراسة التطبيقية التي أجريتها على نصوصه التي تناولتها، لأن الدراسة النظرية في صورها التي تقتصر على تأطير الشكل الخارجي للبنية التركيبية لهذه الأشكال لا تفيها حقها من الدراسة والبحث، لأنها بكل بساطة لا تعطيها نضرتها الحقيقية، وصورتها التعبيرية التي تعبر عن أساليب المغاربة، واختلاف طرقهم في صياغة الأساليب التعبيرية، ولذلك سأتناول بالبحث والتحليل المواد التي يتشكل منها ذلك الإبداع الأدبي، ومعاينة طرائق المغاربة التي ينقلون بها ما في أذهانهم من المعاني التعبيرية وما في قلوبهم من المشاعر الفياضة، وما في خيالهم الواسع من الصور البلاغية والإبداعية، ورغم تنوع هذه الأشكال النثرية، إلا أنها تحمل داخلها أساليب مختلفة ومتنوعة، واستخدام الصور البديعة المختلفة، واختيار الألفاظ والعبارات المناسبة للموضوع، وقد قمت باستظهار مجموعة من النصوص النثرية التي برزت بقوة حيث جسدت صورة كتابها، وخطابها ومناظرها الذين برزوا بقوة في هذه الميادين الأدبية، على الرغم من أن معظم هؤلاء الأدباء قد اتبعوا أساليب الكتابة المشرقية، إلا أنني لا أستطيع إنكار جوانب ابتكارهم لبعض الأشياء التي حازوا فيها شرف السبق، فاتخذت بذلك ابداعاتهم الأدبية بعدا فنيا خاصا، ميزهم عن غيرهم من الكتاب، ولو أمعنت النظر في هذه الأشكال النثرية في هذا العصر لأدركت ما فيها من جدة وتميز خاصة من الناحية الشكلية المتصلة بالبنية الخارجية والبنية الداخلية، والقالب العام الذي تساق فيه، ولعل أهم ما يستدعي الاهتمام ويستحق العناية بها، هو ما تحتويه هذه الأشكال من صور، وسعة خيال وإيقاع مميز.

1- البناء اللغوي:

تعد اللغة اللبنة الأولى التي تتشكل منها هذه الأشكال النثرية، فهي قوام بنيتها ومادتها الأولى التي تجعل منها أشكالا لها قيمتها الأدبية، وصورتها الإبداعية التي تميزها عن بقية الفنون الأدبية، فالأديب يصبح فنانا إذا أبدع عملا أدبيا وأتقن كتابته، وأخرجه إلى القارئ بصورة جيدة لأن كل كتابة أدبية رفيعة كالشعر الجميل، والنثر الأدبي البديع، هي فن من فنون الإبداع يمكن أن تضاف إلى الفنون الجميلة الأخرى كالموسيقى والرقص، والتصوير وغيرها من الفنون، وإذا كانت اللغة أداة من أدوات

الشعر كما قال الفيلسوف الألماني هيغل (HEGEL) "لأن الأديب حين يرسم لوحة بديعية بتصويره اللغوي، هو بذلك أكبر فنان، غير أن التصوير باللغة ليس كالتصوير بالفرشاة، وتوظيف اللغة ليس كتوظيف الألوان، والأصوات والألحان، كما أن توظيف الإيقاع في الكتابة الشعرية، خصوصا ليس كتوظيف الإيقاع في الرقص بأنواعه فاللغة تعتص على صاحبها، وتشمس بين يده فلا تسعفه بالقدر المطلوب على التصوير، فيعدم التوفيق وقد يقع في الحرمان"⁽¹⁾

من خلال هذه العلاقة التي تربط اللغة بالفن اتضح لي جليا أن الأديب يمكن أن يبدع في أي مجال أدبي مثل الفنان، ولكي يتمكن من هذا، وجب عليه التحكم الجيد في اللغة، إضافة إلى ثقافته الواسعة والكبيرة، وأن يكون ملما بكل العلوم والآداب والفنون وبهذا يستطيع أن يسمو ذلك الفن الأدبي، ويخرجه إلى الوجود في أحسن صورته، لأن اللغة هي مرآة عاكسة لصورة المجتمع، ومنتها هو الذي يطبع الفن بالجمال ويعبر عن الذات، وتصوراتها بامتياز، وإخلاص كبير، فاللغة هي أداة التواصل بين المبدع والمتلقي، وبها يتم التفاهم، وهي ذلك النبع المتين الذي يكشف لنا براعة الكاتب في توليد المعاني من خلال تلك الألفاظ الصامتة التي ينفخ فيها أحاسيسه وانفعالاته، فغثو ناطقة ذات دلالات ومعاني نابغة من الواقع وهي أول ما يشد انتباهنا عند القراءة، وهذا ما ذهب إليه عز الدين اسماعيل حيث قال: «إن عملية الإبداع الأدبي تتمثل أقوى ما تتمثل في إبداع اللغة»⁽²⁾ وخطباء، وكتاب ومناظروا هذا العصر جعلوا من اللغة لعبة في أيديهم، وتمكنوا من التلاعب بالألفاظ والكلمات وتشكيلها كما يشاؤون، مع أن لغة الأدب موضوع شغل كثيرا من النقاد العرب في المشرق والمغرب، لأن الأدب ليس نتاجا أدبيا خاصا بالمبدع وحده، أو بمعاصريه من القراء وإنما هو تراث أدبي وتاريخي ستتوارثه الأجيال على مر العصور.

ولعل أهم ميزة طبعت لغة هذا العصر، اصطباغها بالصبغة الدينية، لأن ألفاظها مستوحاة من القرآن الكريم، والحديث الشريف، وحين نقوم بدراسة هذه الألفاظ نتفاجأ بظاهرة شغلت النقاد العرب وكانت محور جدال ونقاش بين أنصار المعنى وأنصار اللفظ، ولكننا نرجح للتمازج الذي توصل إليه الدارسون والنقاد في هذا المجال، كالذي

(1) عبد المالك مرتاض: نظرية النص الأدبي، ص 67.

(2) عز الدين اسماعيل: الشعر العربي المعاصر (قضايا وظواهره الفنية والمعنوية)، دار العودة، بيروت، لبنان، ط 3، 1981، ص 178.

ذهب إليه ابن رشيق الذي جمع بين اللفظ والمعنى وجعلهما توأمين متلازمين، وضروريين للعمل الأدبي، مهما كانت درجة جودته أو ردايته حيث يقول: « فاللفظ جسم، وروحه المعنى، وارتباطه به ارتباط الروح بالجسد يضعف بضعفه، ويقوى بقوته». (1)

أما ابن خلدون فيرى أن الألفاظ أصل والمعاني تتبع فيقول: « إن صناعة الكلام نظما ونثرا إنما هي في الألفاظ لا في المعاني، وإنما المعاني تتبع لها وهي أصل» (2)، ولهذا وجب اختيار المادة اللغوية المناسبة والجيدة لأي عمل أدبي يقوم به الأديب الذي يجعل من نصه هدفا يجذب إليه القارئ بكل سهولة فيجعله يتفاعل مع هذا النص الذي يجعل منه نصا راقيا، نتيجة تفاعل ألفاظه معه، واقترانها بالمادة التركيبية، وفي هذا يقول حازم القرطاجني: « إن الصورة إذا كانت أصباغها رديئة، وأوضاعها متنافرة وجدنا العين نابية عنها غير مستلذة لمراعاتها، وإن كان تخطيطها صحيحا، فكذلك الألفاظ الرديئة القبيحة التأليف». (3)

وقد تختلف القيمة الفنية التي تحملها هذه الألفاظ من فرد إلى آخر، أو من جيل إلى جيل، سواء من خلال التجارب التي عاشها في حياته ومرت عليه فتركت أثرا في نفسه أو من خلال ما يحدث في المجتمع الذي يعيش فيه من أحداث كثيرة، قد تنقلب عليه إما سلبا أو إيجابا، كل هذا قد يفسح المجال للإنفعالات والمشاعر التي تكون خفية أن تظهر إلى الوجود، فتترجم كصورة من صور هذه الأشكال النثرية، مما يؤدي بهذه اللغة أن تتفاوت قوتها، وجزالتها من طبقة إلى أخرى حسب قدرتها البيانية وسعة ثقافتها الأدبية، كما تؤدي هذه الألفاظ إلى وجود غموض في العبارات، إن لم توظف بدقة وسلاسة فيصعب على المتلقي فك ذلك الإبهام وحل تلك الألغاز، وقد حدد حازم القرطاجني بعض ما يسبب هذا الغموض في العبارة فقال: « ومن ذلك أن يقع في الكلام تقديم وتأخير، أو يتخالف وضع الإسناد فيصير الكلام مقبولا أو يقع بين بعض العبارات وما يرجع إليها». (4)

(1) ابن رشيق القيرواني: العمدة في محاسن الشعر وآدابه، ج1، ص122.

(2) عبد الرحمن ابن خلدون: المقدمة، ص596.

(3) حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تح محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، 1981، ص129.

(4) المرجع نفسه: ص174.

هذا يستدعي منا الحديث عن معجمية هذه النصوص التي شكلها محيط هؤلاء الأدياء الذي فرضه عليه الموروث الثقافي العالق في أذهانهم، ولغته بذلك لغة الزمان والمكان ولغة المجتمع لأنها لغة الواقع، والمحيط أو البيئة الاجتماعية التي يعيش فيها هؤلاء الأدياء المغاربة.

1/1 - قضايا لغوية في الأشكال النثرية:

1/1/1 - المعجم اللغوي:

لو وقفنا عند لغة أدياء هذا العصر الذي تناولناه بالدراسة والتحليل، فإننا نلاحظ تفاوتاً في ألفاظها، من حيث اختيار خطباء وكتاب ومنظري هذا العصر لألفاظهم حيث يتميز نسيجهم اللغوي، بانتقائهم حسب الموضوع الذي تعالجه هذه النصوص وقد يعود هذا الاختلاف إلى اختلاف الملل والنحل، واختلاف الملابس المذهبية والدينية فمعروف أن المذهب الظاهري كان مستحباً من طرف خلفاء الموحدين، وقد عملوا على تشجيع رعاياهم باعتناقه، ولكن هذا أوجد صراعاً من طرف فقهاء دولتهم الذين كانوا راغبين عن هذا المذهب، لاعتناقهم المذهب المالكي، ومناصرتهم، وقد انطبع هذا في أديبهم حيث لمست في لغة أمراء الدولة الموحدية جزالة ورصانة وبساطة ممزوجة بالهدوء والعذوبة، كما أنها مباشرة في معضمها لا تلجأ إلى الإلتواء إلا نادراً، ويظهر ذلك في مخاطبة الخلفاء والأمراء، أو في الدعوة لمذهبهم الذي قام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبهذا فإن درجات لغتهم تفاوتت ألفاظها وتنوعت في دلالتها وقد حصرتها فيما يلي:

1- ألفاظ دالة على التهئة والفرح والأمل.

2- ألفاظ دالة على العدو.

3- ألفاظ دالة على الشكوى والإستعطاف

4- ألفاظ دالة على العقيدة والدعوى.

5- ألفاظ دالة على التحذير والوعظ والنصح.

1- ألفاظ دالة على التهئة والفرح والأمل:

لقد كان الوضع الذي عاشته الدولة الموحدية مضطرباً في معظمه، نتيجة الصراع السياسي والديني بين نظيرتها الدولة المرابطية مما استدعى ذلك كثرة الحروب، وظهور

الفتن، والكر والفر الذي كان محور الصراع، ورغم هذا كله لم يمنع من وجود فترات يعمها الهدوء والاستقرار السياسي فلم يمنع من وجود مظاهر التهنية الاجتماعية بين أفرادها، لذا حرص خلفاء الموحدين، وأدبائهم على الخروج على النمط الذي اعتادوا عليه في حياتهم اليومية من مظاهر الحزن، والألم والبكاء على فقد الأحبة والأصحاب والتخلص من الألفاظ الصعبة والقبیحة.

وتتمثل الألفاظ الدالة على الفرح والأمل في: (التأييد، الهداية، الجمع، العزة، الإخلاص، الإعزاز، النور، الكرم، السلام، الرحمة، القوة، الأمن، الرأفة، اللين، الوفرة، الوفاء، الجود، المغفرة، الفوز، السعادة، الجدة، الحق، الصلاح، النصر، العون، الرضى، القدرة، البهجة، الترغيب، النعيم، الرفعة، الراحة، النجاح، الخير، الأمل، الإحسان، الظفر).

هذه بعض الألفاظ الدالة على المعجم اللغوي لهذه الأشكال، ونلمس كثرة استعمالها من طرف خطباء وكتاب ومناظري هذا العهد للأهمية التي لعبتها في إثارة مشاعر الأنصار، ورفع معنوياتهم لتحفيزهم على الجهاد، ورفع راية الحق وتظهر هذه الألفاظ في خطبهم ورسائلهم بكثرة كخطبة المهدي بن تومرت التي خطبها في شيوخ المصامدة حين ولى عبد المؤمن خليفة له وقال فيها: «... قد فشت فيكم البدع، واستهوتكم الأباطيل وزين لكم الشيطان أذليل وترهات أنزه لسانى عن النطق بها، وأربأ بلفظى عن ذكرها فهذاكم الله بعد الضلالة وبصركم بعد العمى، وجمعكم بعد الفرقة، وأعزكم بعد ذلك، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين...»⁽¹⁾

ومنها خطبة أبو مدين الفاسي في قوله: « فرحمة ربي تسع الجميع، وفضل مولانا وافر بعم العاصي من خلقه والمطيع، فليس جوده مخصوصا لمن أطاع، ولا كرمه مختصا بمن أتى في عبادته بالمستطاع، بل هو مبذول بالسبق لمن شاء من خلقه وإن عصى»⁽²⁾ ومنها ما جاء في رسائل كتابهم كرسالة عبد المؤمن بن علي إلى الشيخ محمد بن سعد المعروف بابن مردنيش صاحب شرق الأندلس وجاء فيها: « من أمير المؤمنين أيدته الله بنصره، وأمده بمعونته، إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن سعد وفقه الله، ويسره

(1) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص352.

(2) حنا الفاخوري: الموجز في الأدب العربي وتاريخه، ج3، ص293.

لما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد فالحمد لله الذي له الإقتدار والاختيار، ومنه العون لأوليائه والإقذار وإليه يرجع الأمر كله فلا يمنع منه الاستبداد والاستئثار، والصلاة والسلام على محمد نبيه الذي ابتعثت بمبعثه الأضواء، والأنوار وعمرت بدعوته الأنجاد والأغوار، وخصم بدعوته الكفر والكفار، وعلى آله وصحبه الذين هم الكرام الأبرار، والمهاجرون والأنصار، والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله حين غيرته الغيار، وانعدم الامتعاض له والانتظار»⁽¹⁾.

ومنها أيضا الرسالة التي كتبها أبو المطرف بن عميرة إلى هود المستولي على الأندلس مهنئا له بوصول الكتاب العباسي إليه بولاية الأندلس وجاء فيها : « أما بعد كتب الله تعالى للمقام العلي المجاهدي المتوكلي سعادة لا تبلغ أمدًا إلا تخطته ويدها علوها أثبتته أيدي الأقدار وخطته من شاطبة وبركات الأمر المجاهدي المتوكلي والعهد الوثاقي المعتصمي، تتسكب كالمطر، وتتسحب على البشر، وتقضي بعادة النصر والظفر، وسعادة الورد، والصدر والحمد لله وعند العبيد من أداء فروض الخدم والقيام بحقوق النعم، ما عقدت عليه ضمائرهم، وسمت إليه نواظرهم واشترك فيه بأديهم وحاضرهم فجناب أملهم فسيح، وتجر خدمتهم ربيح، وحديث طاعتهم حسن صحيح، وبسنا النظر العلي اهتداؤهم، وفي الباب الكريم رجاؤهم، وبصدق العبودية اعتزازهم وإليها اعتزائهم، والله تعالى ينهضهم بوظائف المثابة العلية، ويحملهم على المناهج السوية، ووصل الكتاب الكريم متحليا برواء الحق، ناطقا بلسان الصدق، واصفا من التشريف والفخار المنيف، ما صدر عن إمام الخلق، فلا بيان أعجب من ذلك البيان»⁽²⁾.

فهي ألفاظ قوية في دلالتها حيث أنها نابغة من أعماقه، ومستوحاة من واقعه المعاش كما أنها فخمة، وفيها تجديد، وهذا راجع إلى عظمة الدولة الموحدية التي ازدهرت فيها هذه الأشكال النثرية بشكل كبير خاصة فن الكتابة بنوعها الديوانية والأدبية التي ظهر فيها التجديد الموحدى جليا وهذه ألفاظ مرتبطة بهذه الأشكال الأدبية لأنها تعبر عن الآثار الوجداني فيها.

2- ألفاظ دالة على العدو:

(1) عبد الله كنون، النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص411.

(2) المقرئ: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1، ص319-320.

وأقصد بها الألفاظ التي استعملها الموحدون في التنكيل بأعدائهم المرابطين وتشويه صورتهم لدى مناصريهم، فأطلقوا عليهم ألفاظا بشعة، وبذينة ولكنها قليلة ونجدها بكثرة في خطب ورسائل ومناظرات الإمام المهدي بن تومرت لأنه كان أكثر الناس بغضا وكرها لهم، لأنه يظن أنهم أهل مكر وخداع وأن دولتهم قامت على الظلم والفساد، وبما أنه صاحب دعوة حديثة وجديدة، فقد حاول بكل الطرق والوسائل التنكيل بأعدائه، ولقد كانت ألفاظه مستقرة في الإطار العام الذي يدعو به غير خارجه عنه، وهذا ما أكسبها قوة ورسانة كبيرة فنجدها مثلا في خطبه حيث يقول: « رفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين، وسيورثكم ارضهم وديارهم ذلك بما كسبته أيدهم وأضمرت قلوبهم»⁽¹⁾.

وقوله أيضا: « واعلموا وفقكم الله أن المجسمين والماكرين، وكل من نسب إلى العلم أشد في الصدر عن سبيل الله من ابليس اللعين، فلا تلتفتون إلى ما يقولون، فإنه كذب وبهتان وافتراء، على الله ورسوله، وما نسبوكم إليه من الخلاف لله والرسول فذلك خبث وغش للمسلمين وخيانة لله ورسوله... فانتهبوا وفقكم الله لهذه الحيل، التي يحتالون بها على عيشتهم، ودنياهم حتى حملهم ذلك الإفتراء على الله ورسوله حتى عكسوا الحقائق وقلبوها؛ وحرّفوا الكلام عن مواضعه، ونسبوا من دعى إلى التوبة والتوحيد، واتباع السنة إلى الخلاف؛ وسموه مخالفا ببيغيمهم، وسموا من اتبع الباطل وخطوات الشيطان من اتباع عادات الجهل والمداهنة، وأكل الحرام وراتكاب الآثام... والكفرة اليوم قد تبين للناس ما هم عليه من الدين، وعكس الأمور، وإيثار الظلال على الهدى، وإيثار العناد والطغيان، على العدل والإحسان وإيثار الاستكفاف والاستكبار على الاستسلام للأمر والإنقياد للحكم وإيثار الفساد في الأرض على الإصلاح فيها»⁽²⁾.

ومنها خطاب المأمون الموحد في الاعلان بإبطال دعوى المهدي وعصمته وجاء فيها: « نعوذ من أمرهم الرثين، وفعلهم الخبيث ، لأنهم في المعتقد كفار والسلام على من اتبع الهدى واستقام»⁽³⁾.

ومثله خطاب سليمان الموحد إلى ملك السودان ينكر عليه تعويق التجار وجاء فيه:

(1) عيد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص352.

(2) محمد المنوني: العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، ص193-194.

(3) عيد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص421.

« معلوم أن العدل من لوازم الملوك في حكم السياسة الفاضلة، والجور لا تعانیه إلا النفوس الشريرة الجاهلة»⁽¹⁾

وأستخلص هذه الألفاظ في (الظلال، المجسمين، الماكرين، سلطان، المارقين، الكفرة، الكفار، الشرير، الجاهل، الجور)، فهذه الألفاظ رغم قلتها إلا أنها حطت من قيمة أعدائهم وهزأت بهم سخرية كبيرة دون رحمة ولا شفقة، وقد حملت ألفاظها من القساوة والعنف ما منحها مكانة كبيرة عندهم كما شحنت عواطف الرعية، واستتهزت بهم مما جلت منهم من أدرك حقيقة هؤلاء المرابطين، وحاربهم ولبى نداء الدعوة الموحدية، وإلى جانبها ألفاظ استعملت للقضاء على العدو الداخلي، كمحاربة الفلاسفة والفقهاء الذين حاولوا التدخل في شؤون البلاد، وقد ظهر بقوة في غزو عقول العامة، وقد ثار عليهم أدباء الدولة الموحدية، وحاولوا القضاء عليهم بتحذير الرعية من خطرهم وخطبة أبو حفص بن عمر الأغماتي جسدت ذلك حيث يقول : « أياكم والقدماء وما احدثوا ، فإنهم في عقولهم حدثوا أتوا من الافتراء بكل أعجوبة وقلوبهم على الأسرار محجوبة، الأنبياء ونورهم لا الأغبياء وغرورهم عنهم يلتقي... »⁽²⁾، إضافة على خطبة أبو مدين الفاسي حيث قال: « عباد الله نجا المخنفون فخففوا الأثقال لتلحقوا، وفاز المتقون فإن شئتم الفوز فالله فاتقوا وترافق السعداء على الجادة، فأياهم فراقوا، وسابق النجباء إلى العبادة فسارعوا إليها وسابقوا، ووصل المشمرون فما ينتظر المقصرون... »⁽³⁾، ما ألاحظه على ألفاظ خطباء الدولة الموحدية هو أنها تتميز بالبساطة في التعبير وابتعادها عن وحشي الألفاظ وتمثلها الألفاظ الدالة على العدو الداخلي والتي جاءت في هذه الخطب وهي (القدماء، الأغبياء، المخنفون، المشمرون، المقصرون) فهي تعبير حقير عن أعدائهم، وتصوير ساخر لهم، وهي في معظمها لا تسيء إلى العدو بشراسة عكس الألفاظ التي استعملها أدباؤهم التي تتميز بالخشونة والقساوة ، وتحمل بداخلها كراهية كبيرة للمرابطين وأعدائهم وهذا يصور لنا ذلك العداء الكبير بين الدولة الموحدية وأعدائها في الداخل والخارج.

(1) عبد الله كنون : النبوءة المغربية في الأدب العربي، ج2، ص 424.

(2) المرجع نفسه: ج2، ص353.

(3) المرجع نفسه: ج2، ص355.

3- ألفاظ دالة على الاستعطاف:

تختلف ألفاظ الشكوى والاستعطاف من أديب إلى آخر، فيختار العبارات التي تؤثر في نفوس القراء، فيتفاعلون مع صاحبها، ويعيشون معه تلك المأساة كأنهم طرف فيها ولا نجد نصوصا كثيرة تدور حول الموضوع، ولدينا في الاستعطاف رسالة أبو جعفر بن عطية الشهيرة في استعطافه لعبد المؤمن، وهي رسالة تظهر فيها نفس الكاتب شاعر مرهف الحس، وهو يذوب حسرة لما يلقاه في سجنه من العذاب، وقد وضع فيها كل ما جادت به أنامله وما نطقت به قريحته وهذا ما جاء فيها:

« عَطْفًا عَلَيْنَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ كَانَ الْعَزَاءُ لِفَرَطِ الْهَمِّ وَالْحَزَنِ
قَدْ أَغْرَقْتَنَا ذُنُوبٌ كُلُّهَا لُجُجٌ وَرَحْمَةٌ مِنْكُمْ أَنْجَى مِنَ السُّفَنِ
وَصَادَفْتَنَا سِهَامُ الْبَيْنِ عَنْ عَرْضٍ وَعَطْفَةٌ مِنْكُمْ أَوْقَى مِنَ الْجُنَنِ »

لقد آن لمقالتي ان تسمع، وأن تغفر لي هذه الخطيئات أجمع، مع اني مقترف بالذنب معترف:

فَعَفُوا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَنْ لَنَا بِرِدِّ قُلُوبٍ هَدَاهَا الْخَفَقَانُ»⁽¹⁾

فالرسالة تبدأ بأبيات من الشعر ألفاظها كلها استعطاف، وقد ينقلب هذا الاستعطاف إلى المدح التقليدي في القصيدة العربية، فهو بهذا يتحصر على الأيام الخوالي وعلى العز الذي كان يتمتع به عندما كان وزيرا للخليفة عبد المؤمن بن علي، وكانت لغته المستعملة فيها مليئة بالطاقة المكونة داخله، ويمكن إجمال هذه الألفاظ في (العطف، العزاء، الهم، الحزن، الذنوب، الرحمة، المحن، النوح، صغار، الإنحطاط، النبذ، الإقتراف، البغض، الاعتراف، الإقتراف، العفو، الهدم). فهذه الألفاظ في مجملها تعبر عن الحزن والإستعطاف الكبير، وهي تصوير للمعاناة الكبيرة التي يعيشها الكاتب، وعذابه الدائم من غضب الخليفة عليه، فهو بهذا ينقل عذابه، ووحشته إلى جوار خليفته، واشتياقه وحنينه إلى مجالسته ومؤانسته، بنية صادقة خالصة وبألفاظ تعبر عما في قلب الكاتب، ثم يتهم نفسه بأكبر التهم، ويحمل نفسه وزر غيره لينال الرضى والعطف، ويحضى بالصفح والغفران، فترسل في هذه العبارات، وأجاد فيها للوصول إلى الغاية التي يبتغي الوصول إليها، فقد عرف كيف يهز عاطفته وكيف يستميله إليه، وقد منحته مكانة مرموقة لا ينازعه فيها أحد

(1) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص476-477.

من كتاب المغرب والأندلس غير "ابن زيدون"⁽¹⁾ الذي أبدع هو الآخر في رسالته المشهورة التي خطب فيها ابن جهور⁽²⁾ زعيم قرطبة وهي المعروفة بالرسالة الجديدة⁽³⁾ يستعطفه بها كي يخرج من السجن. ولعل أبو جعفر بن عطية بالغ في رسالته من استخدام ألفاظ الاستعطاف، والشفاعة بكثرة كونه لا يدري لأي سبب يعاقب عليه بالسجن حيث قام باستعراض طويل للذنوب التاريخية التي لو ارتكبها لكان فيها ما يفرض عليه هذا السجن، وهذه المعاملة التي يلقاها من خليفته.

4- ألفاظ دالة على العقيدة والدعوة:

استخدم أدباء الموحدين ألفاظا كثيرة في أشكالهم النثرية تدل في معظمها على عمق عقيدتهم الدينية، ومدى تمسكهم بمذهبهم الظاهري الذي بنو عليه مبدأهم في الحياة، إضافة إلى الفاظ الدعوة التي استعملوها بدقة ووضوحا في نتاجهم الأدبي لنشر دعوتهم الموحدية منها (الله، الحمد، التوحيد، المعروف، المنكر، الباطل، الرب، النية، الإخلاص، المسلمين، الأنبياء، الغيب، الرسول، الدين، السنة، الإسلام، الحكمة، الكتاب، التقوى، الإمام، المعجزات، النبوة، الرسالة، الصحف، الكبائر، آدم) مثل هذه الألفاظ استعملت بكثرة في خطبهم، وقد اختارها الخطباء لما لها من إيضاح لصورة العقيدة الدينية وتصوير في قالبها الذي أراده أصحابها كخطبة المهدي بن تومرت حيث قال فيها: « إن الله سبحانه وله الحمد من عليكم أيتها الطائفة بتأييده وخصم من بين أهل العصر بحقيقة توحيده، وقبض لكم من ألكم ضلالا لا تهتدون، وعميا لا تبصرون، لا تعرفون معروفاء، ولا تتكفرون منكرا... هذا المشار إليه عبد المؤمن فاسمعوا له، وأطيعوا ما دام سامعا مطيعا لربه فإن بدل أو نكص على عقبه أو ارتاب في امره ففي الموحدين أعزهم الله بركة وخير كثير، والأمر لله يقلده من شاء من عباده»⁽⁴⁾

وأجدها في خطبة أبو حفص عمر الأغماتي في قوله: « الأنبياء ونورهم... ﴿عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً إلا من ارتضى من رسول﴾⁽⁵⁾، الدين عند الله الإسلام، والعلم كتاب الله وسنة محمد عليه السلام، ما ضر من وقف عندهما ما جهل بعدهما، خير نبي

(1) أبو الوليد بن زيدون الوزير شاعر قرطبة الأول في عهد ملوك الطوائف، قربه بنو جهور، ثم اتصل ببني عبد في اشبيلية، اشتهر بحبه لولادة بنت المستكفي بالله توفي سنة 463هـ.

(2) أول ملوكهم أبو الحزم بن جهور حكم قرطبة من 422هـ إلى 435هـ، ودام ملكهم 41 سنة، عبد العزيز عتيق الأدب العربي في الأندلس، ص 98.

(3) الرسالة الجديدة سميت هكذا تمييزا لها عن الرسالة الهزلية التي أنشأها ابن زيدون في التهكم والسخرية من غريمه في ولادة الوزير عبدوس.

(4) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص 352-353.

(5) الجن: 26-27

في خير أمة، ﴿يُزَكِّيهِمْ وَيَعْلَمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾⁽¹⁾ « كتابهم أعظم كتاب أنزل، ونبأهم أكرم نبي أرسل، السيد الإمام، لبنة التمام، خير البرية على الإطلاق، بعث ليتم مكارم الأخلاق، أنزل الكتاب عليه مصدقا لما بين يديه من الكتاب، ومهيما عليه هو الشفاء والرحمة، وفيه العلم كله والحكمة، معجز في وصفه، عزيز في وصفه، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، آياته باهرة، قائمة ومعجزاته دائمة، إذ هي للنبوّة والرسالة خاتمة، لا تنتضي عجائبه، ولا تنتهي غرائب، ماذا أقول وقد بهر العقول حسبي، حسبي ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾⁽²⁾»⁽³⁾ وخطبة أبو مدين الفاسي التي يقول فيها: « عباد الله ... ملئت صحائفنا بالكبائر، وموجبات العذاب فرحمة ربي تسع الجميع، وفضل مولانا وافر يعم العاصي من خلقه والمطيع... اللهم اجعلنا يا مولانا ممن عاملته برحمتك ونظرته بعين رعايتك ورأفتك»⁽⁴⁾.
وكما أكثر للخطباء من استعمالهم لهذه الألفاظ، فقد شاركهم الكتاب في توظيف هذه الألفاظ في كتاباتهم فهذا كتاب عبد المؤمن بن علي إلى صاحب شرق الأندلس، وجاء فيه: « من أمير المؤمنين أيدته الله بنصره، وأمدّه بمعونته، إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن سعد وفقه الله، ويسره لما يرضاه، سلام عليكم ورحمة الله وبركاته، أما بعد فالحمد لله الذي له الإقتدار والاختيار ومنه العون لأوليائه والإقذار، وإليه يرجع الأمر كله فلا يمنع منه الاستبداد والاستتار، والصلاة والسلام على محمد نبيه الذي ابتعثت بمبعثه الأضواء والأنوار، وعمرت بدعوته الأنجاد والأغوار، وخصم بدعوته الكفر والكفار، وعلى آله وصحبه الذين هم الكرام الأبرار، والمهاجرون والأنصار، والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم، القائم بأمر الله حين غيرته الأغيار، وانعدم الامتعاض له والانتصار»⁽⁵⁾
ورسالة ادريس المأمون الموحد: « لا مهدي إلا عيسى بن مريم... اللهم اشهد أننا تبرأنا منهم تبرأ أهل الجنة من أهل النار ونعوذ بك من أمرهم الرثيث وفعالهم الخبيث، لأنهم في المعتقد كفار، والسلام على من اتبع الهدى واستقام»⁽⁶⁾

(1) البقرة: 151

(2) الكهف: 109.

(3) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص352-353.

(4) حنا الفاخوري: الموجز في الأدب العربي وتاريخه، ج3، ص293-294.

(5) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص411.

(6) المرجع نفسه، ص421.

وأيضاً رسالة أبو المطرف بن عميرة التي عباراتها في معظمها تعبر عن العقيدة الإسلامية خاصة في قوله: «ومما أفاده الكتاب المبهج بطيب أنبائه، نص علامة سيدنا صلوات الله عليه وعلى آبائه، فإنها تضمنت صفة الله عز وجل، من صفات الكمال، ودلت على مذهب أهل السنة في خلق الله، عز وجل، الأعمال، وأشعرتنا معشر العبيد بعناية سبقت بالمقام المجاهدي المتوكلي - أحسن الله تعالى إليه - حين تولى خلافة أمير المؤمنين صلوات الله عليه، فإنه لما شايعه بعزيمة مساعدة، ونية في مشاريع الصفاء والاخلاص وارادة، ألهم زيادة في العلامة شاركت الإمامة في صفة واحدة فهذه كرامة في العلامة، هي علامة الكرامة وهبة من مواهب الكشف يجدها من امتثل قوله: ﴿فَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ﴾⁽¹⁾ فكان من أهل الاستقامة، وتضمن الكتاب الكريم بيعة أهل جيان وما معها...»⁽²⁾ وهذه الألفاظ يمكن حصرها فيما يلي (أمير المؤمنين، الشيخ، السلام، الحمد، الصلاة الصحابة، الأولياء، المهاجرون، الأنصار، الرضا، الإمام، المعصوم، المهدي، القائم، عيسى، مريم، الجنة، النار، الهدى، الاستقامة، الكتاب، السيد، عز وجل، الكمال، السنة، المقام، الصفاء، الإخلاص، الإمامة، المجاهدي، المتوكلي) ورغم دلالة هذه الألفاظ الدينية إلا أن الغرض من استعمالها هو تحريك الدعوة الموحدية ونشر مبادئها في أهل المغرب فكان توظيفها توظيفا أدبيا وسياسيا في نفس الوقت وبالتالي تحريك النفس والمشاعر لحشد الجموع لمحاربة الأعداء، وكسر شوكتهم.

كما أجد ألفاظ العقيدة والدعوى في مناظراتهم ولكنها قليلة مقارنة مع خطبهم ورسائلهم، ومنها ما جاء في مناظرة يوسف بن عبد المؤمن والحافظ أبو بكر بن الجند حيث يقول فيها: «يا ابا بكر، ليس إلا هذا وأشار إلى المصحف، أو هذا، وأشار إلى كتاب سنن أبي داوود، وكان عن يمينه؛ أو السيف»⁽³⁾ ومناظرة المهدي بن تومرت مع علي بن يوسف بن تاشفين "إنما رجل فقير طالب للآخرة ولست بطالب دنيا، ولا حاجة لي بها، غير أنني أمر بالمعروف، وأنهى عن المنكر... وقد وجب عليك إحياء السنة وإماتة البدعة".⁽⁴⁾

(1) هود: 112.

(2) المقرئ: فح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1، ص 320.

(3) عبد الواحد بن علي المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص 199.

(4) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، ص 174-175.

وهذه الألفاظ كانت تحمل بين طياتها مبادئ الموحدين في ستر وإخفاء وهي (المصحف، السنن، أبي داوود، السيف، الآخرة، الدنيا، المعروف، المنكر، السنة، البدعة).

5- ألفاظ دالة على التحذير والوعظ والنصح:

لقد شغل موضوع التحضير والوعظ والنصح، اهتمام الناس بكل طبقاتهم فالخلفاء والأمراء استخدموا ما جادت بهم قريحتهم لجمع الناس حولهم ودعوتهم إلى الدخول في دعوتهم ولكن بنسبة قليلة مقارنة مع الأدباء، والفقهاء، وأهل الحديث وأصحاب العلم، فنلمس نشاط هذه المواضيع عند هذه الطائفة، وهذا راجع إلى كونهم الأقرب من العامة، وأيضا تمسكهم بالدين والعمل بما جاء فيه، وكانت مواضعهم لا تخرج عن إطارها الخاص بها كتقديم النصح والوعظ للخلفاء والأمراء، وأصحاب الأمر في البلاد، لتغيير ما هم عليه من الفساد والظلم للعباد، واهتمامهم بمصالحهم الخاصة واهمالهم لمصالح رعاياهم، فمنهم من يقبل النصح والوعظ، ومنهم من يرفضه، ويقوم بمعاقبة هؤلاء الوعاظ، وبما أن الدولة الموحدية قامت على مبدأ الدين والعمل بما جاء فيه، فكانت ألفاظهم تحمل كل هذه الدلالات.

5/1- ألفاظ دالة على التحذير: وتتلخص فيما يلي: (احذروا، الفرقة، الشتات، إياكم، اصرفوا) فهي تتمحور في هذه الخطبة "احذروا والفرقة، واختلاف الكلمة وشتات الآراء وكونوا يدا واحدة على عدوكم، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس وأسرعوا إلى طاعتكم وكثر أتباعكم وأظهر الله الحق على أيديكم، وإلا تفعلوا شملكم الذل وعمكم الصغار، واحتقركم العامة فتخطفتكم الخاصة".⁽¹⁾

5/2- ألفاظ دالة على الوعظ والنصح:

وتمثلها خطبة أبو مدين الفاسي "خففوا الأثقال لتلحقوا، وفاز المتقون فإن شئتم الفوز فالله فاتقوا، وترافق السعداء الجادة فايهم فراقوا، وسابق النجباء غلى العبادة فسارعوا إليها وسابقوا، ووصل المشمرون فماذا ينتظر المقصرون... ولا تتخيلوا الإقامة في دار لا بقاء لها، وتظنوا أن من جد على الجادة كمن تباهى بالباطل ولها، كلا إ والله إن ما ولدناه فلتراب، وما جمعناه فللذهاب، وما شيدناه فاللخراب، وما اكتسبناه ففي كتاب، وكل إنسان أزمناه طائره في عنقه ونخرج له يوم القيامة كتابا يلقاه منشورا... جعلني الله وإياكم ممن

(1) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص352.

قدم من دنياه لأخراه، واستجاب لربه من قبل أن يأتي يوم لا مرد له من من الله، وأجارني وأياكم من عذابه المهين، وغفر لي ولكم ولو الدينا ولجميع المسلمين".⁽¹⁾

هذه باختصار الألفاظ التي تمثل الوضع العام في بلاد المغرب، والذي صورته هذه الأشكال النثرية بتتوعها وبدالاتها التي تناولناها، كما أنها بينت لنا شخصية خطباء وكتاب الدولة الموحدية، وثقافتهم الواسعة والكبيرة مع أنها اصطبغت بالصبغة الدينية ولو تفحصناها جيدا لوجدناها ألفاظا بسيطة، ومألوفة بين الناس، ومتداولة فيما بينهم، وقد حددناها في هذه الأشكال النثرية حتى أنها متداولة بين الأدباء، في قضايا الأدب التي يعالجونها فبعضها يعبر عن الهدوء وعن الرأفة والألفة بين الناس وبعضها يصور تلك القسوة الشديدة، وذلك الحد الكبير اتجاه الأعداء، وبعضها يميل إلى النصح، والوعظ وبعضها يعبر عن الألم والقهر والمعاناة والأسى، فهي متنوعة بتتوع أحوال أفرادها ومجتمعاتها وكان القصد من هذا الاستعمال هو الإفهام، وبذلك أدخلوه من قيم الإبهام.

2- التراكيب:

تعددت الروافد المستعملة في الخطب والرسائل والمنظرات التي استخدمها الأدباء وهذا للضرورة التي اقتضتها مواضيعهم فتتوعت بين الروافد الدينية والروافد الأدبية وهذا التنوع في الاستعمال راجع إلى ثقافة هؤلاء الأدباء الكبيرة، والملمة بالعلوم والآداب المختلفة.

2/1- الروافد الدينية: ونقصد بها استعمال النصوص الدينية بنوعيتها: القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف ولا يكاد يخلو نص أدبي منها.

2/1/1- القرآن الكريم: لا يكاد نص أدبي يخلو من القرآن الكريم في أشكاله المتنوعة ووجد ذلك في خطبهم وأولها خطبة المهدي بن تومرت يقول فيها: « **﴿وَمَا رَبِّكَ بِظَلَمٍ لِلْعَبِيدِ﴾** ⁽²⁾ وقد استحضر هذه الآية كي يبين لصحابته أن الله يعلم ما تخفيه النفوس، وهو رحيم بعباده ولا يبرز عاطفة المخاطب وتحريك مشاعرهم، لتأكيد حجته واقناعهم بها، ومنها أيضا ما جاء في خطبة أبو حفص عمر الأغماتي التي جاء فيها قوله تعالى:

« **﴿عَالَمُ الْغَيْبِ فَلَا يَظْهَرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا إِلَّا مَنْ ارْتَضَى مِنْ رَسُولٍ﴾** ⁽³⁾ وقوله تعالى:

(1): عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص 356-357.

(2) فصلت: 46.

(3) الجن: 26-27.

﴿يُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾⁽¹⁾. فقد أورد فيها هذه الآيات لكي يؤكد للناس أن ما غاب على العباد وما خفي عنهم فإنه يظهر إلى الله تعالى فهو يعلم كل شيء وليؤكد على أنه لا ينام ولا يغفل عليه أي أمر من أمور العباد فهذا دليل على قدرته تعالى أما في الآية الثانية فأكد بين الخطيب أن الرسول صلى الله عليه وسلم بعث بالقرآن ليظهر العباد من الشرك ويعلمهم ما فيه من الأحكام الشرعية كما وظف قوله تعالى: "مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه"⁽²⁾ تأكيد على أن القرآن أنزل على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم ليؤكد ما سبقه من الأنبياء ويكون شاهداً على أنه خاتم الأنبياء، فالكتاب بمعنى الكتب السماوية التي أنزلت على من سبقه من الأنبياء وفي قوله: "أنزل الكتاب إليه مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ومهيئنا عليه"⁽³⁾ حيث اقتبس من قوله تعالى: "نزل عليك الكتاب بالحق مصدقاً لما بين يديه وأنزل التوراة والإنجيل"⁽⁴⁾ وأورد قوله تعالى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾⁽⁵⁾ واستحضر هذه الآية كي يؤكد للناس بأن ماء البحر الذي شبهه بالحر الذي يكتب به لا يكفي لكي يكتب كلمات القرآن الكريم الدالة على حكمه وعجائبه فقد أكثر الخطيب بالاستشهاد بالقرآن الكريم في خطبته وهذا دليل كبير على سعة اطلاعه على الروافد القرآنية، ومثاله خطبة أبو مدين الفاسي التي ضمها عدداً من آيات القرآن الكريم لتأكيد دعوته التي يدعو إليها لتصفية النفس من الخبائث والمنكرات، وقد وظف قوله تعالى: ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾⁽⁶⁾، حيث وعظ الناس وأخذ بنصحهم بالابتعاد عن ارتكاب الذنوب والتقرب من الله بالعمل الصالح وأداء العبادات واستحضر لهم هذه الآية لكي يذكرهم بكفار مكة عندما دعاهم الرسول للإسلام فرفضوا الدخول فيه فخاطبهم بهذا وأمرهم أن ينظرون بدلاً من الساعة التي تأتي فجأة فينظرون بوقت قبل مجيئها، وأكثر من القرآن الكريم وفي نفس السياق وهو الوعظ واستحضاره كقوله تعالى: ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنْ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ مُلْجَأٍ يَوْمَئِذٍ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَكِيرٍ﴾⁽⁷⁾ فنصحهم بأن يستجيبوا لما يدعوهم الله بالعبادة والتوحيد قبل فوات الأوان، وقبل

(1) البقرة: 151.

(2) المائدة: 48.

(3) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص357.

(4) آل عمران: 3.

(5) الكهف: 109.

(6) الزخرف: 66.

(7) الشورى: 47.

أن يأتي يوم القيامة يوم الحساب والعقاب والذي لا يمكن تأجيله يوم يكرم المرء أو يهان ولا يستطيع الإنسان أن ينكر ذنوبه التي اقترفها في حياته لأن الله عالم الغيب، واستحضاره لقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ فَلَا تَغْرِبْكُمْ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلَا يَغْرِبْكُمْ بِاللَّهِ الْغُرُورُ﴾⁽¹⁾ فذكرهم بأن يوم البعث آت ولا مفر منه وعدم بقائهم على ما هم عليه من لهو ولعب في الدنيا ووجب عليهم والتصديق بوعده الله وعدم الجري وراء مغريات الشيطان لأنه من شأنه أن يبعده عن كل ما يتصل بالدين الإسلامي، وختم خطبته بإغراهم ما ينتظرهم من الأجر والثواب وما سينالونه من الخيرات في الجنة ولكي يكون هذا وجب عليهم النظر في ما قدمت أيديهم في هذه الدنيا الزائلة.

فيجدون في الجنة بساتين وعيون تجري وزروع مختلفة وينعمون بمجلس حسن يستمتعون فيه، فذكر قوله تعالى: ﴿كَمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَاتٍ وَعَيْونَ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ! كَذَلِكَ وَأُورَثْنَاهَا قَوْمًا آخَرِينَ﴾⁽²⁾، وقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَتَنْتَظِرْ نَفْسٌ مَّا قَدِمْتَ لَعْدٍ، وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾⁽³⁾، وهذه الآيات تؤكد مدى تمسك المغاربة بالدين الإسلامي، كما وظف كثيرا من القرآن الكريم في خطبته التي تدور كلها حول الصفح والغفران ومخاطبة الله تعالى بنفس هادئة ومطمئنة تظهر فيها عاطفة الخطيب صادقة قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَنْ يَغْفِرِ اللَّهُ إِلَّا اللَّهُ﴾⁽⁴⁾، وقوله أيضا: ﴿كَتَبَ رَبُّكَ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ أَنَّهُ مَنْ عَمِلَ مِنْكُمْ سُوءًا بِجَهَالَةٍ ثُمَّ تَابَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَصْلَحَ فَإِنَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾⁽⁵⁾ وقوله تعالى: ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ سُوءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ اللَّهُ يَجِدِ اللَّهَ غَفُورًا رَحِيمًا﴾⁽⁶⁾.

ألاحظ أن خطب الموحدين كثيرة الاستشهاد بالقرآن الكريم لأنهم اتخذوه وسيلة من وسائل الدعوة لما فيه من اعجاز لفظي يؤثر على النفوس، ويشد الهمم ويقوي العزائم، ورسائلهم تزرخ أيضا بالقرآن الكريم وأكثر من عمد إلى الاستشهاد به هو إمامهم المهدي بن تومرت لتأكيد حجته لدى مناصريه، وقهر أعدائه ومنها ما جاء في قوله تعالى: ﴿وَأذْكُرُوا إِذْ كُنْتُمْ قَلِيلًا فَكَثَرْتُمْ﴾⁽⁷⁾ كي يبين لأصحابهم كم من فئة قليلة غلبت فئة كبيرة وانتصرت

(1) فاطر: 5.

(2) الدخان: 25-26-27-28.

(3) الحشر: 18.

(4) آل عمران: 135.

(5) النساء: 110-111.

(6) الأنعام: 54.

(7) الأعراف: 86.

عليها، ولكي يحببهم في الجهاد ويرغبهم فيه صاغه لهم في قالب تقليدي ومألوف وهو التجارة التي يتداولونها في الأسواق، فهذا التمثيل صاغه من قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ، تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكَ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَيُدْخِلْكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَسَاكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّاتٍ عَدْنٍ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾⁽¹⁾. وقوله تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَىٰ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ، وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنْ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقَاتَلُونَ، وَعَدًّا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ، وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ، وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾⁽²⁾، كما عظم القتل والجهاد في سبيل الله وأن الذين استشهدوا في الجهاد هم أحياء عند الله، قال تعالى: ﴿وَلَا تَحْسِبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ، وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾⁽³⁾، وقال تعالى: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أحيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَلَكِنْ لَا تَشْعُرُونَ﴾⁽⁴⁾، كما اقتبس قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ هُوَ مَوْلَاكُمْ...﴾⁽⁵⁾ من قوله تعالى: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ وَلَا تَفَرَّقُوا﴾⁽⁶⁾، يقصد به وجوب التمسك بالدين الإسلامي، ومنها ما جاء في رسالة أبو المطرف بن عميرة يدعو أهل الأندلس إلى الاستقامة كما أمرهم الله تعالى والعمل بأمر الله والدعاء إليه استشهد لهم قوله تعالى: ﴿فَاسْتَقِمُّ كَمَا أُمِرْتَ﴾⁽⁷⁾ وهناك اقتباس في رسالة أبو جعفر بن عطية في قوله: "تأ الله لو أحاطت بي كل خطيئة"⁽⁸⁾ مشيرا إلى قوله تعالى: ﴿مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً وَأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ﴾⁽⁹⁾، وقوله أيضا: "سخرت بمن في الوجود وأنفت لآدم من السجود"⁽¹⁰⁾، استحضر قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ وَاسْتَكْبَرَ وَكَانَ مِنَ الْكَافِرِينَ﴾⁽¹¹⁾.

(1) الصف: 10-11-12.

(2) التوبة: 111.

(3) آل عمران: 169-170.

(4) البقرة: 154.

(5) محمد بن تومرت: أعز ما يطلب، ص 258.

(6) آل عمران: 103.

(7) هود: 112.

(8) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج 2، ص 476.

(9) البقرة: 81.

(10) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي ج 2، ص 477.

(11) البقرة: 34.

وقوله أيضا: "وحطت عن يونس شجرة اليقطين"⁽¹⁾، مشيرا إلى قوله تعالى: ﴿وَأَنْبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّنَ الْيَقُوتِ﴾.⁽²⁾ ألمس أن الاستشهاد بالقرآن الكريم جاء بكثرة في الرسائل الديوانية وخاصة في رسالة المهدي بن تومرت الذي أكثر منه لإقناع أهله من المصامدة بقتال العدو لنشر الدين الحق وألمس بعض من هذا الاستشهاد في الرسائل الأدبية، إضافة إلى الاقتباس من القرآن الذي زين رسائلهم، خاصة منها الديوانية، وبدل هذا على الثقافة الكبيرة والشاملة التي يملكها كتاب الموحدين، ونلمس من هذا الاستشهاد والاقتباس في مناظراتهم. فجاء في مناظرة المهدي بن تومرت في وعض أمير المسلمين على بن يوسف بن تاشفين ونصحه بتغيير المنكرات المنتشرة في بلاده فقال: «قد ظهرت بملكك المنكرات، وفشت البدع وقد أمرك الله بتغييرها وإحياء السنة بها ذلك القدرة على ذلك، وأنت المأخوذ به، والمسؤول عنه وقد عاب الله تعالى قوما تركوا النهي عن المنكر فقال تعالى: ﴿كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مَّنْكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ﴾⁽³⁾»،⁽⁴⁾ أي لا ينهى بعضهم بعضا عن معاودة منكر فعلوه لأن هذا هو فعلهم السيء الذي يقومون به.

2/1/2 - الحديث الشريف:

إن الحديث النبوي الشريف هو ثاني مصادر الشريعة التي يقتبس منها، لأنه يعتبر الشارح والمفسر لكتاب الله وقد استخدمه الأدباء الموحدون في معظم خطبهم ورسائلهم، ومناظراتهم، واهتموا به كثيرا، خاصة أمراؤهم لاهتمامهم بجمع الأحاديث النبوية والعمل بما جاء فيها لأنهم اعتنقوا المذهب الظاهري الذي ينص على العمل بظاهر القرآن والحديث الشريف، وكانت طريقة التعليم في بلاد المغرب ساعدت في هذا وساهمت فيه، لأن المغاربة اهتموا في تعليم أولادهم بالمواد الإسلامية ومنها الحديث، وقد أشار ابن خلدون إلى هذا حيث قال: «فأما أهل المغرب فمذهبهم في الوالدان الإقتصار على تعليم القرآن فقط، وأخذهم أثناء المدارس بالرسم ومسائله واختلاف حملة القرآن فيه؛ لا يخلطون ذلك بسواه في شيء من مجالس تعليمهم، لا من حديث، ولا من فقه، ولا من شعر، ولا من كلام العرب، إلى أن يحذق فيه أو ينقطع دونه، فيكون انقطاعه في الغالب

(1) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص 477.

(2) الصافات: 146.

(3) المائدة: 79.

(4) ابن أبي زرع: الأنبيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب، وتاريخ مدينة فاس، ص174.

انقطاعا عن العلم بالجملة»⁽¹⁾ ولكن هذا لا يعني أن المغاربة اقتصرُوا في تعليمهم لأولادهم على القرآن فقط، وإنما حرصوا أيضا على تعليمهم بقية علوم اللغة، والحديث، والفقه، وهذا بعد بلوغهم مرحلة الفتوة والشباب، لأن الأطفال إذا نشؤوا على مبادئ القرآن وحفظه، وفهمه، فإن هذه العلوم ستكون سهلة الفهم لديه، ونلاحظ غزارة الاقتباس من الحديث في خطبهم بشكل كبير، وهذه الأحاديث التي وظفوها في خطبهم ومنها ما ورد في خطبة المهدي بن تومرت موظفا الحديث الشريف في قوله: "لا تزال طائفة بالمغرب ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله"، يشير إلى كون أصحاب المهدي هم الجماعة التي فضلها الله واختارها وهو بهذا يشير إلى الحديث، الذي قاله صلى الله عليه وسلم: «لا تزال طائفة من أمتي يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة»⁽²⁾، وأيضا قوله صلى الله عليه وسلم: "والذي نفسي بيده لو لم تذنبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم آخرين يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم".⁽³⁾

جاء هذا الحديث في خطبة أبي مدين الفاسي للتأكيد بأن الله يغفر الذنوب جميعها ما لم يشرك به ، كما أورد مثلا آخر لحديث ورد على لسانه صلى الله عليه وسلم قال فيه: "يا ابن آدم إنك ما دعوتني ورجوتني إلا غفرت لك ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم لو أنك أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة"⁽⁴⁾، فهذه الأحاديث في مجملها تدور حول الاستغفار والتوبة لله تعالى لأن باب التوبة مفتوح لكل الناس ومهما كثرت أخطاؤهم وذنوبهم، قال عبد الرحمان : «يقال لأحدنا أتحب أن تموت؟ فيقول لا، ويقول سوف أعمل، فلا يحب أن يموت ولا يعمل وأحب بشيء إليه أن يؤخر عمل الله ولا يحب أن يؤخر عمل الدنيا»⁽⁵⁾»⁽⁶⁾

فهذا الحديث يصفه فيه الخطيب حال الإنسان الذي لا يحب العمل والموت ويفضل الراحة والكسل، فهو يعظ وينصح ، وقد أكثر من أحاديث الاستغفار والتوبة، لتأكيد حجته واقناع أهله.

(1) عبد الرحمان بن خلدون: المقدمة، ص 556.

(2) ابن مسلم: الجامع الصحيح، 4، ج 8، ص 94.

(3) المصدر نفسه: 3، ج 5، ص 130.

(4) محي الدين يحيى بن شرف النووي: رياض الصالحين، ضبط وعلق حواشيه خالد رشيد القاضي، دار صبح اديسوفت، المغرب، الدار البيضاء، ط 4، 2006، ص 387.

(5) محمد خلف سلامة: الجوهر النقي الملتقط من زهد البيهقي، دار الهجرة للنشر والتوزيع، الرياض، السعودية، ص 54.

(6) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج 2، ص 356.

لقد كان للحديث الشريف توظيف مكثف وهم بهذا يكتفون بالإشارة إلى مضمونه العام، وقد وجد مكانا في أشكالهم النظرية واقتصر على الخطب الدينية دون سواها من الأشكال النظرية في هذا العصر وهذا لبيان أساليبهم التي يصطنعونها ولتقوية كلامهم والاستشهاد بما يسوقونه من أفكار عميقة يستمدونها منه.

وفي ذلك نقل للمتقي روحيا وفكريا إلى الحضرة النبوية الشريفة فيعاش الإسلام من منابعه الصافية الصحيحة ويصح سلوكه وتجاربه في الحياة، كما أن فيه ترغيبا في الإقبال على ما يدعو إليه الخطيب وترهيبا مما ينفر منه وفي ذلك أيضا إثراء للخطبة، وإقناع بالأفكار الواردة فيها بطريقة تتطلب الإذعان والتسليم... الخ

2/2/2- الرافد التاريخى:

تكثر الروافد التاريخية في أدب المغاربة، وهذا عن قصد منهم لأن التاريخ بالنسبة لديهم هو تراثهم الذي يعبر عن جمالية الفن والعلم الذي تهواه النفس، والهدف منه هو الإخبار بقصص الأولين وإعلام الناس بأخبار الأقسام والأمم الغابرة لأخذ العبرة منهم ولإشباع فضول الاطلاع على المجهول الغامض وفي هذا يقول الصالح الصفدي: «للزمان مرآة، وتراجم العلماء للمشاركة والمشاهدة مرقاة، وأخبار للماضين لمن عانتهم الهموم ملهاة، وقد أفاد التاريخ حزما وموعظة وعلمًا وهمة تذهب هما، وبيانا يزيل وهنا ووهما، وصبرا يبعث التأسى بمن مضى، واحتباسا يوجب الرضى بما خفى وجلا من القضاء»⁽¹⁾، وقوله أيضا: "إن للتاريخ أثرا كبيرا في الثقافة العامة فهو سجل الأيام من سياسة وعمران وفن وأدب"⁽²⁾، ويكثر هذا الرافد التاريخى في رسائل الموحدين ومناظراتهم، حيث حرص الكتاب على ذكر سلسلة الأنساب كما جاء في رسالة عبد المؤمن إلى الشيخ محمد بن سعد "من أمير المؤمنين عبد المؤمن إلى الشيخ أبي عبد الله محمد بن سعد وفقه الله... وعلى آله وصحبه الذين هم الكرام الأبرار، المهاجرون والأنصار، والرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم"⁽³⁾ ورسالة المأمون الموحدي "من عبد الله ادريس أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين إلى الطلبة والأعيان والكافة ومن معهم من المؤمنين والمسلمين"⁽⁴⁾.

(1) عبد الرحمن الجليلي: تاريخ الجزائر العام، ج1، ص16.

(2) المرجع نفسه: ص15.

(3) عبد الله كنون: النبوغ في الأدب العربي، ج2، ص411.

(4) المرجع نفسه: ص 421.

ومنها رسالة أبي المطرف بن عميرة إلى أمير المسلمين بن هود «أما بعد، فكتب العبيد كتب الله تعالى للمقام العلي المجاهدي المتوكلي سعادة لا تبلغ أمدًا إلا خطته، ويذا علوها أنبتته أيدي الأقدار وخطته، وبركات الأمر المجاهدي المتوكلي، والعهد الوائقي المعتصي»⁽¹⁾ وقوله أيضا: "شرف هذه الأمة بإمامة نجل الأئمة الخلفاء، وابن عم سيد الرسل، وخاتم الأنبياء"⁽²⁾

وتظهر في (أمير المؤمنين)، (عبد المؤمن)، (الشيخ)، (أبو عبد الله)، (المهاجرون)، (الأنصار)، (الإمام)، (المعصوم)، (المهدي)، (المقام)، (العلي)، (المجاهدي)، (المتوكلي)، (الخلفاء)، (سيد الرسل)، (خاتم الأنبياء)، (الوائقي)، (المعتصي)، فهذه الألقاب رموز السلطة والخلافة والمجد السياسي، وهناك شخصيات ذكرت في رسائلهم ومناظراتهم، وهي تمثل مكانتها التاريخية والدينية في الناحية الأدبية والدينية من أمثال (آدم)، (نوح)، (قادر)، (ثمود)، (الخليل)، (يونس)، (هامان)، (الرسول)، (العدراء)، (البتول)، (وحشي)، (المغيرة بن شعبة)، (الحسين)، (المعصوم)، (الإمام المهدي)، (عيسى)، (مريم)، (المنصور)، (الهمام).

فتظهر هذه الرموز البيانية في رسالة أبي جعفر بن عطية إلى عبد المؤمن "أنفت لآدم من السجود، وقلت إن الله تعالى لم يوح في الفلك لنوح، وبريت لقادر ثمود نبلا، وأبرمت لحطب نار الخليل حبلا، وحطت عن يونس شجرة اليقطين، وأوقدت مع هامان على الطين وقبضت قبضة من أثر الرسول فنبذتها، وافترت على العدراء البتول فقذفتها... وأكرمت لأجل وحشي كل حبشي... وشحذت شفرة غلام المغيرة بن شعبة، ناولت من قرع سن الحسين قضيبا أتيت حضرة المعصوم لائذا، وبقبر الإمام المهدي عائدا"⁽³⁾.

ويقول المأمون الموحد في رسالته: "لا مهدي إلا عيسى بن مريم"⁽⁴⁾

فهذه الشخصيات تمثل أسماء الأنبياء الكرام أو ألقابهم (آدم، نوح، الخليل، يونس، عيسى، الرسول) ومنها من يمثل شخصيات إسلامية دينية (العدراء، البتول، الحسين، المهدي)، ومنها شخصيات تاريخية ظهرت في عهد الأنبياء وارتكبت أعمال سيئة عبر التاريخ، (قادر، ثمود، هامان، وحشي، غلام، المغيرة بن شعبة).

(1) المقرئ: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1، ص319.

(2) المصدر نفسه: ج1، ص319.

(3) المصدر نفسه: ج5، ص185.

(4) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص422.

ومنها ما تمثل رموزا للحرب والجهاد، أو أشياء مادية (الفلك، النبل، الحطب، النار، الحبل، شجرة، اليقطين، الطين، الصحيفة، دار الندوة، الأحزاب، السقيفة، شفرة، البيض، الأصفر، الدماء، الثريد الأعفر، القضيب، القبر، السيف، الرايات، الأغمد، القلم، العلم، البساط، الجمان) يقول أبو جعفر في رسالته: "لم يوح في الفلك لنوح، أبرمت لاحتطاب نار الخليل حبلا، بریت لقدار ثمود نبلا، حططت عن يونس شجرة اليقطين، أوقدت مع هامان على الطين وكتبت صحيفة القطيعة بدار الندوة وظهرت الأحزاب بالقصوة وقلت أن بيعة السقيفة... شحذت شفرة غلام المغيرة بن شعبة... رغبة في الأبيض والأصفر، وسفكوا الدماء على الثريد الأعفر".⁽¹⁾

وقول أبو المطرف بن عميرة "خرجت الريات السود... لا يدخل في جنس ذوات الأغمد... لا يستقل بذكرها قلم، ولا يقطع علم".⁽²⁾

وكما وجدنا الشخصيات التاريخية فإننا وجدنا ذكرا للأماكن كما جاء في مناظرة أبو بحر بن إدريس (تميزت حمص غيضا، أنا مصر الأندلس والنيل نهري)،⁽³⁾ ومن الأماكن الشريفة والمقدسة قوله أيضا: "لي البيت المطهر الشريف، والاسم الذي ضرب عليه رواقه التعريف، في بقيعي محل الرجال الأفاضل، وفي جامعي مشاهد ليلة القدر"⁽⁴⁾

2/2/ الروافد الأدبية:

تتمثل هذه الروافد في الشعر والرافد التاريخي، وقد كانت في رسائل الموحدين وتظهر بكثرة في مطلع الرسائل أو في صدرها أو في آخرها، واقتصرت على الكتاب فقط دون الخفاء لكونهم مقربين من الشعراء، وكون بعضهم شعراء.

1/2/2- المزج بين الشعر والنثر:

لقد أبدع الكتاب في رسائلهم إذ كانت تستفتح بأبيات من الشعر، من نسج الكاتب في حد ذاته كقول عبد الغفور الكلاعي: "وقد يفتحون رسائلهم بالمنظوم... وقد يستفتحون رسائلهم بمنظوم غيرهم... وربما وصلوا صدور رسائلهم بالمنظوم، وقد يصلون صدور رسائلهم بمنظوم غيرهم"⁽⁵⁾ وهذا التمازج بين الشعر والنثر أوصل صاحبه إلى مكانة الإبداع الأدبي

(1) المقرئ: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج5، ص185.

(2) المصدر نفسه: ج1، ص319-320.

(3) عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص474.

(4) المرجع نفسه: ص475.

(5) الكلاعي (أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الأشبيلي الأندلسي): احكام صنعة الكلام، تح: محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، 1966، ص60-61.

وهذا ليس بعيدا عن مكانة أبي جعفر بن عطية التي فاق بها نظرائه من الأدباء والشعراء ورسالته الاستعطافية التي خاطب فيها عبد المؤمن بن علي زادته براعة واثقانا أدبيا كبيرا حيث يقول:

«عَطْفًا عَلَيْنَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَقَدْ
 قَدْ أَغْرَقْتَنَا ذُنُوبٌ كُلُّهَا لُجُجٌ
 وَصَادَفْتَنَا سِيَاهُ الْبَيْنِ عَنْ عَرْضِ
 هَيْهَاتَ لِلْخَطْبِ أَنْ تَسْطُو حَوَادِثُهُ
 مَنْ جَاءَ عِنْدَكُمْ يَسْعَى عَلَى تِقَةٍ
 فَالْتَوْبُ يَطْهَرُ بَعْدَ الْغُسْلِ مِنْ دَرَنِ
 أَنْتُمْ بَدَلْتُمْ حَيَاةَ الْخَلْقِ كُلِّهِمْ
 وَنَحْنُ مِنْ بَعْضِ مَنْ أَحْيَيْتُمْ مَكَارِمَكُمْ
 وَصَيِّبَةَ كَفْرِ أَخِ الْوُورِقِ مِنْ صِغَرِ
 قَدْ أَوْجَدْتَهُمْ أَيَادٍ مِنْكَ سَالِفَةً

بَانَ الْعَزَاءُ لِفِرْطِ الْهَمِّ وَالْحُزَنِ
 وَرَحْمَةً مِنْكُمْ أَنْجَى مِنَ السُّفْنِ
 وَعَطْفَةً مِنْكُمْ أَوْقَى مِنَ الْجُنَنِ
 بِمَنْ أَجَارْتَهُ رُحْمَاكُمْ مِنَ الْمِحْنِ
 بِنِصْرَةٍ لَمْ يَخْفَ بِطُشًّا مِنَ الزَّمَنِ
 وَالطَّرْفُ يُرْهَصُ بَعْدَ الرُّكُضِ فِي سُنَنِ
 مِنْ دُونَ مَنْ بَهَا كَلًّا وَلَا ضَنْنِ
 كَلَّتَا الْحَيَاتَيْنِ مِنْ رُوحٍ وَمِنْ بَدَنِ
 لَمْ يَأْلَفُوا النَّوْحَ فِي فَرَعٍ وَلَا فَنَنِ
 وَالْكَلُّ لَوْلَاكَ لَمْ يُوجَدَ وَلَمْ يَكُنْ

وقد ختمها أيضا ببيت من الشعر من إنشائه هو:

فَعَفَوْا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَمَنْ لَنَا بَرِدِ قُلُوبٍ هَدَّهَا الْخَفَقَانُ⁽¹⁾

وهذه الأبيات التي جاءت في مطلع الرسالة من البحر البسيط، والبيت الأخير الذي جاء في ختامها من البحر الطويل.

ونجد أيضا أبو المطرف بن عميرة كتب إلى ابن هود مهنئا له بولاية الأندلس في وسط رسالته بيتا من الشعر من بحر الطويل يقول فيه:

فَإِنْ نَحْنُ سَمِيَّاكَ خَلْنَا سِيُوفَنَا مِنْ التِّيهِ فِي أَغْمَادِهَا تَتَّبِسِمُ

ونجد أيضا رسالة أبي الحسن علي بن مروان إلى ابن الربيب يستعير منه مخطوطا، وكتب في ختام كتابه، أبيات من الشعر من إنشائه وهو يقول فيها:

أَنْسُ أَخِي الْفَضْلُ كِتَابٌ أَنْيَقُ أَوْ صَاحِبٌ يُعْنَى بَوْدٍ وَثِيقُ
 فَإِنْ تُعْرَهُ دُونَ رَهْنٍ بِهِ تَخْسَرُهُ أَوْ تَخْسَرُ وَدَادَ الصَّدِيقُ

(1) الكلاعي : احكام صنعة الكلام ص47.

وَرَبِمَا تَخْسَرُ هَذَا وَذَا فَاسْمَعْ رَعَاكَ اللهُ نَصْحَ الشَّقِيقِ» (1)

وما ألاحظه أن هذا المزيج بين الشعر والنثر، نجده في الرسائل الأدبية فقط دون الرسائل الديوانية أو الخطب والمناظرات، وهذا المزج هو دلالة واضحة على براعة كتاب هذا العصر واتساع ثقافتهم الأدبية لسعة إطلاعهم على أصول اللغة لأن أغلبية هؤلاء الكتاب كانوا شعراء، حيث نلمس الدقة في توليد المعاني في أشعارهم والتي تفاعلت مع إبداعاتهم الكتابية.

وعموماً فقد تعددت الروافد المعرفية التي كان الأدباء المغاربة يوظفونها في خطبهم، ورسائلهم ومناظراتهم كالقرآن والحديث، والتاريخ، والشعر، ونجد أن مواضيع الروافد التي استعملوها لا تختلف عنهم حيث ساروا على خطوات بعضهم البعض في هذه الاقتباسات وعموماً قد أضفت على هذه الأشكال النثرية إبداعاً أدبياً، من حيث التعبيرات والتراكيب لأنها موجهة إلى طائفتين من الناس في المجتمع تتمثل الأولى في: أصحاب المهدي بن تومرت وأهل دعوته الذين ناصروه وجلهم من عامة الناس، والثانية في: الخلفاء والأمراء والأدباء وهم من علية القوم، وأهل العلم وأصحابه الذين تداولوا على مناصب الوزارة، والقضاء، والحجابه، وقد كان لهذه الروافد تأثير على المتلقين بشكل كبير خاصة القرآن الكريم، والحديث النبوي الشريف واستتطاق التاريخ، واستحضار صورته، والاستشهاد بالشعر ترك انطباعاً جيداً في نفوسهم واستمال أكبر عدد ممكن من المناصرين لهم، وأعجز أعدائهم، وأثر على خصومهم وأتباعهم وكسر شوكتهم، ولهذا وجب على الأديب كي يتمكن من هذا أن يكون واسع الاطلاع على العلوم الأخرى كالفلسفة وعلوم اللغة والتاريخ وعلوم البلاغة، لأن هذه التوضيفات تعكس معالم شخصيتهم الأدبية والاجتماعية، وتعكس سمات فنهم الذي امتزج فيه مع هذه الروافد المعرفية وقد كانت هذه الاقتباسات موافقة لمعاني موضوعات أشكالهم النثرية.

2/ الخبر والإشياء:

2/1- الخبر:

تفاعل أدباء العصر الموحد مع نصوصهم الأدبية بشكل كبير خاصة التراكيب حيث نجدهم يمزجون المعاني بإيرادهم للجمل الخبرية التي يلجأ إليها الخطيب أو الكاتب أو

(1) المقرئ: نفع الطبيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1، ص320.

المنظر لتقرير الحقائق أو الإخبار عن الأحداث التي وقعت، حيث أكثروا من استعمالهم لهذا الأسلوب في أشكالهم الأدبية كقول المهدي بن تومرت في رسالته إلى أهل التوحيد من جماعته: "قيامكم في نصره الحق واجتهادكم على إحياء السنة، وتآلفكم وتعاونكم على اظهار الحق، واجتماعكم على إخماد الباطل والضلال، وجهاد المجسمين والمفسدين، فحمدنا الله تعالى على ذلك، وشكرناه إذ من علينا بالإخوان على إظهار الدين، وإحياء السنة"⁽¹⁾.

وقوله أيضا: "الجهاد تجارة لما فيه من البيع والشراء، لأن المجاهد باع نفسه، وماله من ربه، فاشترى منه ربه ماله ونفسه بالثمن الباقي الدائم الذي لا زوال له، وهو الجنة ونعيمها، فأخبرنا بذلك ليرغب فيه الراغبون، ويسعى فيه العاملون لعلمهم، وتصديقهم بالوفاء والوعد من الله، إذ لا شيء أعز عندهم منها فلما علم صدقهم وإيمانهم اشترى منهم ما باعوا بالجنة التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت، ولا يبلغه الوصفون، ولا يحيط به العقل"⁽²⁾.

فهذه الجمل جاءت كلها لتقرير حقائق ميدانية، وقد طغى هذا الأسلوب الخبري على كامل الرسالة، وقد عبر على انفعال الكاتب مع فكرته القائمة على الانتقام من أعدائه المرابطين وأجد أيضا رسالة عبد المؤمن بن علي التي ارتبط فيها الفعل بالخبر حيث يقول فيها: "وما حق من انقطع إلى هذا الأمر الموصل الواصل، وأزمع ما يناله من خيره المحوز الحاصل أن يناله منكم شاغل يشغله عن مقصوده، ويحيط به ما يصرفه عن محبوبه ومودوده فقد كان منكم في أمر أهل بننسية حين إعلانهم بكلمة التوحيد، وتعلقهم بهذا الأمر السعيد، وما كان ثم كان منكم في عقب ذلك ما اعتمده في أمر أهل لورقة وفقهم الله حين ظهر اختصاصهم وبنان اخلاصهم، وليس لذلك وأمثاله عاقبة تحمد، فالخير خير ما يقصد، والنجاة فيما ينزح عن الشر ويبعد"⁽³⁾ والملاحظ أن هذه الجمل التقريرية قد أكدت حقيقة أهل الأندلس السيئة وماهم عليه قبل دخولهم في طاعة الموحدين وكيف تغير حالهم إلى الأحسن بعد دخولهم في طاعة الموحدين وفي دعوتهم.

وقد جاءت معظم الرسائل الموحدية، والمناظرات تقاريرات بحقائق واقعية غير أننا نلمس ذلك المزيج بين الخبر والإنشاء في خطبهم، لأن خطبائهم أبدعوا فيها، واستعانوا بالقرآن والحديث لإقناع من حولهم، وكفي تكون حجتهم مقبولة ورغم هذا فإننا نلمس هذا

(1) محمد بن تومرت: أعز ما يطلب، ص257-258.

(2) المرجع نفسه: ص258.

(3) عبد الله كنون: النبوءة المغربي في الأدب العربي، ج2، ص414.

التمازج بين الأسلوبين والذي يظهر في خطبة أبو مدين الفاسي حيث يقول فيها: "نجا المخنفون فخفوا الثقال لتلحقوا، وفاز المتقون فإن شئتم الفوز فالتقوا، وترافق السعداء على الجادة فإياهم فرافقوا، وسابق النجباء إلى العبادة فسارعوا إليها وسابقوا، ووصل المشمرون فماذا ينتظر المقصرون"⁽¹⁾

فهذا التزاوج بين الأسلوبين الذي يدعو فيه الكاتب إلى الابتعاد عن كل ما من شأنه أن يهدم أركان الدين الإسلامي والتمسك بما جاء به القرآن والسير على نهج الفقهاء والمصلحين، وقد يكثر في الأسلوب الخبري الأفعال الماضية لتأكيد الخبر، والاقرار بوقوعه كقول أبو حفص في خطبته: "اختصر لهم الطريق إليه، فما ضر تلك النفوس الكريمة، والقلوب السليمة والألباب المعظيمة، ما زري عنها من العلوم القديمة، نقاهم من الأوضار والأدناس، وقال كنتم خير أمة أخرجت للناس كتابهم أعظم كتاب أنزل ونبئهم أكرم نبي أرسل... بعث ليتمم مكارم الأخلاق أنزل الكتاب عليه..."⁽²⁾، فقد عبرت هذه الأفعال (اختصر، زري، أخرجت، أنزل، أرسل...) عن حقائق وقعت في الماضي وقول المهدي بن تومرت في مناظرته: "دخل المهدي بن تومرت وأصحابه إلى مراكش، وقد جاهر بدعوته واستعلن أمره، فذهب إلى المسجد الجامع ولقي هناك أمير المسلمين علي بن يوسف فوعظه وأغلظ له القول، وكان علي جالسا والوزراء واقفون فقال الوزراء لابن تومرت سلم سلام الخلافة على الأمير، فقال ابن تومرت وأي أمير؟ إنما أرى جوارى منقيات، فلما سمع ذلك علي بن يوسف أزال النقاب عن وجهه وقال: صدق فلما رآه ابن تومرت قال له: الخلافة لله لا لك يا علي، وتمادى في وعظه وإرشاده وجادل العلماء الحاضرين جميعا"⁽³⁾، فقد عبرت عن النصح والوعظ حيناً، وعن الفعل والقول حيناً آخر ولكنها في معظمها مؤكدة للحقائق التي وقعت ولا تشوبها شائبة ولا يعترها شك ولا نقص ولا انكار لها مع تردد في تصديق الخبر الذي جاء وهي موجودة بشكل كبير في نصوصهم النثرية لأن الأدباء الموحدين حرصوا على اكتشافها لأهلهم، والعمل على إظهارها بقوة لصوف أحوال المجتمع الذي يعيشون فيه، ولتحذيرهم من الخطر الذي يتهددهم، بالتصدي له، ربما يرجع هذا الاهتمام إلى احساس الأمراء الموحدين وكتابهم بالذنب في كل ما أصاب البلاد والعباد، وكل هذا

(1) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص355.

(2) المرجع نفسه: ج2، ص353.

(3) المرجع نفسه: ج2، ص390.

سوف يخدم الدولة الموحدية بجلب أكبر فئات المجتمع لنصرتها والدخول فيها، ولهذا لم تخلوا أساليبهم من الإخبار كما امتزجت بالعاطفة القوية التي تحرك الهمم، وترفع منها، والغضب والسخط على دولة المرابطين بالقضاء عليها بمساعدات المغاربة.

2/2- الإنشاء:

امتازت الأشكال النثرية لهذا العصر بتنوع أساليبهم الإنشائية كالأمر والنداء والاستفهام وما بثته هذه الأغراض من شحن للنفوس للحرب والقتال، أو دفعها إلى الرحمة والعطف، أو تحذيرها من أمر ما وترغيبها في غيره وقد كان للأمر والنهي الدال على النصيح والإرشاد والوعظ نصيب فيها كما هو الأمر مع محمد بن تومرت في خطبته التي أكثر فيها من الأمر فقال: "حددوا الله خالص نياتكم، وأروه من الشكر قولاً وفعلاً... واحذروا الفرقة واختلاف الكلمة وشتات الآراء، وكونوا يداً واحدة على عدوكم فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس، وأسرعوا إلى طاعتكم... فاسمعوا له وأطيعوا مادام سامعاً مطيعاً لربه..."⁽¹⁾ فعمد الخطيب في خطبته إلى أسلوب الأمر والغرض منه هو طلب القيام بهذه الأفعال أو اجتنابها حيث يؤكد عليهم بوجوب طاعته لأنه يرى فيمن نصبه خليفة له الأقدر على تولي هذا الأمر.

وقوله أيضاً في خطبة له: "اعلموا وفقكم الله أن المجسمين والماكرين وكل ما نسب إلى العلم... فلا تلتفتوا إلى ما يقولونه فإنه كذب وبهتان، فانتبهوا وفقكم الله لهذه الحيل"⁽²⁾

فامتزجت هذه الخطبة بالأمر والغرض منه طلب القيام بالفعل والنهي وغرضه النصيح والإرشاد وقول أبو مدين الفاسي في خطبته: "عباد الله: نجا المخنفون الأثقال لتلحقوا، وفاز المتقون فإن شئتم الفوز فالله فانتقوا، وترافق السعداء على الجادة فأياهم فراقوا، وسابق النجباء إلى العبادة فسارعوا إليها وسابقوا... ﴿هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾"⁽³⁾، ﴿اسْتَجِيبُوا لِرَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَ يَوْمٌ لَا مَرَدَ لَهُ مِنَ اللَّهِ﴾"⁽⁴⁾ يقال لأحدنا أتعب أن تموت؟

﴿كُمْ تَرَكُوا مِنْ جَنَاتٍ وَعَيْونَ وَزُرُوعٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا قَوْمًا آخِرِينَ﴾"⁽⁵⁾ (6)

(1) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص 390.

(2) علي محمد الصلابي: إعلام أهل العلم والدين بأحوال دولة الموحدين، ص 64.

(3) الزخرف: 66.

(4) الشورى: 47.

(5) الدخان: 25-26-27-28.

(6) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص 355-356.

لقد مزج الخطيب بين الأساليب الإنشائية ونوع فيها فمن الأمر الطلبي (خففوا، تلتحقوا، انتقوا، رافقوا سارعوا، سابقوا) إلى الاستفهام بأداة (هل) وغرضها التصديق إلى الهمزة (أ) التي تدل على التصور وكيفية موت الإنسان الذي يظهر في صورة الموت المخيف و (كم) الدالة على العدد.

وقول المهدي بن تومرت في رسالته: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُجَبِّحُكُمْ مِنْ عَذَابِ أَلِيمٍ﴾ (1)

فيظهر هنا أسلوب النداء وتمثله أداة النداء (يا) وغرضها لفت الانتباه، والاستفهام وتمثله (هل) الدالة على الأمر بتصديق صاحب الأمر.

وقد بثت هذه الأساليب الإنشائية الحركة وجسدت انفعالات أصحابها معها وقوله أيضا: ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قَتَلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا﴾ (2) فهذا نهى حقيقي لأنه صادر من الأعلى (الله تعالى) إلى الأدنى (العباد) يدل على وجوب تصديقه تعالى وعدم الشك فيه.

ثم يكمل قوله: ﴿وَاصْبِرُوا عَلَىٰ دِينِكُمْ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ، فَإِنَّكُمْ عَلَىٰ الْحَقِّ الْمُبِينِ، عَنْهُ تَدَافِعُونَ، وَعَلَيْهِ تَقَاتِلُونَ، فَأَيُّقِنُوا بِثَوَابِ اللَّهِ، وَصَدَّقُوا بِمَا وَرَدَ فِي الْجِهَادِ، وَاعْتَصِمُوا بِاللَّهِ، هُوَ مَوْلَاكُمْ فَنِعْمَ الْمَوْلَىٰ وَنِعْمَ النَّصِيرُ﴾ (3) ففيها يطلب من أصحابه أن يصبروا على دينهم في وقت الشدة والفرح لأنهم يدافعون عنه وهو هدفهم الذي يسعون منه إلى القضاء على دولة المرابطين ثم يبشرهم ويخبرهم بالأجر الكبير الذي سينالونه إن تمسكوا بالله وبدينه الذي جاء به خاتم الأنبياء محمد صلى الله عليه وسلم.

فقد صبغت بأسلوب رائع تظهر فيه قوة الخطيب وحماسه الكبيرة التي جسدت عباراتها القوية المعبرة عن الوضع السياسي ويظهر الاستفهام والنداء في مناظرة ابن تومرت لفقهاء مراكش يقول فيها: "لما التأم المجلس للمجادلة تولى الكلام قاضي المرية محمد بن أسود وقال: ما هذه الأقوال التي تقال عنك في حق الملك العادل المنقاد إلى الحق والمأثر لطاعة اله على هواه؟ قال ابن تومرت: إن ما نقل عني قد قلته حقا ولي من ورائه أقوال أخرى أما قولك إن ملككم عادل منقاد للحق مؤثر طاعة الله على هواه؛ فهذه أقوال تقولونها وتتصرونه بها مع علمكم بأن الحجة متوجهة عليه، فهل بلغك يا قاضي أن الخمر تباع الدير جهارا

(1) الصف:10.

(2) آل عمران: 169.

(3) محمد بن تومرت: أعز ما يطلب ، ص264.

وأن الخنازير تمشي بين المسلمين وأن أموال اليتامى تؤكل ظلما وعدوانا؟... نصيحتي لك أيها الملك أن تأمر بسجن هذا الرجل وأتباعه وتتفق عليهم كل يوم ديناراً⁽¹⁾ إن هذه الأمثلة التي صغتها لدليل واضح على أن الأساليب الخبرية والإنشائية متنوعة في أشكال النثر عند أدباء الموحدين فهي مسايرة لحالاتهم النفسية، وواقعهم الاجتماعي فقد لعبت دورها في الاقرار بالحقائق وبالتأكيد عليها.

النظام البلاغي:

يلقى هذا المصطلح اهتماما كبيرا من الأدباء، والشعراء لأنه تعبير صادق ودقيق عما في أعماقهم الخفية، ونقل لصورة الحاضر، وتجسيدها لأن الصورة الأدبية هي عمل فني وإبداعي، وهذا ما يميزها عن الكلام العادي الذي نستعمله في حياتنا اليومية والذي لا يخضع لأية قوانين أو مقاييس نقدية، والصورة البلاغية تتفاعل مع الأديب بشكل جيد حتى أنها تتغير بتغير الأمزجة، وباختلاف الطبائع من مبدع لآخر حسب نفسيته، وتعتبر الصورة واحدة من أدوات الزخرفة والتحسين، سواء جاءت تشبيها أو استعارة أو كناية، أو غير ذلك مما وضعت له المصطلحات الكثيرة، ولكنها تظل من الزخارف الملازمة للأدب والضرورية له، وليست من قبيل تلك الزخارف الخارجية التي يمكن أن يستغنى عنها، وقد استخدمها الأدباء والشعراء في نتاجهم الأدبي، ووضفوا هذه الصور البيانية التي تعبر على ذوق الأديب الجيد، وإحساسه المرهف الذي يستهوي القارئ، فيتفاعل معه، ويتأثر بما جادت به أنامله ويؤكد جابر عصفور مدى أهمية الصورة البلاغية فيقول: "الصورة هي ابداع فني يخاطب الروح والإحساس والخيال معا فما نحصل عليه من التشابه أو سواه من عالم المجازات الاستعارية يكون له تأثيره في إنماء الصورة الجمالية الفنية، فيضيق جديدا يشوبه في خيالنا وروحنا فالعناصر المكونة للعمل الفني وبحيث تكون اتحادا عضويا، بحيث تتغلغل الفكرة أو العاطفة في كل جزء من أجزاء العمل الفني، وبحيث تعكس كل صورة وكل لفظة فيها".⁽²⁾

ويقول أيضا: "الصورة هي التعبير بما فيه من حيث تحسين وتزيين أو خصوصية أو تأثير، وهذا التحسين أو التزيين قد يسمى إجازا أو توكيدا أو تقديما أو تأخيرا وبالجملة ما نسميه

(1) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص 390-391.

(2) جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار المعارف، مصر، القاهرة، (د.ط)، ص336.

تركيبا كما يسمى في أحيان أخرى مجازا، أو تشبيها أو استعارة أو كناية، وبالجملة ما نسميه نحن بالصورة الفنية⁽¹⁾

يفهم من قول هذا الناقد أن الصورة البلاغية المقصودة بالدراسة هي: التشبيه والاستعارة والكناية وهذه الزخارف الفنية التي يستعملها الأدباء ضرورة لأي عمل فني أدبي، لأن هذه العناصر الجمالية تضي على النص رونقا وجمالا، وتؤثر في النفوس والقلوب، فيتفاعل المتلقي معها، ويدرك علاقته بها، فينسجم مع ابداع الأدباء في أي فن كان، لأن الصورة الفنية ترتبط بخيال الأديب الذي تجسده ابداعات المغاربة الظاهرة في هذه الأشكال النثرية التي تجسدها البيئة المغربية بكل جوانبها الاجتماعية والسياسية والثقافية التي انعكست ايجابا على هذا العمل الفني الذي اتحد مع هذه الصور اتحادا فنيا مما جعلها تتغلغل مع الفكرة، التي أراد الأديب إيصالها والتي تظهر في كل جزء من أجزاء هذا العمل الفني الذي تعكسه ألفاظه وعباراته التي تصور رؤيته الفنية.

الاستعارة:

الاستعارة من المجاز اللغوي، وهي تشبيه حذف أحد طرفيه، ويستعار لفظ المشبه ليدل على معنى يريد المتكلم، ويستعمله استعمالا مؤقتا وهي من الصور البيانية ويعرفها أبو هلال العسكري فيقول: «الاستعارة نقل العبارة من موضع استعمالها في أصل اللغة إلى غيره لغرض، وذلك الغرض إما أن يكون شرح المعنى وفضل الإبانة عنه، أو تأكيده والمبالغة فيه، أو الإشارة إليه بالقليل من اللفظ؛ أو تحسين الغرض الذي يبرز فيه»،⁽²⁾ وبهذا فالاستعارة هي اللفظ المستعمل في غير موضعه لعلاقة المعنى الواحد بعبارات أخرى بوجود قرينة تربطه بالمعنى الأصلي وقد اهتم بها العرب في كلامهم كثيرا وفي هذا يقول قدامة بن جعفر: «أما الاستعارة فإنما احتيج إليها في كلام العرب لأن ألفاظهم أكثر من معانيهم، وليس هذا في لسان غير لسانهم؛ فهم يعبرون عن المعنى الواحد بعبارات كثيرة ربما كانت مفردة له وربما كانت مشتركة بينه وبين غيره؛ وربما استعاروا بعض ذلك في موضع بعض على التوسع والمجاز»⁽³⁾

(1) جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، ص 35.

(2) أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، ص 268.

(3) قدامة بن جعفر: نقد النثر، ص 64.

وقد أخذ الأدباء الموحدون مناهج الزخرفة والتتميق، ونوعوا فيها بما في ذلك الإستعارات التي ابتعدوا فيها بخيالهم، وأغربوا فيها ومن أمثلتها قول بحر بن إدريس في مناظرته: «ألبست الرعية برود التأمين»⁽¹⁾ فالكاتب شبه (البرود) بالثياب حيث صرح فيها بالمشبه (الرعية) ووجه الشبه فعل (ألبست)، وحذف المشبه به (الثياب) ونوعها استعارة مكنية.

وقوله أيضا: «بذرت في الصخر الأصم بزرا»، والكاتب قد شبه الصخر الأصم بالأرض الصالحة للزراعة، فحذف المشبه به، ورمز له ببعض لوازمه (بذرت)، (بزرا) ونوعها مكنية.

لمست شحا كبيرا في نصوص الموحدين في استعمالهم للاستعارات، وما وقعت عليه من نصوص لم أجد لها إلا في المناظرات وخاصة منها الأندلسية "لأن رسائل المناظرة الأندلسية تفيض بهذه الصور البيانية"⁽²⁾ وبهذا فإنني بمست جمودا أدبيا لدى أدباء الموحدين الذين ابتعدوا عن الصورة الجمالية والفنية في نصوصهم.

الكناية:

ويقصد بها كل لفظ أطلق وأريد به لازم معناه مع جواز إرادة ذلك المعنى وقد عرف أبو هلال العسكري الكناية بقوله: «وهي أن يكنى عن الشيء، ويعرض به ولا يصرح على حسب ما عملوا باللحن والتورية عن الشيء».⁽³⁾

وقد استعملها المغاربة بشكل كبير في أشكالهم وهذا لتغطية المعنى الأصلي وهذه الدلالات مستمدة من البيئة المغربية فقد عمد إلى عنصر التشخيص والتجسيم والتشويق والتتميق في نفس الوقت وتظهر الكناية فيما قاله أبو مدين الفاسي في خطبته: "لئن كانت ذنوبنا كثيرة، ومساوينا خطيرة، وسيئاتنا أربت عن الحصى، وموبقاتنا جلت عن العد والإحصاء".⁽⁴⁾

كناية عن كثرة الذنوب، وارتكاب المعاصي فمن شدة كثرتها حتى صعب عدها.

(1) عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص474.

(2) أحمد جاب الله: الأبعاد الموضوعية والفنية في الرسائل الأندلسية خلال القرن الخامس الهجري، ص300.

(3) أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، ص368.

(4) حنا الفاخوري: الموجز في الأدب العربي وتاريخه، ج3، ص293.

وقول ابن تومرت في رسالته: «المجاهد باع نفسه ، وماله من ربه، فاشترى منه ربه ماله، ونفسه بالثمن الباقي الدائم الذي لا زوال له، وهو الجنة ونعيمها»⁽¹⁾ كناية على الجهاد في سبيل الله للفوز بنعيم الجنة.

وقول عبد المؤمن بن علي في رسالته: «الحمد لله الذي له الإقتدار، والاختيار ومنه العون للأوليائه والإقدار، وإليه يرجع المر كله فلا يمنع منه الاستبداد والاستئثار»⁽²⁾ كناية على قدرة الله الواسعة وهو رب الكون والعباد.

وقوله أيضا: « فلا يغرنكم بالله الغرور، فالدنيا دار الغرور، وسوق المحال»⁽³⁾، كناية على عدم الجري وراء الدنيا لأنها زائلة ولا يبقى منها غير العمل الصالح الذي يشهد لصاحبه يوم القيامة.

وقول المأمون الموحي: «كتب الله لكم عملا منقادا، وسعدا وقادا، وخطرا سليما لا يزال على الطاعة مقيما، من مراكش كالأها الله تعالى وللحق لسان ساطع، وحكم وقضاء لا يرد وباب لا يسد وظلال على الأفاق تمحو النفاق»⁽⁴⁾ كناية على المكانة التي تحتلها الدولة الموحدية وما تتعم به من الاستقرار السياسي.

وقوله أيضا: «والله يعيننا على القلادة التي تقلدناها»⁽⁵⁾، تدل على تولية الحكم، والقيام بأمر الموحيين ومن أمثلة ذلك أيضا قول أبو حفص عمر الأغماتي: ﴿حَسْبِي حَسْبِي قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لَكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفَذَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَذَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾⁽⁶⁾،⁽⁷⁾ كناية على إعجاز القرآن الكريم، وكثرة كلماته التي لو كتبت لما كفاها البحر.

وقول أبو جعفر بن عطية: "تقاتلوا رغبة في الأبيض والأصفر"⁽⁸⁾ معبرا عن القتال من أجل الحصول على المصوغات من الذهب والفضة.

وقول أبو الحسن بن مروان الرباطي في رسالة كتبها إلى صديقه ابن الربيب طالبا استعارة كتاب له: "يا أخي سدد الله آراءك، وجعل عقلك أمامك لا وراءك"⁽⁹⁾ كناية على استخدام العقل في كل الأمور الصغيرة والكبيرة، وقوله أيضا: «هي مؤنسي إذا أوحشني

(1) محمد بن تومرت: أعز ما يطلب، ص258.

(2) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص411.

(3) المرجع نفسه: ج2، ص412.

(4) المرجع نفسه: ج2، ص421.

(5) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص422.

(6) الكهف: 109.

(7) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص345.

(8) المرجع نفسه: ج2، ص477.

(9) المرجع نفسه: ج2، ص460.

الناس، وكاتم سري إذا خانوني بشئ»⁽¹⁾ وقد عبر في هذا المقطع من الرسالة عن مكانة الكتاب التي يحتلها بين الناس حيث أنه الرفيق المؤنس في الوحدة، وحافظ الأسرار.

وقول ابو جعفر بن سعيد في رسالته الإعتذارية: «إني لأشوق الناس إلى مشاهدة تلك المكارم وأحبهم في محاضرة تلك الآداب المترادفة ترادف الغمائم ولكن شغلي عارض قاطع»⁽²⁾ كناية على اكتناظ مجلس الأمير بالأدباء والشعراء لتبادل المساجلات والآراء. كما جاء في رسالة أبو المطرف بن عميرة قوله: «وصل الكتاب الكريم متحليا برواء الحق، ناطقا بلسان الصدق، واصفا من التشريف والفخار المنيف»⁽³⁾، وقد ذهب الكاتب بهذا إلى عدالة العباسيين واتباعهم سياسة الحق والعدل.

وقوله أيضا: "يستلمون البساط الأشرفي"⁽⁴⁾ كناية على حصولهم على السلطان والملك وقيامهم بأمر الأندلس.

وقول بحر بن إدريس في مناظرته التي أكثر فيها من الكناية: «ألهم السهم الأسد والساعد الأشد»⁽⁵⁾ كناية على القوة وشدة التحصين.

وقوله: «النيل نهري وسمائي التأنس، والنجوم زهري»⁽⁶⁾ كناية عن ذلك العز والترف الذي تتعم به في ظل حكم هذا الأمير، وقوله أيضا: «لي ماشئت من أبنية رحاب، وروض يستغنى بنضرته عن السحاب، قد ملأت زهراتي وهادا ونجادا، وتوشح سيف نهري بحدائق نجادا»⁽⁷⁾ وهو بهذا يعبر عن ذلك الاطمئنان الذي تتعم به وتلك الرفاهية التي تتمتع بها وتلك الخيرات التي تملكها.

من خلال ما سبق وجدت غزارة في استعمال الكناية فقد عمد لها أدباء الموحدين بكثرة وهذا دليل على تمتعهم بفصاحة بلاغية كبيرة، مع تنوع في أساليب البيان المستعملة، وهم بهذا ابتعدوا عن غريب الأفاظ ووحشيتها والتي تنقص من حلاوة الأدب وتفسد طابعه الإبداعي.

التشبيه:

يعتبر التشبيه صورة من الصور البيانية تجسد المعنى في شكل محسوس وهو بهذا يبين أن شيئا من أشياء شاركت غيرها في صفة أو أكثر وقال فيه قدامة بن جعفر "بأنه

(1) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص461.

(2) حكمت علي الوسي، الأدب الأندلسي في عصر الموحدين، ص182.

(3) المقرئ: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1، ص319.

(4) المصدر نفسه: ج1، ص321.

(5) عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص474.

(6) المرجع نفسه، ص474.

(7) المرجع نفسه: ص475.

أشرف كلام العرب وفيه تكون الفطنة والبراعة عندهم، وكلما كان المشبه منهم في تشبيهه ألطف، كان بالشعر أعرف، وكلما كان بالمعنى أسبق، كان بالحذق أليق⁽¹⁾ ويعتبر التشبيه ركنا من أركان الخيال لأنه الأقرب إلى الفهم كونه من ألوان التعبير الجميل واستخدمه أبو هلال العسكري على أنه إبانة أحد الموصوفين مناب الآخر بأداة التشبيه⁽²⁾ وهو قسمان حسب تعريف قدامة بن جعفر "تشبيه للأشياء في ظواهرها وألوانها وأقدراها، ومنه تشبيه في المعاني"⁽³⁾، فالتشبيه هو كل ما يجمع بين شيئين، ويتساوى بينهما ويتمثل بينهما في جانب من الجوانب أو أكثر، وقد استخدمه المغاربة بشكل كبير حتى اعتبروه وسيلة من وسائل التتميق والتزيين وسأعرض لاستخداماته في نصوص الموحدين ومن أمثلة ذلك ما قاله محمد بن تومرت حيث شبه الجهاد بالتجارة لما فيه من البيع والشراء لأن المجاهد باع نفسه وماله إلى ربه والله اشترىها منه تشبيها بما يجري في التجارة من مبادلات البيع والشراء فقال: «الجهاد تجارة لما فيه من البيع والشراء»⁽⁴⁾، والتشبيه هنا مبني على اشتراك الجهاد والتجارة في البيع والشراء ونوعه تشبيه بليغ ذكر فيه المشبه والمشبه به وهما (الجهاد والتجارة) وحذف وجه الشبه والأداة.

وقد جاء تشبيهه في بيت شعري من افتتاحية أبو جعفر الشعرية التي تصدرت رسالته يقول فيه:

وَصَبِيَّةٌ كَفَرَاخِ الْوُرُقِ مِنْ صَغْرٍ لَمْ يَأْلَفُوا النَّوْحَ فِي فَرَعٍ وَلَا فَنٍّ⁽⁵⁾

فالتشبيه يظهر في الشطر الأول من البيت وهو (وصية كفر أخ الورق من صغر) حيث شبه الأطفال الصغار بفراخ الورق وهو طائر في الصغر ونوعه تشبيه مرسل أو مفصل فنذكر المشبه وهو الصبية) والمشبه به (فراخ الورق) وجه الشبه (الصغر) ، وأداة الشبه (الكاف). وهناك تشبيه مؤكد وقد استعمله الأدباء لأنه مستوحى من واقع البيئة العربية الجميلة وهذا بوصف اشبيلية وما عليها من الجمال والخيرات حيث يقول بحر بن ادريس في مناظرته: «أنا مصر الأندلس والنيل نهري، وسمائي التأنس والنجوم زهري»⁽⁶⁾.

(1) قدامة بن جعفر: نقد النثر، ص 58.

(2) أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، ص 293.

(3) قدامة بن جعفر: نقد النثر ص 58.

(4) محمد بن تومرت: أعز ما يطلب، ص 258.

(5) المصدر نفسه: ص 476.

(6) عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص 474.

حيث أنه شبه الأندلس بأنها مصر التي نزر بنهر النيل العظيم، والسماء هي مؤنسها وشبه النجوم بالأزهار المنتشرة في الحدائق، والرياض والبساتين.
وقوله: «سيدنا الهمام»⁽¹⁾ شبه الأمير بالسيف وهو تشبيه في المعنى، ويمكن أن نصنف هذه التشابيه التي جاءت في هذه المناظرة التي نجدها عادة في فضائل البلدان على بعضها البعض، وجاء في مناظرة المهدي بن تومرت لعلماء مراكش بحضرة علي بن يوسف بن تاشفين قوله: «وأي أمير؟ إنما أرى جوارى منقبات»⁽²⁾ حيث شبه المرابطين بالجوارى اللواتي يضعن على وجوههن نقابا لتغطية الوجه.

ألاحظ أن الخطباء والكتاب والمناظرين قد نوعوا في استعمالهم للصور البيانية في نصوصهم النثرية حيث لمست هذا التنوع، وهذا راجع إلى معرفتهم لعلوم البلاغة العربية فتفننوا في إيرادها وتفاوتت هذه الاستعمالات من أديب لآخر وحسب ثقافته الأدبية، واقتصرت في بعض الخطب والرسائل والمناظرات دون سواها، فزادت في أساليبهم روعة وجمالا، فإن أحسن الأديب استخدام هذه الصور البيانية في نصه أضفت عليه تميزا أدبيا، لأن الصورة عمل فني بالدرجة الأولى، كما أنها من وسائل إخفاء عيوب النص، وكل هذه الصور في معظمها دعوة للقارئ للتفاعل مع نصوصهم الأدبية، فتتوعدت من الإستعارة والكناية والتشبيه، ورغم قلتها إلا أنها لعبت دورها في اعطاء جانب فني على الأدب في هذا العصر، حيث لم يلتزم هؤلاء الأديباء بالأدب المشرق، في خصائصه الفنية، وإنما كانت لهم خاصيتهم الفنية والجمالية فهو نقل لما يشعرون به، وتصوير للمجتمع الذي يعيشون فيه بتجسيد الواقع في أديبهم.

3/ الإيقاع في الأشكال النثرية:

الدراسة الموسيقية في النثر الأدبي مهمة جدا، لأنها مرتبطة بالألفاظ التي تتألف فيما بينها مشكلة جرسا موسيقيا، وإيقاعا خاصا مشبعا بالعواطف الجياشة والانفعالات المعبرة عن مدى تأثر المتلقي بكل هذا، فتطرب الأذن لهذا المنسجم، وقد شغلت موسيقى النص القدماء والمحدثين بالدراسة والبحث، وقد اختص بها الشعر العربي بشكل كبير حيث يخضع

(1) عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص475.

(2) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص390.

لأوزان شعرية تعرف ببحور الشعر المختصة بالنغم والإيقاع، وهما من الفنون التي تعتمد على الموازين المشتقة التي يحسن بها كل ذي ذوق سليم وكل ذي سمع غير معتل⁽¹⁾. ومن المعروف أن النثر هو الكلام العادي الذي لا يخضع إلى أوزان موسيقية، وهو عكس الشعر الذي يخضع لهذه الأوزان الشعرية، التي عرفت منذ القديم، وقد برع العرب وتفنن بعضهم في نسج كلمات تكون سببا في تحليتها في أذن السامع، بحيث تصبح الجملة في الكلام أشبه بفاصلة موسيقية، متعددة النغمات ومختلفة الألوان يأنس لها كل متذوق لهذا الفن الجميل الذي يدل على براعة الأديب وقدرته الإبداعية التي تميزه عن غيره من الأدباء، فكل عبارة مركبة في هذه الجمل نلمس فيها بعض فواصل الكلام على حرف واحد، وقد اعتبر أبو هلال العسكري هذه الطريقة جيدة، وليس فيه تكلف فقال: «والسجع على وجوه، فمنها أن يكون الجزآن متوازيين متعادلين لا يزيد أحدهما على الآخر مع اتفاق الفواصل حرف بعينه،... ومنها أن تكون ألفاظ الجزئين المزدوجين مسجوعة، فيكون الكلام سجعا في سجع والذي دونهما، أن تكون الأجزاء متعادلة وتكون الفواصل على أحرف متقاربة المخارج إذا لم يمكن أن تكون من جنس واحد»⁽²⁾

وتختلف أذواق الأدباء من واحد لآخر وفي اختيارهم للألفاظ تشكيل موسيقي رائع والنثر أفضل من الشعر، لأن القرآن الكريم جاء نثرا وليس شعرا وهذا من أسباب إعجازه، والنثر أقدر على التأثير في النفوس من خلال الوعظ والإرشاد في الخطب على الشعر، وحين تجتمع الكلمات في الجمل وفي العبارات، تكتسب جرسا موسيقيا آخر زيادة على ما كان لها من موسيقى فردية وذلك مثل تشابه بعض الكلمات في الوزن، وفي المكان من الجملة أو تعاقب كلمتين متشابهتين في الوزن والرنين، أو في تجانس فقرتين أو جملتين في عدد الكلمات، وفي وزن كل منها، أو في التجانس في الكلمتين الأخيرتين في جملتين أو في التشابه الذي يبرز في فترات متكافئة أو في التدرج المتعادل أو في التتابع المقرون بسرعة الجرس»⁽³⁾

وإذا كان الوزن والقافية هما من أهم مصادر الإيقاع الخارجي الذي يعتبر المقوم الأساسي للشعر العربي، وقد أجاد الأدباء المغاربة في استعمالهم للإيقاع الخارجي في

(1) إبراهيم عبد الله عبد الجواد: العروض بين الأصالة والحداثة، دار الشروق للنشر والتوزيع، عمان، الأردن، ط1، 2002، ص 15.

(2) أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، ص262، 263.

(3) عبد الحميد حسين: الأصول الفنية للأدب، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر، القاهرة، ط2، 1974، ص40.

أشكالهم النثرية، فتننوا في إبراز صور الجمال والروعة فيها، وقد نهجوا نهج المشاركة في استعمالهم السجع، وزاد عليهم إيقاعا موسيقيا تنوع بين الطباق والمقابلة، وبعض صور الجنس الذي لا يكاد يظهر إلا قليلا، والشيء الذي لاحظته هو ميل غالبية الخطباء والكتاب والمناظرين إلى استعمال السجع بوشكل كبير جدا، حتى أنهم تنافسوا فيما بينهم، وقد ساعدتهم ظروفهم السياسية والاجتماعية على هذا التنوع، ولكن هذا الاستعمال الذي لمستته ظهرا في أشكالهم النثرية حيث ظهر في عدم التكلف فيه أو الإسراف، لأنهم تماشوا مع ما يلائم طبعهم، ومقدرتهم الثقافية.

3/1- السجع: عرف السجع منذ العصر الجاهلي القديم، وعرفه الكهان وعملوا به وتكلفوا وعندما جاء القرآن الكريم أنكر العمل به، وتحاشاه وأنكره على الناس لما له من تأثير سلبي على عقول الناس ونفوسهم.

ومن الأحسن أن يكون في بعض العبارات التي تتسج الكلام الجيد لكي يزيد من قيمته الجمالية والفنية وفي هذا يقول قدامة بن جعفر: « السجع في الكلام كمثل القافية في الشعر، وإن كانت القافية غير مستغنى عنها والسجع مستغنى عنه؛ فإما أن يلزمه الإنسان في جميع قوله، ورسائله وخطبه ومناقلاته فذلك جهل من فاعله وعي من قائله»⁽¹⁾.

وبهذا فالسجع يزين الكلام العادي، ويجعله جيدا فيحسن من طريقة الكتابة لدى الأدباء وقادتهم وقد اهتم به الأدباء المغاربة كثيرا وعملوا على تزيين خطبهم ورسائلهم، ومناظراتهم ببعض أنواع السجع، الذي يأتي عفويا في الغالب ومن غير تكلف، فكان في بدايته الأولى وفي نثرهم بسيطا وعاديا ثم تطور بتطور الثقافة، واحتكاكهم بأدباء الأندلس فاختلقت أساليبهم حسب تفكيرهم وبيئتهم فتفاوت استعمالهم للسجع، وتزيين الكلام، لاختلاف تكوينهم الثقافي وهذه الأشكال النثرية التي تناولتها بالدراسة غلب عليها السجع بشكل كبير، وهذا ما اختص به أدباء الموحدين وواكبوا نشاطه في المشرق والأندلس، وقد كان السجع أداة للتعبير عن معاناتهم الصادقة وعن دعوتهم الحقيقية، وعن سخطهم ورفضهم للدولة المرابطية كل هذه المظاهر دفعتهم إلى اللجوء إلى استخدام السجع في إبداعاتهم وقد تجلّى هذا في خطبهم كخطبة المهدي بن تومرت والتي قال فيها: «... من عليكم أيتها الطائفة بتأييده وخصمكم من بين أهل العصر بحقيقة توحيده وقيض لكم من أفاكم ضاللا تهتدون،

(1) قدامة بن جعفر: نقد النثر، ص 92.

وعميا لا تبصرون، لا تعرفون معروفا، ولا تتكرون منكرا قد فشت فيكم البدع، واستهوتكم الأباطيل وزين لكم الشيطان أضاليل وترهات، أنزه لساني عن النطق بها، وأربأ بلفظي عن ذكرها، فهداكم الله بعد الضلالة وبصركم بعد العمى، وجمعكم بعد الفرقة، وأعزكم بعد الذلة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين وسيورثكم أرضهم وديارهم، ذلك بما كسبته أيديهم وأضرته قلوبهم»⁽¹⁾

فالسجع في هذه الخطبة لمست فيه فواصله المتقاربة، وهذا نتيجة صنعة الخطيب المتأنيّة، ربما هذا راجع إلى أن ابن تومرت قصد من هذا جعل المتلقي يتواصل معه، وقد أحدثت هذه الفواصل السجعية إيقاعا متواترا كأن خطبته منسوجة على منوال السجع في معظمها، وتظهر هذه المقاطع الموسيقية في هذه الألفاظ (تأييده، توحيدده)، (تهتدون، تبصرون)، (تعرفون، تتكرون)، (الأباطيل، أضاليل)، (هداكم، بصركم)، (جمعكم، أعزكم)، (أرضهم، ديارهم)، (أيديهم، قلوبهم) فإلى جانب توافق هذه الفواصل في حروف السجعة، نجدتها قد توافقت في وزن كلماتها مثل (تأييده وتوحيده، تهتدون، تبصرون، تعرفون وتكرون) وقد أضفت هذه المقاطع صفات من الجمال والرقّة الواضحة في هذه الخطبة.

وقوله أيضا في ختام هذه الخطبة التي أكثر فيها استعمال السجع بشكل كبير: «كونوا يدا واحدة على عدوكم، فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس، وأسرعوا إلى طاعتكم، وكثر أتباعكم وأظهر الله الحق على أيديكم، إلا تفعلون شملكم الذل، وعمكم الصغار واحتقرتكم العامة فتخطفتمكم الخاصة»⁽²⁾، فقد جاء السجع في ختامها قصير الفقرات وتمثله الألفاظ التالية: (فإنكم، هابكم)، (طاعتكم، أتباعكم)، (شملكم، عمكم)، (احتقرتكم، تخطفتكم)، (العامة، الخاصة)، والفقرات الطويلة في (كونوا، أسرعوا) جاءت فقرته الأولى أطول من الأخرى.

وعلى الرغم من أن السجع جاء في معظم هذه الخطبة مسائرا لذوق الخطيب الذي سار على وتيرة واحدة في معظم ألفاظه ما عدا بعض الألفاظ، حيث لم يلتزم حرفا واحدا فيها، مع التنوع في فواصل الجمل، إلى جانب تنوعها بين التذكير والتعريف إلا أنه أضفى على الكلام نوعا من الإيقاع الموسيقي العذب، وإلى جانب هذه الخطبة يظهر السجع واضحا في رسالة عبد المؤمن بن علي يقول في فصل منها: «الحمد لله الذي له الاقتدار، والاختيار ومنه العون

(1) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص 352.

(2) المرجع نفسه: ج2، ص 352.

لأوليائه والإقذار وإليه يرجع الأمر كله فلا يمنع منه الاستبداد والاستتار والصلاة والسلام على محمد نبيه الذي ابتعثت بمبعثه الأضواء والأنوار وعمرت بدعوته الكفر والكفار، وعلى آله وصحبه الذين هم الكرام الأبرار، والمهاجرون والأنصار، والرضا عن الإمام المعصوم المهدي المعلوم القائم بأمر الله حين غيرته الأغيار، وانعدم الامتعاض له والانتصار»⁽¹⁾

لمست في هذه الرسالة سجعا خفيف النبرات، سريع الحركات، قوافيه متقاربة تصور لنا إمكانية الكاتب الهائلة في اختيار أحسن الألفاظ وأقربها إلى الناس، وكيف تمكن من رصها بأسلوب جيد ليصل إلى هدفه دون تكلف، وخفيفة على اللسان، ولها وقع جميل في الأذن وهذا دليل على التنوع في استخدام الألفاظ المتناغمة حيث لم يكتف بروي واحد في ألفاظه بل تعددت فواصله الموسيقية، وهذا ما يميز أمراء الموحدين، وما هم عليه من الثقافة الواسعة والكبيرة، وسعة اطلاعهم على مختلف العلوم والفنون والآداب، وقدرتهم على الحفظ والتفنن في استعمال السجع، وقد انعكست شخصيتهم الأدبية في نتاجهم الأدبي فقد تعددت مواضيع استعمالهم للسجع، ولا يختلف أدباء الدولة الموحدية عن أمرائهم فقد كانت لهم الموهبة الكبرى، والإبداع المتسع الذي لا حدود له، ولعل أبو المطرف بن عميرة قد أكثر منه ويظهر هذا جليا في رسالته إلى الأمير ابن هود وهذا بعض ما جاء فيها: «كتب الله تعالى للمقام العلي المجاهي المتوكلي سعادة لا تبلغ أمدًا إلا تخطته ويذا علوها اثبتته أيدي القدار وخطته-من شاطبة وبركات الأمر المجاهدي المتوكلي، والعهد الوثاقي المعتصمي، تتسكب كالمطر، وتتسحب على البشر، وتقضي بعادة النصر، والظفر، وسعادة الورد والصدر، والحمد لله، وعند العبيد من أداء فروض الخدم، والقيام بحقوق النعم، ما عقدت عليه ضمائرهم، وسمت إليه نواظرهم، واشترك فيه باديهم وحاضرهم، فجناب أملمهم فسيح، ومتجر خدمتهم ربيح، وحديث طاعتهم صحيح، وبسنا النظر العلي اهتداؤهم، وفي الباب الكريم رجاءهم، وبصدق العبودية اعترازهم، وإليها اعترازهم، والله تعالى ينهضهم بوظائف المثابة العلية، ويحملهم على المناهج السوية، ووصل الكتاب الكريم متحليا برواد الحق، ناطقا بلسان الصدق واصفا من التشريف والفخار المنيف»⁽²⁾.

يمكن لي أن أحدد السمات العامة للطريقة التي ينتمي إليها أبو المطرف بن عميرة في سياقها الفني والتاريخي مما وصل إلينا من نصوص له ولمعاصريه من الكتاب بوصفه علما في

(1) عيد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص411.

(2) المقرئ: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1، ص319.

الكتابة وعظيم الأندلس فيها لأن عصره الذي عاش فيه عرف تغيرات طرأت على دولة الموحدين مما جعل بعض أقاليمها تنفصل عنها، وبهذا تقلصت رقعة دولتهم، وكانت الأندلس سبابة إلى الانفصال على حكمهم، حيث قام أبو عبد الله محمد بن هود بمرسية سنة (625هـ) وحكم تحت شعار العباسيين تقربا إلى العامة.⁽¹⁾

ونتيجة اختلال الأوضاع السياسية لدولة الموحدية انعكست هذه الظروف في كتاباته، فقد نزع إلى إبراز قدراته ولا سيما في مجال عرض معلوماته ومعارفه الخفية في نصه وهذا حسب الموضوع الذي تناوله وهو تهنئة ابن هود بحكم الأندلس فتناست مع المضمون، وقد عمد إلى الصنعة في الأسلوب، ولا سيما السجع الذي أكثر منه في صدر هذه الرسالة فتنوع بين التعريف والتكبير، واختيار ألفاظ تدل على المقام الرفيع وهذا طبيعي لأنه يخاطب (أميرا) فأجاد فيها وتفنن حتى يخيل للقارئ أنه ماهر في صوغ الأسجاع، وتركيب العبارات والألفاظ، فأجاد لسانه، وبرعت يده في الكتابة، وما لاحظته أيضا هو ابتعاده على غريب الألفاظ المعقدة، وعدم وجود أشكال في معانيه، واستعمال الزخرفة فيها فوجدت في هذه العبارات المزوجة والتي تتفاوت في الوزن والتعريف والتكبير (المجاهدي، المتوكلي)، (أمداء، يدا)، تخطت، (أثبتته)، (الواقفي، المعتصمي)، (تسكب، تتسحب)، (المطر، البشر)، (النصر، الظفر) (عادة، سعادة) (الورد، الصدر)، (الخدم، النعم)، (ضمانهم، نواظرهم)، (فسيح، ربيح، صحيح)، (العلية، السوية)، (الحق، الصدق)، (الشريف، المنيف).

فهذه الألفاظ كلها متناغمة فيما بينها، متجاوزة في إيقاعها الموسيقي، وقد عدد الكاتب في حرف رويه الذي تنوع بين حرف الياء والراء، والميم، والذال، والهاء، والتاء، والحاء، والفاء، والقاف، وهذا التنوع الحرفي زاد الرسالة جرسا موسيقيا عذبا.

وهذا نموذج آخر يظهر فيه السجع ويتمثل في مناظرة أبو بحر بن ادريس التي كان مطلعها كله سجع يقول فيها: «أمتع الله ببقائك الزمان وأبناؤه، كما ضم على حبك أحناءهم وأحناءه وأوصل لك ما شئت من المن والأمان، نظما كما نظم قلائد فخرك على لبة الدهر نظم الجمان، ألبست الرعية برود التأمين، فتناست فيك من نفيس ثمين فكم للناس من أمن بك، وإيناس وللأيام من لوعة فيك وهيام، وللأقطار من لبانات لديك وأوطار وللبلاد من قراع

(1) يوسف عروج: الكتابة الفنية في المغرب خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، السنة الجامعية 1998/1999، ص 144.

على تملكك لها وجلاد، ولما تخصصت فيك الأندلس و الأمصار، وطال بها الوقوف على حبك والاقْتصار كلها صفح قولاً، ويقول:

أنا أحق وأولى ويصيغ إلى إجابة دعوته، ويصيغ ويتلو إذا بشر بك: ذلك ما كنا نبغي، تميزت حمص غيظاً، وكادت تفيظ فيظاً»⁽¹⁾

ألاحظ في هذا المطلع من المناظرة صفات الجمال والرقّة واضحة في التتويج في فواصل السجع "كما بعدت عن النقل والتكلف والصنعة"⁽²⁾، فوجدت السجع في هذه المناظرة على

سبيل المثل في

(بقاؤك، حبك)، (أبناؤه، أحنأوه)، (الأمان، الجمان)، (الناس، إيناس)، (أيام، هيام)، (الأقطار، الأوطار)، (البلاد، الجلاد) وإلى جانب توافقها في الفواصل الموسيقية، فقد تنوعت في التكرير والتعريف، كما عدد صاحب هذه المناظرة في استعماله للروي المتنوع من حرف الكاف إلى الهاء إلى النون إلى السين إلى الميم إلى الراء إلى الدال، وكلها ألفاظ متغامّة فيما بينها متجاوزة في إيقاعها، ويعد مطلعها في صلب الموضوع، الذي أكثر فيه من استعماله للسجع فلمسته في قوله: «مالهم يزيدون وينقصون، ويطمعون ويحرصون؟ إن يتبعون إلا الظن وإن هم إلا يحرصون، ألهم السهم الأسد والساعد الأشد، والنهر الذي يتعاقب عليه الجزر والمد؟ أما مصر الأندلس والنيل نهري، وسمائي التأنس والنجوم زهري، إن تجاريتم في ذلك الشرف، فحسبي في أن أفيض في ذلك الشرف، وإن تبجحتم بأشرف اللبوس، فأني إزار اشتملتموه كشتنبوس، لي لما شئت من ابنية رحاب، وروض يستغنى بنظرته عن السحاب، قد ملأت زهراتي وهادا ونجادا، وتوشح سيف نهري بحدائقي نجادا، فأنا أولاكم بسيدنا الهمام وأحق الآن حصص الحق»⁽³⁾. عبارات هذه المناظرة فصيحة واضحة، كما عمد الكاتب إلى استخدام الصنعة اللفظية في مناظرته لأن عبارته اللفظية شكلت سلماً موسيقياً حيث لجأ إلى استعمال السجعة البسيطة التي تتجزأ بالفاصلة المؤلفة من حرف واحد والمتمثلة في الفواصل الآتية: (يزيدون، ينقصون)، (يطمعون، يحرصون)، (يتبعون ويحرصون)، (الأسد والأشد)، (النهر والجزر)، (الأندلس والتأنس)، (نهري وزهري)، (اللبوس، كشتنبوس)، (رحاب، السحاب)، فقد نوع الكاتب بين استعماله للأفعال والأسماء وفي ختام هذه

(1) عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص 474.

(2) أحمد جاب الله: الأبعاد الموضوعية والفنية في الرسائل الأندلسية خلال القرن الخامس الهجري، ص 264.

(3) عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص 474-475.

المناظرة يقول: لقد كثرت نزرا، وبذرت في الصخر الأصم بزرا، كلام العدى ضرزب من الهذيان، وإني للإيضاح والبيان؟ متى استحال المستقبح مستحسننا؟ ومن أودع أجفان المهجور وسنا؟ ان ادعيتم سبقا فما عند الله خير وأبقى، لي البيت الشريف والاسم الذي ضرب عليه رواقه التعريف في بقيع محل الرجال الأفاضل فليرغم انف المناضل، وفي جامع مشاهد ليلة القدر فحسبي من نباهة القدر، فما لأحد أن يستأثر عليا بهذا السيد الأعلى، ولا أَرْضَى له أن يوطأ غير ترابي نعلا فأقروالي بالأبوة وانقادوا لي على حكم البنوة ولا تكونوات كالتي نقضت غزلها، من بعد قوة وكفوا عن تباريكم ذلكم خير لكم عند باريكم⁽¹⁾، وبما أن صاحب هذه المناظرة من كتاب عصر الموحدين في الأندلس فقد غلبت على طريقة كتابته الصنعة البديعية والتزام السجع فيها لأنه سمة غالبية على أسلوب المناظرات الأندلسية، لأن السجع هو توافق الفاصلتين من النثر على حرف واحد والأصل في السجع إنما هو الاعتدال في مقاطع الكلام والاعتدال مطلوب في جميع الأشياء والنفوس تميل إليه بالطبع⁽²⁾ وقد عكست هذه المناظرة صورة صاحبها الفنية حتى أنها شبيهة بمناظرة ابن برد بين السيف والقلم والتي موضوعها يدور حول المدح ويمكن تصنيفها في المناظرات الخيالية وبهذا يمكن أن أقول أن أبو بحر ابن ادريس كأنه أخذ لسانه وقلمه الذي لا يرضى بسجعة واحدة فقط بل يتعدى إلى أكثر من ذلك لأن ابن برد التزم السجع بصورة شبه مطربة في أواخر الفقر أو الفواصل⁽³⁾.

ومن أنواع السجع أن تكون الفاصلة مؤلفة من حرفين أو أكثر كقول أبو هلال العسكري: «أن يكون الجزءان متوازيين متعادلين، لا يزيد أحدهما على الآخر مع اتفاق الفواصل على حرف بعينه»⁽⁴⁾، وقد وجدت هذه الظاهرة الفنية في النثر الموحدى ولكن القصد منها ليس التكلف الأدبي بالضرورة وإنما راجع إلى كون أمراء الدولة الموحدية وأدبائهم على قدر كبير من الثقافة الدينية والأدبية، فطبعت هذه الثقافة في نثرهم ويوجد هذا النوع من السجع في أدب الأمراء فزادت على أدبهم خصائص فنية زادت رونقا وجمالا وهذه نماذج من نثرهم المتمثل في الرسائل الديوانية والتي أظهرت قوة إبداعهم في مجال الكتابة الفنية ومنها قول المهدي ابن تومرت في رسالته لجماعة أهل التوحيد: «كتبنا إليكم هذا الكتاب بعدما اتصلت

(1) عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، ص 475.

(2) أحمد جاب الله: الأبعاد الموضوعية والفنية في الرسائل الأندلسية خلال القرن الخامس والسادس الهجري، ص 306.

(3) المرجع نفسه: ص 307.

(4) أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، ص 262.

بنا أخباركم وقيامكم في نصره الحق واخمدكم على احياء السنة وتآلفكم وتعاونكم على اظهار الحق واجتماعكم على اخمد الباطل والظلال وجهاد المجسمين والمفسدين»⁽¹⁾ فقد لجأ الكاتب إلى استعمال سجع قصير الفقرات متنوع في الفواصل وأسجاعه تتألف من الحروف التالية الميم اللام النون ليدل على براعة ابن تومرت الكتابية والتي لا تقل على فصاحته.

ورسالة مأمون الموحي يظهر فيها هذا النوع من السجع أيضا فيقول: « من معهم من المؤمنين والمسلمين أوزعهم الله شكر نعمه الجسام ولا أعدمهم طلاقه أوجه الأيام الوسام، وإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم عملا منقادا، وسعدا وقادا وخاطرا سليما لا يزال على الطاعة مقيما من مراكش كالأها الله تعالى وللحق لسان ساطع وحكم قاطع، وقضاء لا يرد، وباب لا يسد، وضلال على الآفاق، تمحو النفاق، والذي نوصيكم به تقوى الله والاستعانة به والتوكل عليه ولتعلموا أننا نبذنا الباطل، وأظهرنا الحق، وألهدي إلا عيسى بن مريم الناطق بالصدق، وتلك بدعة قد أزلناها والله يعيننا على القلادة التي تقلدناها كما أزلنا لفظ العصمة عن لا تثبت له عصمة وأسقطنا عنه وصفه ورسمه»⁽²⁾، لاحظت على الكاتب اللجوء إلى استعمال السجع في الديباجة وهذا من عادة كتاب الموحدين، حيث تفننوا في اظهار براعتهم اللفظية باستعمالهم للمفردات المتناسقة والمنسجة والتي تدغدغ المشاعر وحسن صياغتهم لهذه الألفاظ التي تترك أثرا حسنا في نفوس المتلقين وتلك الغاية التي يرجون الوصول إليها فمن هذه الألفاظ المسجعة (المؤمنين، المسلمين)، (الجسام، الوسام)، (منقادا، وقادا)، (سليما، مقيما)، (ساطع، قاطع)، (الآفاق، النفاق)، (أزلناها، تقلدناها)، لم يلتزم الكاتب رويًا واحدا ولا وزنا واحدا في هذه الفواصل كما تتوعد فقراتها بين الطول والقصر حيث يقول في فصل منها: « من معهم من المؤمنين والمسلمين أوزعهم الله شكر نعمه الجسام ولا أعدمهم طلاقه أوجه الأيام الوسام وإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم عملا منقادا وسعدا وقادا»⁽³⁾، فجاء السجع في هذا الفصل من الرسالة متمثلا في الألفاظ التالية (المؤمنين، المسلمين)، (الجسام، الوسام)، (منقادا، وقادا)، (فجاءت الفقرة الأولى أقصر من الفقرة الثانية والثالثة إذ كان السجع يزيد المعنى رونقا وجمالا ويضفي على النصوص جرسا موسيقيا كما يعد ضربا من ضروب الصناعة البديعية، فإن الإفراط في استعماله قد يفقد النص حلاوته الأدبية، وينقص

(1) ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص 257-258.

(2) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص 421-422.

(3) المرجع نفسه، ج2، ص 421.

من اىصال المعنى المقصود إلى القارئ وعدم وضوح أفكاره ، وهذا هو الملاحظ على أدباء الدولة الموحدية في افراطهم لاستعمال السجع في نصوصهم النثرية حتى لا نكاد نلمس نصا يخلو من الظاهرة الفنية، وبهذا اكتست نصوصهم صبغة زخرافية إلى حد كبير وهم بهذا متأثرين بظاهرة السجع عند المشاركة ولكن دون تقليد منهم حتى أن بعضهم التزمه في كلامه ولكن دون تكلف منهم لأنها جاءت عفوية، فاستعملوه في مقدمة نصوصهم وفي وسطها وفي ختامها وبهذا تظهر مواطن الجمال في كل جزء من هذه النصوص فنها ما كانت أسجاعة متقاربة بين السجعة والأخرى ومنها ما كانت متباعدة بين السجعة والأخرى، كما تأتي نصوصهم بحرف واحد، كما تأتي بحروف مختلفة تقرب الأدباء من نصوصهم النثرية وتأثر في نثرهم الفني بين البيئة والمعنى فيحرصون على ايزال الفرق وبيان الركن الذي ينبغي أن ينحصر فيه الضوء لتبين مقاصدهم وتمكنهم من استخراج ثمرة الإبداع الأدبي لأن علماء البلاغة اشترطوا أن تكون الألفاظ المسموعة حلوة المذاق تشناق إلى سماعها الأنفس وأن تكون في تركيبها تابعة للمعنى وأن تكون تلك المعاني الحاصلة في التراكيب مألوفة غير غريبة ولا مستنكرة.⁽¹⁾

3/2- الطباق:

يعتبر الطباق من المحسنات البديعية التي استعملها الأدباء والشعراء في كتاباتهم الأدبية ولقد عرفه علماء البلاغة بأنه الجمع بين معنيين متقابلين وهو نوعان: طباق الإيجاب وهو الجمع بين المعنى وضده، وطباق السلب وهو استعمال نفس المعنى مرة بالإثبات ومرة بالنفي ويعرف أبو هلال العسكري "بأنه الجمع بين الشيء وضده في جزء من أجزاء الرسالة أو الخطبة أو البيت من بيوت القصيدة"⁽²⁾.

لقد استعمله الأدباء الموحدون في نصوصهم النثرية ولكن بشكل قليل مقارنة مع استعمالهم للسجع ومن أمثله قول ابن تومرت : « بمزج الرأفة بالغلظة، واللين بالعنف، واعلموا مع هذا أنه لا يصلح أمر آخر هذه الأمة إلا على الذي صلح عليه أمر أولها... ليله ونهاره ، ومدخله ومخرجه، واختبرنا سريرته وعلايته»⁽³⁾، ومن الطباق أيضا قول أبو مدين الفاسي في خطبته الوعظية التي ضمنها حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يعظه :

(1) رجاء عيد: في البلاغة العربية ، مكتبة الطليعة، دار غريب للطباعة، أصيوت ، القاهرة، دط ، دت، ص272.

(2) أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، ص 307.

(3) عيد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص 354.

«اغتمت خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك»⁽¹⁾ والذي يجمع بين الكلمة وضدها حيث قال: « أصلحوا دنياكم واعملوا لآخرتكم كأنكم تموتون غدا»⁽²⁾ ... جعلني الله وإياكم ممن قدم من دنياه لأخراه»⁽³⁾ فالطباق بارز بين لفظتي (دنياكم # آخرتكم)، (دنياه # أخراه) وما نلمسه على هذه المطابقات هو اتفاقها في الوزن وعدد حروفها وقد عبرت هذه الألفاظ على النزعة الدينية للخطيب.

ومن صور الطباق في رسائل الموحدين قول ابن تومرت في رسالته إلى جماعته من أهل التوحيد: "فسمى الجهاد تجارة لما فيه من البيع والشراء، لأن المجاهد باع نفسه وماله من ربه فاشترى منه ربه ماله ونفسه"⁽⁴⁾ إذ طباق بين (البيع # الشراء)، (باع # اشترى) وذلك لابرار المقارنة وتوضيحها وقول أبو مدين الفاسي: "لإن قلت في الصالحات أعمالنا وطارت في الخبائث آمالنا وفضل مولانا وافر يعم العاصي من خلقه والمطيع... قال عليه الصلاة والسلام: "والذي نفسي بيده لو لم تذبوا لذهب الله بكم ولجاء بقوم آخرين يذنبون فيستغفرون الله فيغفر لهم"⁽⁵⁾، ﴿وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ، وَمَنْ يَغْفِرَ الذُّنُوبَ إِلَّا اللَّهُ﴾⁽⁶⁾ وقوله صلى الله عليه وسلم: «أنا أكرم وأعظم عفوا من أن أستر على عبد مسلم في الدنيا ثم أفضحه بعد إذ سترته»⁽⁷⁾ ، فقد طباق الخطيب بين (الصالحات # الخبائث)، (العاصي # المطيع)، (يذنبون # يستغفرون)، (ذهب # جاء)، وقد قل استعمال الطباق في نصوص الموحدين لنفورهم من اللجوء إلى الكلمة وضدها كما أن الطباق الذي وجد في نصوصهم كله طباق ايجاب ويرجع استعمالهم لهذا من الطباق لكونه يمتاز بالسهولة اللفظية وعدم غموضه، ولما فيه من التزيين والتنميق النصي، وتنويع للألفاظ المستعملة فليس الطباق مجرد كلمتين متضادتين لأنه يعتبر بلا قيمة إلا بقدر اثارته داخل السياق الأسلوبى الذي يثير مشاعر تتصل بالصورة العامة بالموقف الذي صوره الأديب.

(1) حديث ضعيف، الألباني، صحيح الجامع، ج5، ص404

(2) حديث ضعيف جدا، الألباني: مختصر السلسلة الضعيفة، ص210.

(3) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص356-357.

(4) ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص258.

(5) أبو مسلم: الجامع الصحيح، م4، ج5، ص94.

(6) آل عمران: 135.

(7) حنا الفاخوري: الموجز في تاريخ الأدب العربي وتاريخه، ج3، ص293-294.

المقابلة من المحسنات البديعية التي اهتم بها الأدباء الموحدون في مجال عنايتهم بالمعنى وتحسينه وقد عرفها صاحب الصناعتين فقال: « المقابلة ايراد الكلام ثم مقابله بمثله في المعنى واللفظ على جهة الموافقة أو المخالفة»⁽¹⁾ وبهذا فالمقابلة هي أن يؤتى بمعنيين أو أكثر ثم يؤتى بما يقابل ذلك على الترتيب وتكون بمقابلة الفعل بالفعل ومقابلة اللفظ بالمعنى ومقابلة المعاني بعضها لبعض وبما أن صور المقابلة قليلة في النصوص الأدبية الخاصة بهذا العصر والتي تناولتها فإنني سأعرض إلى ما وجد فيها ومن أمثلة ذلك قول المهدي بن تومرت: « لا تعرفون معروفًا ولا تتكرون منكرًا»⁽²⁾ فقد قابل الخطيب بين جملتي (لا تعرفون معروفًا) و (لا تتكرون منكرًا) أي بين (تعرفون وتكرون) و (معروفًا ومنكرًا) وهذا لتأكيد المعنى وتوضيحه، ومن صور المقابلة ايضاً ما قاله عبد المؤمن بن علي: « تمسكوا بأمر المهدي -رضي الله عنه- في اتباع سبيله تهتدوا واصرفوا أئمة العناية إلى النظر في المثال والتفكر»⁽³⁾ فقد قابل بين الجملة الأولى والثانية فالجملة الأولى (تمسكوا بأمر المهدي...) دعوة للتمسك بالعقائد التومارنية والعمل بها وفي الجملة الثانية الانصراف عما من شأنه أن يضلهم ويبعدهم عن الدين الحق وهذا نودج آخر جاء في رسالة المهدي بن تومرت يقول فيها: « وتعاونكم على اظهار الحق واجتماعكم على اخماد الباطل والضلال ... لا بد ان ينصر الحق كما وعد ويبطل الباطل كما وعد»⁽⁴⁾، فقد قابل بين (تعاونكم على اظهار الحق) و (اجتماعكم على اخماد الباطل والضلال) وبين (ينصر الحق كما وعد) و (يبطل الباطل كما وعد)، ففي المقابلة الأولى قابل بين اظهار الحق والتعاون على ذلك وبين الاجتماع على اخماد الباطل والضلال وفي المقابلة الثانية بين نصره الحق والعمل على اظهاره وبين ابطال الباطل ونبذه والعمل على تغييره إن أمكن وقد وضحت المعنى وأضفت على التعبير عذوبة وحسنا وجمالاً أدبياً وقد قلت صور المقابلة في النصوص النثرية لأدباء الموحدين، إذا ما قيست بالسجع، ولعل هذا راجع إلى تجنبهم التكلفة والصنعة قدر المستطاع كما أن هذه المحسنات إن كثرت في نص من النصوص أفقدته حلاوته الأدبية والإبداعية فيخل من قيمته الفنية.

(1) أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين، ص337.

(2) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص 352.

(3) المرجع نفسه: ج2، ص 412.

(4) ابن تومرت: أعز ما يطلب، ص260-261.

التورية محسن بديعي معنوي يذكر فيه المتكلم لفظا مفردا له معنيان : قريب ظاهر غير مقصود وبعيد خفي هو المراد والمقصود في الكلام ولم أجد هذا النوع من المحسنات في نصوص الموحدين لأنهم لم يخفوا ما يريدون في نصوصهم وإنما كانوا يواجهون من يخاطبونهم دون اللجوء إلى استعمال مثل هذه السبل ولكنني وجدتها بكثرة في رسالة أبو جعفر بن عطية الاستعطافية التي كتبها مخاطبا عبد المؤمن بن علي حيث قال فيها: « تالله لو أحاطت بي كل خطيئة ولم تنفك نفسي عن الخيرات بطيئة حتى سخرت بمن في الوجود وأنفت لأدم من السجود وقلت أن الله لم يوح في الفلك إلى نوح وأبرمت لاحتطاب نار الخليل حبلا، وبريت لقدار ثمود نبلا، وحططت عن يونس شجرة اليقطين وأوقدت مع هامان على الطين وقبضت قبضة من اثر الرسول فنبذتها وافتريت على العذراء البتول فقذفتها، وكتبت صحيفة القطيعة لدار الندوة وظهرت الأحزاب بالقصوى من العدوى، وأبغضت كل قرشي واحببت لأجل وحشي كل حبشي وقلت بأن بيعة السقيفة لا توجب إمامة خليفة وشحذت شفرة غلام المغيرة بن شعبة واعتقلت من حصار الدار وقتل أشمطها بشعبة، وقلت تقاوتوا رغبة في الأبيض والأصفر وسفكوا الدماء على الثريد الأعفر وغادرت الوجه من الهامة خضيبا، وناولت من قرع سن الحسين قضيبا، ثم كنت بحفرة المعصوم لائذا وبقبر المهدي رضي الله عنه عائدا»⁽¹⁾.

حرص الكاتب على توشيح رسالته بالتورية ولا شك أن ابن عطية أقام بناء رسالته الاستعطافية على نسق ابن زيدون وأن محنة السجن التي عانا منها المترسلان سمحت بتلك المتابعة وإن كان ابن عطية توخى إيهام المتلقي بعدم حدوثها بفعل اعتماده صوغا تعبيريا مغايرا لعله وحده يؤكد تمكنه من صناعة الترسل.⁽²⁾ وتظهر التورية في الألفاظ التالية :

(الخليل): لفظة لها معنيين: أحدهما (الصديق) وهو المعنى القريب إلى الذهن والمعنى البعيد هو (إبراهيم عليه السلام) وهو الذي قصده الكاتب بدليل التمهيد له بذكر (النار والحبل).

(الرسول): لفظة لها معنيين: أحدهما (هو الموفد أو المبعوث أو السفير الذي ينتدب لنقل رسالة أو الإخبار بأمر ما) وهو المعنى القريب إلى الذهن والمعنى البعيد هو (رسول الله محمد صلى الله عليه وسلم) وهو الذي قصده الكاتب.

(1) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص476، 477.

(2) أمّنة الدهري: الترسل الأدبي بالمغرب، النص والخطاب، ص 344.

(العدراء) معناها (الفتاة البكر) وهو المعنى القريب و (مريم بنت عمران) هو المعنى المقصود في الرسالة وهو المعنى البعيد .

(صحيفة) المعنى القريب هو الجريدة التي نقرأها يوميا وهو معنى قريب أما المعنى البعيد الذي قصده الكاتب فهو (الورقة التي كتبتها قريش وعلقتها على الكعبة لمقاطعة بني هاشم) (وحشي) يفهم من هذه اللفظة من الوهلة الأولى هو كل شيء متوحش كالحيوان أو الإنسان الذي يتصرف تصرفات تشبه الوحوش البرية وبعيدا عن كل التعاملات الجيدة والمعنى البعيد وهو (اسم قاتل حمزة عم الرسول صلى الله عليه وسلم وهو مولى حبشي)

(السقيفة) معناها ما يغطي البيت من لوح أو حجر عريض وهو السقف أما المعنى البعيد الذي تدل عليه فهو (سقيفة بني ساعدة وهي ضلة كانت لهم تم فيها مبايعة أبي بكر الصديق رضي الله عنه) وهو ما قصده الكاتب.

(الخليفة) يقصد به الشخص الذي يحل مكان شخص آخر ليخلفه في أمر ما وهذا هو المعنى القريب أما المعنى البعيد فهو (أبو بكر الصديق رضي الله عنه)

(شفرة) هي (منابت الأهداب في العين) وهو المعنى المتداول لدينا أما المعنى البعيد الذي قصده فهو (السكين الحاد) الذي قتل به عمر بن الخطاب رضي الله عنه.

(أشمطها) الشمط ويفهم منه (الرجل لديه شيب في شعره ولحيته وهو مزيج من البياض والسواد) أما المعنى البعيد الذي قصده الكاتب فهو (عثمان بن عفان رضي الله عنه)

(شعبة) معناها القريب هو (قطعة من الشجرة) أما معناها البعيد فهو (اسم قاتل عثمان بن عفان).

(الدار) معناها (البيت الذي يسكن فيه الناس) أما المعنى الخفي (فهم أهل البيت من آل الرسول صلى الله عليه وسلم).

(الأبيض والأصفر) معناهما اللون الأبيض والأصفر أما المعنى البعيد الذي أراده الكاتب فهو (معدن الذهب والفضة)

(خضيبا) لفظة لها معنيين المعنى القريب هو (الذي يضع الحناء في يده فهو خضيب) أما المعنى الذي قصده فهو (إشارة إلى مقتل علي كرم الله وجهه)

(المهدي) يفهم من معنى هذه اللفظة (المهدي الذي يخرج في آخر الزمان ليصلح الفساد في الأرض وهو من ذرية فاطمة الزهراء رضي الله عنها) أما المعنى البعيد فهو (لقب إمام الموحدين محمد بن تومرت)

(عائدا) المعنى القريب المتبادر في الذهن هو (الرجوع) والمعنى البعيد هو (الزيارة) فقد زادت التورية في هذه الرسالة جمالا فنيا رائعا حتى أن القارئ إذا لم تكن لديه ثقافة كبيرة ومتنوعة في كل المجالات فإنه لا يفهم المعنى الذي أراده الكاتب من هذه التوريات التي حجت ووارت عن المعنى الحقيقي ولكنها مع هذا حسنت المعنى فانطبع هذا في الرسالة بشكل كبير

ولمستها أيضا بشكل قليل في رسالة المأمون الموحدي حيث قال: «والله يعيننا على القلادة التي تقلدناها، كما أزلنا لفظ العصمة عن من لا تثبت له عصمة، وأسقطنا عنه وصفه ورسمه»⁽¹⁾، تظهر التورية في هذا المقطع متمثلة في الألفاظ التالية:

(القلادة) نفهم من معناها مباشرة (شيء من الصوغ يوضع في العنق للزينة) أما المعنى البعيد الذي تدل عليه فهو (تولي أمر الموحدين بخلافة أمرهم)

(العصمة) يقال فلان في عصمة فلان أي تحت إمرته ولا يخرج على شوره أما المعنى البعيد فهو لفظ (المعصوم) التي كانت تقال في الخطب وتكتب في الرسائل.

(رسمه) الرسم وهو (عبارة عن خطوط وأشكال أو هي بقايا الأطلال والديار التي مر عليها الزمن) أما المعنى الذي قصده فهو (صورة المهدي بن تومرت واسمه الموجود على النقود الموحدية).

الملاحظ على أدباء الدولة الموحدية هو عدم لجوئهم إلى استعمال هذا المحسن البديعي بشكل كبير حتى أنه منعدم في معظم خطبهم ومناظراتهم ورسائلهم إلا ما وقعت عليه من رسالة أبو جعفر ابن عطية وما جاء في رسالة المأمون الموحدي، ولعل هذا راجع إلى كشفهم عما يريدون اقناع غيرهم به، وعدم لجوءهم إلى الطرق الملتوية والسبل الشائكة.

4/5- الجنس:

الجناس محسن بديعي معنوي ويقصد به اتفاق اللفظتين كتابة ونطقا واختلافهما معنا وهو نوعان: جناس تام وهو ما اتفق فيه اللفظان في أمور أربعة: نوع الحروف، عددها،

(1) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص422.

ترتيبها، شكلها وجناس ناقص وهو ما اختلف فيه اللفظان في واحد من هذه الأمور الأربعة التي سبقت ويعرفه أبو هلال العسكري فيقول: «التجنيس أن يورد المتكلم كلمتين تجانس كل واحدة منهما صاحبتهما في تأليف حروفها»⁽¹⁾، ويحدث هذا المحسن البديعي انسجاما لفظيا وتجاوبا بين النص وصاحبه ومن أمثلة ما ورد في خطب الموحدين ما جاء في خطبة أبو حفص حيث قال: «إياكم والقدماء وما أحدثوا فإنهم عن عقولهم حدثوا... الأنبياء ونورهم لا الأغبياء وغرورهم»⁽²⁾ فقد جانس الخطيب بين (أحدثوا، حدثوا) وبين (الأنبياء، الأغبياء) ونوعه جناس ناقص

وقوله أيضا: «السيد الإمام، لبنة التمام، خير البرية على الإطلاق بعث ليتمم مكارم الأخلاق... معجز في وصفه عزيز في رصفه»⁽³⁾ والجناس يظهر في الكلمات التالية: (الإمام، التمام)، (الإطلاق، الأخلاق)، (وصفه، رصفه)، ونوعها جناس ناقص وفي رسائلهم قول عبد المؤمن بن علي: "الرضا عن الإمام المعصوم، المهدي المعلوم... يريكم المنهج ويلقيكم الأبهج... جعل الإنذار والإعذار"⁽⁴⁾، فالجناس الناقص يظهر بين (المعصوم، المعلوم)، (المنهج، الأبهج)، (الإنذار، الإعذار)، وقوله أيضا: «ولا يغرنكم بالله الغرور فالدينا دار الغرور...»⁽⁵⁾ فنحن لا نريد لكم ولسائر ما نرجو إنابته ونستدعي قبوله وإجابته إلا الصلاح الأعم والنجاح الأتم»⁽⁶⁾ فالجناس التام يظهر بين (الغرور والغرور) فالغرور الأولى تعني النفاق ويقصد به الذي يظهر عكس ما يبطن والثانية تعني التكبر فقد اتفقتا في الحروف والترتيب والعدد والشكل والجناس الناقص يظهر في (إنابته، إجابته)، (الأعم، الأتم).

ومن صور الجناس ما وجد في رسالة المأمون الموحدي الذي قال فيها: «شكر نعمه الجسام ولا أعدمهم طلاقة أوجه الأيام الوسام، وإنا كتبناه إليكم كتب الله لكم عملا منقادا وسعدا وقادا وخطرا سليما، لا يزال على الطاعة مقيما من مراکش كالأها الله تعالى وللحق لسان ساطع، وحكم قاطع وقضاء لا يرد، وباب لا يسد، وضلال على الأفاق تمحو النفاق»⁽⁷⁾

(1) أبو هلال العسكري: كتاب الصنائع، ص 321.

(2) عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، ج2، ص 353.

(3) المرجع نفسه: ج2، ص 353.

(4) المرجع نفسه: ج2، ص 411.

(5) المرجع نفسه: ج2، ص 412.

(6) المرجع نفسه: ج2، ص 412.

(7) المرجع نفسه: ج2، ص 421.

(8) المرجع نفسه: ج2، ص 477.

فقد جانس الكاتب بين (الجسام، الوسام)، (ساطع، قاطع)، (يرد، يسد)، (الآفاق، النفاق) ومن صورته أيضا ما جاء في رسالة أبو جعفر: «سخرت بمن في الوجود وأنفت لأدم من السجود وقلت أن الله لم يوح في الفلك إلى نوح وأبرمت لاحتطاب نار الخليل حبلا وبريت لقدار ثمود نبلا... في الأبيض والأصفر وسفكوا الدماء على الثريد الأعفر وغادرت الوجه من الهامة خضيبا وناولت من قرع سن الحسين قضيبا، ثم كنت بحفرة المعصوم لائذا، وبقبر المهدي رضي الله عنه عائدا، لقد آن لمقاتلي أن تسمع، وأن تغفر لي هذه الخطيئات أجمع، مع أنني مقترف وبالذنب معترف» .

وقد جانس بين (الوجود، السجود) و(يوحي، نوح) و(حبلا، نبلا) و(الأصفر، الأعفر) و(خضيبا، قضيبا) و(لائذا، عائدا) و(مقترف، معترف) والغرض من هذا التجنيس هو إثارة النغم الموسيقي في القطعة الأدبية إذ من دونه تسكت حركة لنص الإيقاعية وتخدم صورته الموسيقية.

ومما جاء منه في رسالة أبو المطرف بن عميرة في قوله: «وبصدق العبودية اعتزازهم وإليها اعتزائهم... فلا بيان أعجب من ذلك البيان ولا يوم كذلك اليوم نبدي نظره للعيان... وصفه في ذيل الحصر، ويهدي سواده سواد القلب والبصر، فيا لمشهدا ما أعجب ما كان ومرآها الذي رعا الكفر وراق الإيمان... لا يستقل بذكرها قلم ولا يقطع علم من وصفها إلا بدى علم... الجليلة المقدار والشاهدة له بإسعاد الأيام وإسعاف الأقدار»⁽¹⁾

رغم قلته في هذه الرسالة إلا أن ذلك لم يمنع الكاتب من استعمال كلمات متجانسة في رسالته فقد جانس بين لفظتي (اعتزازهم، اعتزائهم)، (البيان، العيان) (الحصر، البصر)، (راع، راق)، (قلم، علم)، (المقدار، الأقدار)، فهذه الألفاظ متقاربة من حيث إيقاعها الموسيقي ومخارج حروفها وشكلها ولكنها مختلفة في حرف واحد مما جعل خلافا في الجنس فصارت هذه الألفاظ تنتمي إلى الجنس الناقص.

الملاحظ على استعمالات هذا المحسن البديعي قليل، وهذا راجع إلى كون الأدباء فضلوا الابتعاد عن التكلف والصنعة اللفظية ولهذا قللوا من استعماله وهو يظهر بشكل كبير في رسائلهم ولكن معظمه جناس ناقص، وبهذا فقد زاد من توضيح المعنى وجعله متجانسا. اختلف الخطباء والكتاب والمناظرون في هذا العصر في استعمالاتهم لهذه المحسنات البديعية

(1) المقرئ: نفع الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ج1، ص 319-320-321.

الفصل الرابع ————— البناء الفني

ويرجع هذا التنوع والاختلاف إلى ثقافتهم المتفاوتة من واحد إلى آخر، ومدى معرفتهم بأصول البلاغة وعلومها، وقد لمست هذا التنوع الفني بكثرة في الرسائل الديوانية لأن الأمراء في تلك الفترة جعلوا من نصوصهم وسيلة لإقناع الناس، وبث روح الجهاد في نفوسهم واستمالتهم للدخول في دعواهم وبهذا أخذ الكتاب يتفنون في استخدام هذه المحسنات التي تخفي عيوب النص اللغوية التي من شأنها أن تفقد النص حلاوته الإبداعية فهي من قبيل الزينة الداخلية اللصيقة بالأدب والذي يحتاج إليها كثيرا لدرجة أنه لو خلا منها نص فقد بعض مقوماته الجمالية التي تمنحه مكانته الفنية متمثلة في السجع والجناس والطباق وهي بهذا ذلك النسيج الفني للعبارة والموسيقى، ومنها ما هو من قبيل المحسنات الكمالية التي يستحسن استخدامها في نص من النصوص كالمقابلة والتورية والتي تستدعي من صاحبها مهارة تجعله يعرف القدر المقبول منها فلا يبالغ فيها والموقع الذي تروق عنده فلا توضع إلا فيه.

مهد الأدب في عهد الموحدين إلى ظهور حركة عليمة ثقافية مزدهرة في بلاد المغرب وفي عهدهم تطور وبرز إلى الوجود لينفرد بسمات أسلوبية خاصة ، وشهد المغرب العربي خلال حكمهم ثورة ثقافية إضافة إلى اهتمامهم الكبير بالشعراء والأدباء ، وتقريبهم منهم ، واهتمامهم بجمع الكتب ونسخها .

إن رجال دولة الموحدين كانوا على قدر كبير من المعرفة وحب الاطلاع وكان أمراؤهم وملوكهم لهم فضل السبق .

إن من يتعمق في أدبهم ومعاينة قضاياها العامة التي تتمحور في الحقائق الأدبية سيجد الصورة واضحة كاشفة على التميز المنفرد والتطور والازدهار الكبير في المغرب لأن الأدب مرآة عاكسة لهذه الخبايا الخفية . وبعد دراسته والإلمام بطابع أهله تمكنت من الوصول إلى نتائج أجملها في النقاط الآتية:

1- الازدهار العلمي والثقافي والأدبي الذي وصلت إليه الدولة الموحدية والذي جعلها

تحتل مكانة مرموقة وكبيرة في بلاد المغرب والأندلس وهذا راجع إلى العناية الكبيرة بالأدب والثقافة والعلوم المختلفة ، وكون معظم أمرائها على قدر كبير من الثقافة والدين الذين انطبعا على حكمهم فتميز بالاستقرار السياسي رغم اضطرابه في البدايات الأولى والأمن والاطمئنان .

2- قامت دولة الموحدين على أساس دعوة دينية أساسها الأمر بالمعروف والنهي

عن المنكر ، وكانوا يطمحون إلى نشر حضارة مطبوعة بطابعهم الثلاثي (العظمة، الدين، التجديد) وكانوا يأملون أن تكون هذه الحضارة لا أندلسية ولا مشرقية ولا أوروبية ولكنها حضارة مغربية قائمة بنفسها آخذة من هذه الحضارات ومقتطفة من آدابها ما يخدمها، ويتجلى طابع التجديد في إبداعهم فكرة المهودية في المغرب لنشر عقائد الأشعرية وحمل الناس على مذهب الظاهرية وتركهم للمذهب المالكي .

3- تشجيعهم للعلم والعلماء بنشر مراكز التعليم في القرى والمدن وفي كل مكان من

بلاد المغرب واقتصارهم في المواد التعليمية على الفقه وأصوله وتحفيظ القرآن الكريم والعمل بما جاء فيه .

- 4- تتوع طرق التعليم وأساليبه حيث تأثروا بالغزالي شيخ إمامهم المهدي بن تومرت وأدمجوا الرياضة في مناهج التعليم وأدجوها في الخدمة العسكرية ووراعوا التدرج في ترقية التلاميذ من رتبة إلى رتبة كما اتبعوا سياسة التعليم الإجاباري إضافة إلى اتباعهم سياسة التعليم المجاني التي أوجدها عبد المؤمن أدخلوا النساء في التعليم.
- 5- كان النثر في هذا العصر يحتل مكانة كبيرة حيث كان في بداياته الأولى صورة عن الأدب المشرقي ثم تطور فيما بعد إلى أدب مستقل بذاته له كيانه وخصائصه وسماته المستقل بها.
- 6- كانت هذه الآداب صورة للمجتمع الموحد بكل جوانبه التي فرضتها الظروف السياسية والواقع الخارجي الذي ساعد على نشاط النثر بشكل كبير فاستجاب النثر لمقتضياته التنظيمية وتوعدت نصوصه واختلقت صيغتها باختلاف طبيعتها ، حيث انعكست عليه بآثار الإزدهار الحضاري الذي تجلى بخاصة في جنوحه إلى رقة المباني وعمق المعاني والتأنق في بعض منها حيث فارق البساطة البدوية التي كانت عليها الآداب العربية.
- 7- كان أمراء الموحدين على قدر كبير من العلم لأن مؤسس دولتهم المهدي بن تومرت كان سراجا يقتدى به وحامل لواء العلم والمعرفة وهو النور الذي يستضاء به فسار على نهجه خلفاؤه من بعده.
- 8- كان أدباء الموحدين على قدر كبير من الثقافة التي زاجوا فيها بين الشعر والنثر كما كانوا مخضرمي الأدب لأنهم عاصروا الدولة المرابطية والدولة الموحدية فعبروا بكل ما جادت به قرائحهم من نقل صور الحياة اليومية وتصوير للمشاعر والأحاسيس.
- 9- طبع النثر الموحد بالطابع الديني في بداياته الأولى نظرا لاهتمام أهله بالدين الإسلامي والعمل بما جاء فيه خاصة الخطب التي جاءت في معظمها تتضمن النصح والوعظ والإرشاد.
- 10- ركزت أشكالهم النثرية في مضمونها على معالجة الجانب السياسي وما لحقه من صراع طويل مع دولة المرابطين، فظهر هذا التجسيد في خطبهم ورسائلهم ومناظراتهم بمسايرة التطور السياسي ووصف للوضع السائد فيها.

- 11- أسهم أمراء الوحدين في السير بعجلة الأدب بتتويح أساليبه وادخال مجالات العقل فيه، ونشر أفكارهم في تلك المعارف المتنوعة.
- 12- ارتقت هذه الأشكال النثرية إلى الدرجة الفنية فاخصت بأساليبها المتنوعة وموضوعاتها المختلفة وتخلت عن قيود التقليد المشرقي فاستقلت بذاتها رغم الصراعات التي واكبتها.
- 13- برز الخلفاء الموحدون في الكتابة الأدبية بشكل كبير وشملت معظم رسائلهم على الدعوة إلى الدخول في حكمهم بالدرجة الأولى ومعالجة القضايا الاجتماعية السائدة في مجتمعهم وتفاوتت بلاغتهم الأدبية وفصاحتهم العربية والبربرية حيث زاجوا بين اللغتين العربية والبربرية فظهرت عظمة الدولة في هذا النوع الأدبي الذي ظهر فيه أثر الفخامة والتجديد بصفة كبيرة.
- 14- تنوعت الكتابة الأدبية في هذا العصر من التهنئة إلى الصداقة إلى الاعتذار والاستعطاف وكانت في أغلب أحوالها تميل إلى الإطناب والتوسع.
- 15- اخصت رسائل الموحدين بتنوع افتتاحياتها فزادوا على الافتتاح المعهود الترضية عن إمامهم المهدي والتعبير عن الخطاب بنون الجمع عن الخليفة وبميم الجمع عن المكتوب إليه.
- 16- تميزت أشكالهم النثرية بكثرة الاقتباس من القرآن الكريم والاستشهاد به تعزيزاً لما ذهب إليه أصحابها والدعوة إلى التوبة والاستغفار والاستشهاد بالحديث الشريف والتاريخ والأشعار المستعملة ضمن هذه الأشكال تماشى مع المضمون الثقافي في بلاد المغرب.
- هذا ما استطعت أن أتوصل إليه بعد رحلة البحث التي أتعبتني كثيراً فكانت هاجسا يلاحقني في كل مكان وأرجو أن أكون قد وفقت في صياغته وإخراجه بحلة تليق به لأعبر ولو بجزء صغير على ما يزرخ به المغرب من تراث ثقافي كبير يحتاج الدراسة والبحث والتقيب.

القرآن الكريم:

1- إبراهيم علي أبو خشب:

* الأدب والبلاغة، مطبعة المعرفة، مصر، القاهرة، ط2، 1959.

* تاريخ الأدب في العصر الحاضر، مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، مصر، دط، 1966.

2- ابن الأبار (أبو عبد الله): اعتاب الكتاب، تحقيق صالح الأشر، مطبوعات مجمع اللغة العربية، دمشق، سوريا، ط1، 1961.

3- ابن الأثير (عز الدين أبي الحسن علي بن أبي بكر): الكامل في التاريخ، دار بيروت للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، دط، 1982.

4- ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، 1992.

5- ابن خلدون (عبد الرحمان بن محمد بن خلدون الحضرمي):

* تاريخ ابن خلدون المسمى كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، دت.

* المقدمة المسماة ديوان المبتدأ والخبر في تاريخ العرب والعجم ومن عاصرهم

من ذوي الشأن الأكبر، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دط، 2004.

6- ابن خلكان (أبو العباس شمس الدين أحمد بن محمد أبي بكر): وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزمان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، دت.

7- ابن رشد: تلخيص الخطابة، تحقيق وتقديم عبد الرحمان بدوي، دار القلم، بيروت، لبنان، دط، دت.

8- ابن رشيق (أبو الحسن القيرواني الأزدي): العمدة في محاسن الشعر وآدابه، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، مطبعة السعادة، مصر، ط3، 1963.

9- ابن عذارى (أبو عبد الله أحمد بن محمد المراكشي): البيان المغرب في أخبار المغرب والأندلس تحقيق إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ج4، ط3، 1980.

10- ابن القطان (علي بن محمد الفاسي): نظم الجمان في أخبار الزمان، تحقيق محمد علي مكي، طباعة جامعة محمد الخامس، الرباط، المغرب، دط، دت.

قائمة المصادر والمراجع

- 11- ابن ماجة (الحافظ أبي عبد الله محمد بن يزيد القزويني): سنن ابن ماجة، ضبط نصها شمس الدين منشورات محمد علي بيضون لنشر كتب السنة والجماعة، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2002.
- 12- ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وإبراهيم الأبياري وعبد الحفيظ شلبي دار احياء التراث العربي، بيروت، لبنان، دط، دت.
- 13- ابن وهب : (اسحاق بن إبراهيم): البرهان في وجوه البيان، تحقيق أحمد مطلوب وخديجة الحديثي ، مطبعة العاني ، بغداد ، العراق ، ط1، 1967.
- 14- أبو بكر الصولي: أدب الكاتب، تحقيق محمد بهجة الأثري، المطبعة السلبية، مصر القاهرة، دط، 1341هـ.
- 15- أبو حيان التوحيدي (علي بن محمد بن العباس): الإمتاع والمؤانسة ، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دط، 2005.
- 16- أبو عبد الله محمد بن محمد بن عبد الله الأنصاري الأوسي المراكشي: الذيل والتكملة لكتابي الموصول والصلة، تحقيق إحسان عباس، المكتبة الأندلسية، دار الثقافة ، بيروت، لبنان، السفر الرابع والسفر الخامس، دط، دت.
- 17- أبو علي عمر السكوني: عيون المناظرات، تحقيق: سعد غراب، منشورات الجامعة التونسية ، كلية الآداب والعلوم الإنسانية ، تونس، دط، 1976.
- 18- أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي: بهجة المجالس، تحقيق محمد مرسي الخولي، راجعه عبد القادر القط ، الدار المصرية ، دار الجيل، مصر، دط، دت.
- 19- أبو الفرج الأصفهاني: الأغاني ، تحقيق لجنة من الأدباء ، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط5، 1981.
- 20- أبو هلال العسكري: كتاب الصناعتين ، الكتابة والشعر، تحقيق محمد البجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، المكتبة العصرية ، صيدا ، بيروت، دط، 1406هـ-1986م.
- 21- أحمد أحمد بدوي: أسس النقد الأدبي عند العرب، مكتبة نهضة مصر، القاهرة، ط4، 1964.

- 22- أحمد أمين: فجر الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1979.
- 23- أحمد الشايب: الأسلوب دراسة بلاغية نحليية لأصول الأساليب العربية، مكتبة النهضة المصرية، مصر، القاهرة، ط6، 1966.
- 24- أحمد بن خالد الناصري السلاوي: كتاب الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، منشورات وزارة الثقافة والاتصال، تحقيق وتعليق، أحمد الناصري، ج3، دط، 2001.
- 25- أحمد مختار العبادي: في تاريخ المغرب والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، القاهرة، دط، 2003.
- 26- أرسطو طاليس: كتابة الخطابة، ترجمة وتقديم وتحقيق إبراهيم سلامة، مكتبة الأنجلو المصرية القاهرة ومطبعة لجنة البيان العربي، ط2، 1953.
- 27- الألباني (ناصر الدين):
- * صحيح الجامع: دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دط، دت.
- * ضعيف الجامع الصغير دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، دط، دت.
- * مختصر السلسلة الضعيفة، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، دط، دت.
- 28- آمنة الدهري: الترسل الأدبي بالمغرب النص والخطاب، منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية المحمدية، جامعة الحسن الثاني، المغرب، الرباط، ط1، 2003.
- 29- أندريه ايماروجانين ابوايه: تاريخ الحضارات العام، ترجمة يوسف أسعد داغر وأحمد عويدات، منشورات عويدات، بيروت وجامعة باريس، ط2، 1981.
- 30- بحاز إبراهيم بكير: الدولة الرستمية، المطبعة العربية، غرداية، الجزائر، ط2، 1977.
- 31- جابر عصفور: الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي، دار المعارف، مصر، القاهرة، دط، دت.
- 32- جمال طه: مدينة فاس في عصري المرابطين والموحدين، دار الوفاء للطباعة والنشر، الاسكندرية، ط1، 2002.
- 33- الجاحظ (أبو عثمان بن بحر):

- * كتاب البيان والتبيين، تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دط، دت
- * كتاب الحيوان : تحقيق وشرح عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دط، دت.
- 34- حازم القرطاجني: منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن الخوجة، دار الغرب الإسلامي، تونس، دط، 1981.
- 35- حكمت علي الأوسي: الأدب الأندلسي في عصر الموحدين، مكتبة الخانجي، القاهرة، مصر، دط، 1976.
- 36- حنا الفاخوري:
- * الموجز في الأدب العربي وتاريخه (الأدب في الأندلس والمغرب أدب الإنحطاط) دار الجيل، بيروت، لبنان، ط2، 1991.
- * تاريخ الأدب العربي، المكتبة البوليسية، بيروت، لبنان، ط9، 1978.
- 37- ذي الرمة: الديوان، قدم له وشرحه أحمد حسن بسح، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1995.
- 38- رجاء عيد: في البلاغة العربية، مكتبة الطليعة، دار غريب للطباعة ، أسيوط، القاهرة، دط، دت.
- 39- رشيد بورويبة: ابن تومرت ، ترجمة عبد الحميد حاجيات، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1982.
- 40- زكي مبارك: النثر الفني في القرن الرابع، دار الجيل، بيروت، لبنان، دط، دت.
- 41- سعدون نصر الله: تاريخ العرب السياسي في المغرب، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، ط1، 2003.
- 42- سقراط ثيوكاريس كيسيديس: مسألة الجدل، ترجمة طلال السهيل، المؤسسة الوطنية للاتصال والنشر والإشهار، لبنان، بيروت، ط1، 1987.
- 43- السيد عبد العزيز سالم: تاريخ المغرب الكبير العصر الإسلامي، دار النهضة العربية للطباعة والنشر ، بيروت، لبنان، ج2، دط، 1981.

قائمة المصادر والمراجع

- 44- شهاب الدين الحلبي: حسن التوسل في صناعة الترسل، تحقيق ودراسة أكرم عثمان يوسف، دار الرشيد، بغداد ، العراق، دط، 1980.
- 45- شوقي ضيف:
* تاريخ الأدب العربي (العصر العباسي الأول) ، دار المعارف ، مصر ، القاهرة، ط3، 1981.
- * تاريخ الأدب العربي (عصر الدول والإمارات)، دار المعارف، مصر، القاهرة، ط1، دت.
- 46- طه عبد الرحمان: في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الرباط، ط2، 2000.
- 47- الطاهر محمد توات: أدب الرسائل في المغرب العربي في القرنين السابع والثامن، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، دط، 1993.
- 48- عبد الجليل شلبي: الخطابة وإعداد الخطيب، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط2، 1986.
- 49- عبد الحميد حسين: الأصول الفنية للأدب، مكتبة الأنجلو المصرية، مصر القاهرة، ط2، 1974.
- 50- عبد الحلیم عويس: دولة بني حماد، دار الشروق، بيروت، لبنان، ط1، 1980.
- 51- عبد الرحمان بن محمد الجيلالي: تاريخ الجزائر العام، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط4، 1980.
- 52- عبد الرحمان محمد المنوني، العلوم والآداب والفنون على عهد الموحدين، مطبوعات دار المغرب للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، المغرب، ط2، 1977.
- 53- عبد العزيز عتيق: الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، دط، دت.
- 54- عبد الله العشي: زحام الخطابات، دار الأمل للطباعة والنشر والتوزيع، المدينة الجديدة، تيزي وزو، دط، 2005.
- 55- عبد القادر جغلول: مقدمات في تاريخ المغرب العربي القديم، والوسيط، ترجمة فضيل الحكيم، دار الحدائث للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، ط1 ، 1982.

قائمة المصادر والمراجع

- 56- عبد الله كنون: النبوغ المغربي في الأدب العربي، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني، بيروت، لبنان، ط2، 1961.
- 57- عبد الله علي علام: الدولة الموحدية بالمغرب في عهد عبد المؤمن بن علي، دار المعارف، مصر، القاهرة، دط، 1119هـ.
- 58- عبد الملك مرتاض: نظرية النص الأدبي، دار هومة للطباعة والنشر والتوزيع، الجزائر، دط، 2007.
- 59- عبد الواحد بن علي المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، وضع حواشيه خليل عمران المنصور، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 1998.
- 60- عز الدين اسماعيل: الشعر العربي المعاصر (قضاياها وظواهره الفنية والمعنوية)، دار العودة، بيروت، لبنان، ط3، 1981.
- 61- علي بن عبد الله ابن أبي زرع الفاسي: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط، المغرب، دط، 1972.
- 62- علي بوملحم: في الأدب وفنونه، المطبعة العصرية للطباعة والنشر، صيدا، بيروت، دط، دت.
- 63- علي محفوظ: فن الخطابة وإعداد الخطيب، دار الاعتصام للطباعة، القاهرة، مصر، دط، دت.
- 64- علي محمد الصلابي: إعلام أهل العلم والدين بأحوال دولة الموحدين، دار التوزيع والنشر الإسلامية، مصر، القاهرة، ط1، 2003.
- 65- العباس بن إبراهيم: الأعلام بمن حل بمراكش وأغمات من الأعلام، تحقيق عبد الوهاب ابن منصور، المطبعة الملكية، الرباط، المغرب، دط، 1977.
- 66- الغبريني (أبو العباس أحمد بن أحمد): عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المئة السابعة ببجاية، تحقيق رابح بونار، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، ط2، 1981.
- 67- الفتح بن خاقان: قلائد العقيان في محاسن الأعيان، قدم له ووضع حواشيه وفهارسه محمد العنابي، دار الكتب الوطنية، بيروت، لبنان، دط، دت.

- 68- قدامة بن جعفر: نقد النثر، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، دط، 1982.
- 69- القلقشندي (أبو العباس أحمد بن علي): صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، نسخة وصورة عن الطبعة الأميرية ومذيلة بتصويبات واستدراكات وفهارس تفصيلية مع دراسة وافية، وزارة الثقافة والإرشاد القومي المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطباعة والنشر، ومطابع كوستاتسوماس وشركاه، القاهرة، دط، دت.
- 70- كثير عزة: الديوان، شرح عدنان زكي درويش، دار صادر، بيروت، لبنان، ط1، 1994.
- 71- الكلاعي (أبو القاسم محمد بن عبد الغفور الإشبيلي الأندلسي): إحكام صنعة الكلام، تحقيق محمد رضوان الداية، دار الثقافة، بيروت، لبنان، دط، 1966.
- 72- مارتينو ماريو مورينو: المسلمون في صقيلة، منشورات الجامعة اللبنانية، بيروت، لبنان، دط، 1957.
- 73- محمد أبو الفضل وعلي محمد البجاوي: أيام العرب في الإسلام، المكتبة العصرية للطباعة والنشر والتوزيع، صيدا، بيروت، ط4، 1973.
- 74- محمد أبو زهرة: تاريخ الجدل، دار الفكر العربي، بيروت، لبنان، ط1، 1934.
- 75- محمد بن تاويت ومحمد الصادق عفيفي: الأدب المغربي، مكتبة المدرسة ودار الكتاب اللبناني للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1960.
- 76- محمد بن تومرت: أعز ما يطلب، تقديم وتحقيق عمار طالبي، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، دط، 1985.
- 77- محمد غنيمي هلال: النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، مصر، دط، 2004.
- 78- محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين في المغرب والأندلس، القاهرة، مصر، دط، دت.
- 79- مسلم (أبو الحسين) بن الحجاج ابن مسلم القشيري النيسابوري: الجامع الصحيح، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، دط، دت.
- 80- المقري (شهاب الدين أحمد بن محمد): نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، لبنان، دط، 1988.

قائمة المصادر والمراجع

81- النهشلي (عبد الكريم بن ابراهيم): اختيار الممتع في علم الشعر، تحقيق المنجي الكعبي، تونس، دط، دت.

82- يوسف محمد يوسف: الخطابة، مطبعة الفجر الجديد، بيروت، لبنان، ط1، 1992.

المعجمات

83- ابن منظور (جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم الأنصاري الإفريقي المصري): لسان العرب، تحقيق عامر أحمد حيدر، مراجعة عبد المنعم خليل إبراهيم، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط1، 2003.

84- الجوهرى: الصحاح، تحقيق أحمد عبد الغفور عطار، دار العلم للملايين، بيروت، لبنان، ط3، 1984.

85- الزبيدي (محمد مرتضى الحسيني): تاج العروس من جواهر القاموس، تحقيق علي الهاللي، مراجعة عبد الله الغلايلي وعبد الستار أحمد فراج، مطبعة حكومة الكويت، الكويت دط، 1966.

86- الزمخشري (أبو القاسم جار الله أبو القاسم محمود بن عمر): أساس البلاغة، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ط1، 1412هـ/1992م.

87- الفيروز أبادي: القاموس المحيط، تحقيق أبو الوفاء نصر الدين، الهوريني، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط2، 2007.

الرسائل الجامعية

88- أحمد جاب الله: الأبعاد الموضوعية والفنية في الرسائل الأندلسية خلال القرن الخامس الهجري، أطروحة دكتوراه، جامعة باتنة، السنة الجامعية 2005.

89- محمود محمد خيارى: أدب الرسائل الديوانية في المغرب والأندلس في عهد الموحدين، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، السنة الجامعية 1991.

90- يوسف عروج: الكتابة الفنية في المغرب خلال القرنين السادس والسابع الهجريين، أطروحة دكتوراه، جامعة الجزائر، السنة الجامعية، 1999.

المجلات

91- مجلة الأصالة، العدد 7، السنة الثانية، 2 صفر وربيع الأول، 1392هـ/مارس، أفريل، 1972م، قسنطينة، الجزائر.

"العمد الموحدى نموذجا"

| | |
|-----|---|
| 8-5 |مقدمة |
| | تمهيد (في بوابات الدراسة) |
| | 1- الحياة السياسية و الثقافية في دولة الموحدين |
| 11 |الحياة السياسية |
| 13 |1/1- أصل تسميتهم بالموحدين |
| 14 |1/2- خلفاء الموحدين |
| 17 |الحياة الثقافية |
| 18 |1- المراكز الثقافية |
| 18 |1/1/1- مراكز الثقافة بالمغرب الأقصى |
| 18 |1/1/1- فاس |
| 19 |1/1/2- مراكش |
| 20 |1/31- الرباط |
| 21 |1/2- مراكز الثقافة بالأندلس |
| 22 |1/3- مراكز الثقافة بالمغربيين الأوسط والأدنى |
| 22 |1/3/1- المغرب الأوسط (الجزائر) |
| 22 |1- تاهرت |
| 23 |2- بجاية |
| 23 |3- تلمسان |
| 23 |1/3/2- المغرب الأدنى (تونس) |
| 24 |2- المؤسسات التعليمية وطريقة التعليم |
| 24 |2/1- المساجد (الجوامع) |
| 25 |2/2- المدارس |
| 26 |2/3- الكتاتيب |
| 27 |2/4- الزوايا |
| 28 |2/5- الرباط |

"العمد الموحدى نموذجاً"

| | |
|----|----------------------------------|
| 29 |المسيد.....2/6- |
| 29 |المواد التعليمية.....3- |
| 30 |العلوم النقلية.....3/1- |
| 30 |علم القراءات.....3/3/1- |
| 30 |التفسير.....3/1/2- |
| 31 |الحديث.....3/1/3- |
| 32 |علوم اللغة العربية.....3/2- |
| 32 |النحو.....3/2/1- |
| 33 |الفلسفة.....3/2/2- |
| 34 |توطئة..... |
| 36 |مفهوم النثر..... |
| 40 |أنواعه..... |
| 40 |النثر الفني.....1- |
| 40 |النثر التأليفى.....2- |
| 41 |اهتمام الموحدين بالنثر..... |
| |الفصل الأول (الخطابة) |
| 45 |توطئة..... |
| 46 |تعريف الخطابة.....1- |
| 46 |الخطابة لغة.....1/1/ |
| 47 |الخطابة اصطلاحاً.....1/2/ |
| 50 |تطور الخطابة.....2- |
| 54 |أنواع الخطابة.....3- |
| 54 |الخطابة السياسية.....3/1- |
| 55 |الخطابة الدينية.....3/2/ |
| 55 |الخطابة القضائية.....3/3/ |

"العمد الموحدى نموذجاً"

| | |
|-----|--|
| 55 | 3/4- الخطابة العلمية..... |
| 56 | 4- عناصر الخطابة..... |
| 56 | 4/1/ الخطيب..... |
| 58 | 4/2/ الجمهور..... |
| 58 | 4/3/ الموضوع..... |
| 58 | 5- خطباء الموحدين وأشهر خطبهم..... |
| 60 | 5/1/ خطب المهدي بن تومرت..... |
| 66 | 5/2/ خطب الوزراء والكتاب..... |
| | الفصل الثاني (الرسائل) |
| | توطئة |
| 79 | 1- تعريف الرسائل..... |
| 79 | 1/1/ الرسائل لغة..... |
| 81 | 1/2/ الرسائل اصطلاحاً..... |
| 82 | 2- تطور أدب الرسائل..... |
| 86 | 3- أنواع الرسائل..... |
| 86 | 3/1- القسم الخاص..... |
| 87 | 1/1/ الرسائل الإخوانية..... |
| 87 | 1/2/ الرسائل الأدبية..... |
| 88 | 3/2/ القسم الرسمي..... |
| 89 | 4- بنية الرسائل..... |
| 92 | 5/ أدب الرسائل في عهد الدولة الموحدية..... |
| 94 | 5/1/ الرسائل الديوانية (السلطانية)..... |
| 107 | 5/2/ الرسائل الأدبية..... |
| 108 | 1- في التهاني..... |
| 112 | 2- في الاستعطاف..... |

"العمد الموحي نموذجاً"

- 3- في الصداقة..... 114
4- في الاعتذار..... 115

الفصل الثالث (المناظرات)

1- تعريف المناظرات

- 1/1/ المناظرة لغة..... 121
1/2/ المناظرة اصطلاحاً..... 123
2/ أخلاقيات المناظرات 125
3- تطور أدب المناظرات..... 127
4- المناظرات في بلاد المغرب..... 133

الفصل الرابع (البناء الفني)

توطئة

- 1- البناء اللغوي..... 148
1/1/ قضايا لغوية في الأشكال النثرية..... 151
1/1/ المعجم اللغوي..... 151
1/ ألفاظ دالة على التهئة والفرح والأمل..... 151
2/ ألفاظ دالة على العدو..... 153
3/ ألفاظ دالة على الاستعطاف..... 156
4/ ألفاظ دالة على العقيدة والدعوة..... 157
5/ ألفاظ دالة على التحذير والوعظ والنصح..... 160
5/1/ ألفاظ دالة على التحذير..... 160
5/2/ ألفاظ دالة على الوعظ والنصح 160
2/ التراكيب..... 161
2/1/ الروافد الدينية:..... 161
2/1/1/ القرآن الكريم..... 161

فهرس الموضوعات ————— الأشكال النثرية في الأدب المغربي القديم

"العمد الموحي نموذجاً"

| | |
|---------|------------------------------------|
| 165 |/2/1/2 الحديث الشريف |
| 167 |2/2/2 الرافد التاريخي |
| 169 |/2/2 الروافد الأدبية |
| 169 |/2/2/1 المزج بين الشعر والنثر |
| 171 |2- الخبر والإنشاء |
| 171 |/2/1 الخبر |
| 174 |/2/2 الإنشاء |
| 176 |2- النظام البلاغي |
| 177 |1/الاستعارة |
| 178 |/2/الكناية |
| 180 |3/التشبيه |
| 182 |3- الإيقاع في الأشكال النثرية |
| 184 |3/1 السجع |
| 191 |3/2 الطباق |
| 193 |3/3 المقابلة |
| 194 |3/4 التورية |
| 196 |3/5 الجناس |
| 203-201 |الخاتمة |
| 205 |قائمة المصادر والمراجع |
| 213 |فهرس الموضوعات |